

أُتِشِنْتِي

11

أُخُوَّة

مؤلفات الحضارة الكاثوليكية

ترجمة

أ.د. وفاء عبد الرؤوف البيه

مركز الأزهر للترجمة

أُتِشِنْتِي

(النبر)

يُبرز النبر أحد المقاطع التي تتألف منها الكلمة ويُضَعَف قوة نطقها.

تطلق الحضارة الكاثوليكية هذا الاسم على سلسلة تجمع- وفقا للموضوع- فكرها الممتد منذ عام 1850، مسلطة الضوء على موضوع حالي، أو موحى بشكل خاص.

يقع النبر على كلمة مفتاحية لي طرح اليوم تأملات من الماضي، ويخلق وشائجاً، ويكشف دوافعاً بعيدة. وأملنا هو: إعادة طرح نصوص تُقرأ بحكمة التجربة كي نفهم الحاضر بشكل أفضل.

فهرس

5	مقدمة
5	الكاردينال ميغيل أنجيل أيوسو غيكسوت
5	رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان
8	عرض
17	الأخوة: تحدي النهاية
17	أنطونيو سبادارو
33	الأخوة في العهد القديم
33	سافيريو كورادينو
46	أبناء للأب الواحد: العهد الجديد
46	سافيريو كوراديني
56	مصر، أرض الحضارة والتلاقي
56	أنطونيو سبادارو
71	أبو ظبي، "حراس الأخوة في الليل"
71	أنطونيو سبادارو
82	في المغرب "الكنيسة تتحدث"
82	أنطونيو سبادارو
93	تأملات في وثيقة أبو ظبي
93	فيلكس كورنر
108	استقبال وثيقة الأخوة
108	لوران باسانيزي
118	دروس الحوار الإسلامي المسيحي
118	داميان هوارد
132	الأخوة في نهج البابا فرنسيس
132	دييجو فارس
146	اللاهوتية في سياق دول البحر الأبيض المتوسط
146	بينو دي لوتشو- فرنسيسكو راميريز فويو
156	"حرية، مساواة، أخوة"

156	خوسيه لويس نارفايا
162	رسالة في عيد ميلاد المسيح للبابا بولس السادس عن الأخوة بين البشر
169	كلمة قداسة البابا فرنسيس للمشاركين في المؤتمر الدولي للسلام بالأزهر
176	كلمة شيخ الأزهر ضمن لقاء الأخوة الإنسانية وحوار الأديان المنعقد في الرابع من شهر فبراير 2019
183	كلمة البابا فرنسيس ضمن لقاء الأخوة الإنسانية وحوار الأديان أبو ظبي
191	وثيقة "الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعاون المشترك"
200	كلمة قداسة البابا فرنسيس للشعب والسلطات المغربية
205	المؤتمر اليهودي العالمي
205	كلمة رئيس المؤتمر اليهودي العالمي، رونالد ستيفن لويدر، بالجامعة الغريغورية الحبرية
210	القيم المشتركة ومهمة الأديان
210	عدنان مقراني
214	الاتحاد الهندوسي الإيطالي
214	سفامينا همساناندا غيري
220	الاتحاد البوذي الإيطالي
220	إيلينا سيشين فيفباني
226	جمعية سيخي سيوا
226	هارفيندر سينغ

مقدمة

الكاردينال ميغيل أنجيل أيوسو غيكسوت
رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان

لا أخفي عنكم أنها ليست المرة الأولى التي يُطلب مني فيها الكتابة حول وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك، التي وقعها في 4 فبراير الماضي في أبو ظبي البابا فرنسيس والإمام الطيب. ومع ذلك، صدقوني، يسعدني دائماً أن أقدم إسهامي في هذا الشأن؛ لأن الوثيقة الموقعة في أبو ظبي تُعتبر بالفعل لحظة مهمة للغاية في طريق الحوار بين الأديان وليس فقط في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي، لذا أنا ممتن أيضاً لمبادرة الحضارة الكاثوليكية، التي تقدم لنا مع هذا العدد من سلسلة/تشييتي فرصة ممتازة لتعميق التأمل في هذه الوثيقة.

منذ بداية عهد باباويته، تحدث البابا فرنسيس عن ضرورة أن يحمل الحوار سمات الاحترام والصدقة. صار هذا الموضوع أكثر وضوحاً وواقعية في وثيقة أبو ظبي، التي تُعتبر نافذة جديدة مشرعة نشاهد من خلالها آفاقاً أوسع لمسار الحوار بين البشر من مختلف الديانات، بين رجال ونساء ذوي نيات حسنة، وبهذا يستمر طريق الأخوة والسلام والتعايش المشترك.

وكما قال الأب الأقدس خلال المؤتمر الصحفي أثناء رحلة العودة من أبو ظبي: "من وجهة نظر كاثوليكية، لم تتجاوز الوثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني بمليمتر واحد". في الواقع، لا يمكن فهم الوثيقة إذا لم تُدمج في مسار علاقات الكنيسة الكاثوليكية الدينية البينية طويل الأمد، والذي وجد تعبيراً رسمياً عنه في المجمع الفاتيكاني الثاني. فمع ذلك المجمع، تصدع الحاجز تدريجياً ثم تهاوى: اتسع نهر الحوار مع إقرارات مجمع في عصرنا *Nostra Aetate* حول العلاقة بين الكنيسة والمؤمنين من

الديانات الأخرى، وحق البشر في الحرية الدينية، ثم موضوعات ووثائق ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعضها البعض، أتاحت للقديس يوحنا بولس الثاني إقامة لقاءات مثل اليوم العالمي للصلاة من أجل السلام في أسيزي في 27 أكتوبر 1986، ولبيندكت السادس عشر، بعد خمس وعشرين عاماً من ذلك التاريخ، أن يجتمعنا في مدينة القديس فرنسيس لأجل يوم تأمل وحوار وصلاة من أجل السلام والعدالة في العالم "حجاج الحقيقة، حجاج السلام". لذلك يعتبر التزام الكنيسة الكاثوليكية بحوار بين الأديان يفتح الطريق صوب السلام والأخوة هو جزء من رسالتها الأصلية ويضرب بجذوره في تاريخ المجامع المسكونية.

في المجمل، تشف وثيقة أبو ظبي عن قناعة أننا جميعاً يمكننا، بل يجب علينا، أن نعمل بشجاعة وإيمان لاستعادة الأمل في مستقبل جديد للبشرية؛ هي بلا شك وثيقة إلزامية، بل أقول إنها نقطة اللاعودة التي تتطلب تأمل ودراسة وتُزمننا بنشرها. على الرغم من أن الوثيقة نفسها قد ولدت، كما أوضح الأب الأقدس جيداً، كنتاج لتفكير مشترك، طويل ودقيق بين العالمين الإسلامي والكاثوليكي، إلا أنه لا يوجد بها ما لا يمكن للآخرين مشاركته. إنها دعوة ملموسة إلى الأخوة العالمية التي تهتم كل رجل وامرأة.

في الواقع، ليس من قبيل المصادفة أن الأب الأقدس، خلال رحلته الرسولية إلى تايلاند واليابان (26/19 نوفمبر 2019)، قد أراد مشاركة الموضوعات المطروحة في وثيقة أبو ظبي والإشارة إليها. على سبيل المثال، خلال زيارته إلى مدينة تايلاند، عبر البابا فرنسيس، بعدما أهدى البطريرك البوذي نسخة من وثيقة الأخوة الإنسانية، عن أمله في أن يجري العمل بين المؤمنين من الديانتين، المسيحية والبودية، سوية على إقامة مبادرات ملموسة على طريق الأخوة، قائلاً: "سوف نسهم بهذه الطريقة في تكوين ثقافة التعاطف والأخوة واللقاء، هنا وفي بقاع أخرى من العالم" (زيارة البطريرك الأكبر للبوديين، بانكوك، 21 نوفمبر 2019). وأصر على "ثقافة التعاطف" خلال لقاءات اليابان.

وهكذا ينطلق نص وثيقة أبو ظبي إلى ما هو أبعد حتى من العلاقات بين المسيحيين والمسلمين.

علاوة على ذلك، تعتبر العلاقة بين الغرب والشرق، ليس فقط في معناها الجغرافي، ضرورة ولا يجب تجاهلها حتى أن وثيقة الأخوة الإنسانية نفسها يجب أن تكون: "رمزاً للعناق بين الشرق والغرب، بين المسلمين والمسيحيين، وبين كلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ خَلَقَنَا لِنَتَعَارَفَ وَنَتَعَاوَنَ وَنَتَعَايَشَ كإخوةٍ مُتَحَابِّينَ" (وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك، أبو ظبي 4 فبراير 2019).

عرض

"اليوم تقرض الأخوة نفسها". إنه 22 ديسمبر 1964. يُستشعر في الرسالة الإذاعية للقديس بولس السادس جُل الانتظار، ليس فقط لعيد الميلاد المقدس الوثيكن، ولكن أيضًا لعام (1965) سيبرز على مستوى عالمي جميع تداعيات التوتر بين الرغبة في السلام والأخوة العالمية واستبدال منطق الحرب والتناقضات الإيديولوجية؛ وسيكون، بالأولى، عام تصعيد الحرب في فيتنام، وختام المجمع الفاتيكاني الثاني الذي قاده لبر الأمان بمثابة كبيرة الأب الأقدس نفسه. كان البابا يقول أيضًا في تلك الرسالة أن العقبات التي تعارض الأخوة الإنسانية هي القومية الناهضة، والعنصرية، والنزعة العسكرية، والطبقية، وروح التحزب والتشيع، "والتي تعارض أيديولوجيات، ومناهج، ومنظمات في نفس النسيج الواحد للمجتمعات المختلفة".

مر أكثر من 50 عامًا، لكن هذه التعبيرات، والمخاوف التي تجسدها، لا تبدو وقد عفا عليها الزمن على الإطلاق. ثم يحاول البابا أن يجيب على سؤال جماعي، خالد: "هل الدين سبب الفرقة بين البشر؟" ويجيب بولس السادس: "أوه، نعم"، إذا كان - وهو يشير "على وجه الخصوص" إلى العقيدة الكاثوليكية - "متشددًا، ومتطلبًا، وناهضًا" لدرجة تمنع "حوارا يسيرا وتفاهما عفويا بين الناس". لا يغيب الاهتمام بالأخوة الإنسانية والدعوة إلى دور إيجابي للأديان أبدا عن تعاليم البابا بولس السادس، حتى أننا نجد أيضًا في رسالة يوم السلام في يناير 1971.

واليوم يتكرر نفس الاهتمام ونفس الدعوة، في زمن آخر وبمصطلحات أخرى، في تعاليم البابا فرنسيس. لا يُنظر إلى الأخوة كطموح مطلق ومُعزٍ، إن لم يكن كتهديد للهوية والمبدأ المسيحي- كما يميل البعض إلى وصفها- ولكن كميّار فعّال وعملي للتعايش، وبالتالي كميّار سياسي بمعنى متطور، يفد من التاريخ ومن الوعي المشترك لنفس المخاطر التي تلوح في الأفق؛ إنها قيمة تقاس في يومية اللقاء، والمطاعم التي

نتشاركها، والشوارع والساحات التي نسكنها سوياً، والأطفال الذين يوهب لهم المستقبل، ولا تقاس في أفكار ومنطق القوة.

كل هذا تم إقراره في 4 فبراير 2019 في وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك، التي وقعها في أبو ظبي إمام الأزهر الأكبر، الطيب، والبابا فرنسيس.

يمثل النص خطوة مهمة واستثنائية في الحوار بين المسيحيين والمسلمين، وبشكل رمزي بين جميع الأديان.

في مواجهة إنسانية جريئة ومنقسمة، يُظهر الزعيان الدينيان الموقعان أنه ليس حلماً طوباوياً تعزيز ثقافة اللقاء والاحترام المتبادل من أجل قطع الطريق أمام أولئك الذين ينفثون في نار الصدام بين الحضارات.

في تلك المناسبة أوضح البابا أن "نقطة الانطلاق هي الاعتراف بأن الله هو أصل العائلة البشرية الواحدة [...] التي تنبئنا أن لدينا جميعاً الكرامة ذاتها ولا يمكن لأحد أن يكون سيدياً أو عبداً للآخرين". عند هذه النقطة، وبعد تجاوز مبدأ المعاملة بالمثل الذي ميز لفترة طويلة العلاقة بين الأديان، شدد البابا على أنه "إن كنا نؤمن بوجود العائلة البشرية، فيجب بالتالي المحافظة عليها، كعائلة. وكما في كل عائلة، ذلك يكون أولاً من خلال حوار يوميٍ وحقيقي. هذا الأمر يستلزم هوية شخصية لا يجب التخلي عنها لإرضاء الآخر. ولكنه يتطلب في الوقت عينه شجاعة الاختلاف، التي تتضمن الاعتراف الكامل بالآخر وبحريته، وما ينتج عنه من التزام ببذل الذات كي يتم التأكيد على حقوقه الأساسية، في كل مكان، ومن قبل الجميع. لأننا بدون حرية لا نكون بعد أبناء العائلة البشرية وإنما عبيد".

أخيراً، بتعبير قوي مثل ذلك الذي استخدمه البابا بولس السادس في تلك الرسالة الإذاعية لعام 1965، يعبر البابا فرنسيس عن ضرورة الأخوة ودور الديانات الإيجابية، قائلاً: "لا يوجد بديل: إما أن نبني المستقبل معاً أو لن يكون هناك مستقبل".

في نفس المناسبة، في 4 فبراير 2019، كان الإمام الطيب، مخاطباً "الأخ والصديق العزيز، الأب الأقدس البابا فرنسيس" يبين بصورة مأخوذة من الحياة اليومية، يمكننا أن نفهمها جميعاً، منطلق هذا الحوار الأخوي الممكن: "إن وثيقة الأخوة التي نحتفي بها- قال الطيب في حوار- هي وثيقة وُلِدَت على مائدة كريمة كنت فيها ضيفاً على أخي وصديقي العزيز فرنسيس بمنزله العامر، حين ألقى بها أحد الشَّبَاب الحاضرين على هذه المائدة المباركة".

في الصورة نفسها، بمقدورنا أن نجد أيضاً إسقاطاً ملموساً لمقولة النبي يوثيل العزيزة جداً على البابا: اللقاء حول طاولة طعام مشتركة، لرجلين مسنين يحلمان ونبوة شاب. ما أدهش الإمام الاكبر، كما ذكر هو نفسه، "هو أن هموم قداسته وهمومي كانت مُتطابقة أشد التطابق وأتمه وأكمله".

بالنسبة للطيب تعتبر تلك الوثيقة "دستورا، ميثاق مبادئ لحياتنا [...] لأنها [...] امتداد لدستور الإسلام، وهي أيضا امتداد لفضائل الإنجيل".

لذا، لكي ندلف إلى الطريق الذي تمهده تلك الوثيقة، محاولين نقل روح تلك الأحداث والتطورات التي تحدثها، جمعنا هنا النصوص الأساسية المتعلقة بوثيقة أبو ظبي والمقالات التي نشرتها مجلتنا والتي يمكن أن تساعد على قراءتها بشكل أعمق.

نبدأ خط سير رحلتنا بمقدمة الكاردينال ميغيل أنجيل أيوسو القيمة، وهو رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان. فقد أدرج الكاردينال وثيقة الأخوة في مسار علاقات الكنيسة الكاثوليكية الدينية البينية، والتي وجدت تعبيراً رسمياً لها في المجمع الفاتيكاني الثاني. ويقول إنها على الرغم من ولادتها كنتاج تفكير مشترك طويل ودقيق في العالمين

الإسلامي والكاثوليكي، "لا يوجد بها ما لا يمكن للآخرين مشاركته. إنها دعوة راسخة للأخوة العالمية التي تهم كل رجل وامرأة".

ثم يمتد طريقنا مع التصريح بفكرة واضحة وهي: الأخوة اليوم هي التحدي الحقيقي أمام الكارثة الشاملة. الأخوة ليست مجرد أمر عاطفي أو شعوري. بل هي رسالة قوية تحمل أيضا قيمة سياسية، وتؤدي إلى التفكير مباشرة في معنى "المواطنة": نحن جميعًا أخوة، وبالتالي جميعنا مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات، ونتمتع جميعا في ظل هذا بالعدالة. إن الحديث عن "المواطنة" يطرد أشباح النهاية المتسارعة وكذا الحلول السياسية المصطنعة لمعضلة تجنب الأسوأ. وبذا تختفي فكرة "الأقلية"، التي تحمل معها بذور القبلية والعداء والتي ترى في وجه الآخر قناع العدو. يعتبر نهج البابا فرنسيس ثوريا فيما يخص باللاهوتيات السياسية المتشائمة التي تنتشر في كل من العالم الإسلامي والمسيحي.

نواصل طريقنا بتقديم موضوع الأخوة من وجهة نظر الكتاب المقدس: العهد القديم والجديد. توضح لنا مقالنا سافيريو كورادينو كيف تطور موضوع الأخوة في العديد من مقاطع الكتاب المقدس. في العهد الجديد، يظهر بجلاء موضوع الأخوة، في إنجيل لوقا، كما في الأنجيل الأخرى، ويبرز في أمثال مختلفة فيه، كمثل الأب الرحيم، وواقعة مارثا ومريم، ومثل الفريسي، وفي الأخوة المثالية للخاطئين المصلوبين.

أما القسم الثاني فيجمع سجلات ثلاثة "رحلات أخوة" قام بها البابا فرنسيس عند التوقيع على وثيقة أبو ظبي، ثلاث رحلات على الحدود بين الثقافات والأديان، بين البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط. الأولى، كانت في مصر، رحلة قصيرة جدا ولكنها درامية وعلاجية ونبوية، جاءت كاستجابة لدعوة من قادة الحياتين السياسية والدينية في البلاد. إن شجاعة النبوة و "تطرف الإحسان" هما من يزرعان بذرة للمستقبل. ثم تأتي الرحلة الرسولية للبابا فرنسيس إلى الإمارات العربية المتحدة، إلى أبو ظبي. كانت المناسبة هي "مؤتمر الأخوة الدولي" برعاية مجلس حكماء المسلمين. في تلك المناسبة، وفي هذا السياق، وقع البابا والإمام الأكبر وثيقة "الأخوة الإنسانية". وأخيرًا تأتي الرحلة

الرسولية للبابا فرنسيس إلى المغرب. في كلمات الترحيب التي وجهها ملك المغرب محمد السادس، والتي شدد فيها على "الأخوة التي تعلمها أبناء إبراهيم"، يظهر التأكيد على أن البذرة التي زرعت في أبو ظبي كانت تنمو بالفعل. في المغرب، ظهر أيضا دور الكنيسة، وكل المسيحيين، كـ "حفنة صغيرة" من "خميرة الفضائل والمحبة الأخوية". كُتبت أخبار الرحلة مباشرة، بينما الأحداث تقع بالفعل.

إذن، حاولنا أن نجمع بعض الإسهامات التي تمكننا من تقديم مؤشرات لقراءة ما حدث في 4 فبراير 2019، وقراءة الوثيقة الموقعة.

يقدم لنا فيليكس كورنر قراءة تاريخية وسياقية عنها ويشرح كيف أنها تدمج مصوغات مجمع الفاتيكان الثاني ومطالبات الباباوات في الأعوام الخمسة والخمسين الماضية حول الحوار بين الأديان.

ثم، وبشكل استثنائي، نورد مقاليتين غير منشورتين. يسلط لوران باسانيز الضوء على عنصرين مهمين في الوثيقة. أولاً، كونها دعوة يجب تنفيذها، في شكل قوانين وإصلاحات حقيقية، وعلى وجه الخصوص من جانب أنظمة التعليم في جميع أنحاء العالم. ثانياً، نحن لسنا أمام "تصريح إسلامي مسيحي" آخر، إنما هي وثيقة موجهة إلى الجميع، بعيداً عن الانتماء الديني. ومع ذلك، تدعو الوثيقة، في الوقت نفسه، إلى تجديد ملموس لخطاب وأسلوب اللقاءات الدينية البيئية. وهنا يتدخل داميان هوارد مقترحاً بعض الملاحظات التي تأتي من الخبرة الميدانية في مجال الحوار الإسلامي المسيحي بالتحديد، حول ما يمكن أن يشكل، عملياً، مساعدة فعالة لتحسين الحوار المستمر، والتحديات التي يواجهها والعقبات التي قد تعوق طريقه.

يصف ديبغو فارس، على أربعة مستويات تأملية-عائلية وإنجيلية وفلسفية واقتصادية اجتماعية- كيف تكون الأخوة قيمة أساسية وممنهجة في مسار البابا فرنسيس. ويبين كل من بينو دي لوتشو وفرنسيسكو راميريز فويو، معلمين على خطاب البابا في المؤتمر، في مداخلة بعنوان "اللاهوت بعد" بهجة الحقيقة" في سياق البحر

الأبيض المتوسط"، أن المسار الذي أدى إلى أبو ظبي ليست مرتجلا أو ساذجا، ولكنه مبني على أساس دقيق وصلب: لاهوتية الحوار.

وأخيراً، نتذكر كيف تم الاحتفاء بالأخوة وترقيتها إلى قيمة "علمانية" أثناء الثورة الفرنسية على وجه الخصوص. يشرح خوسيه لويس نارفايا لماذا لا يمكن اعتبار الثورة الفرنسية التتويج النهائي للمثل التي أعلنتها، بل واعتبارها مرحلة على الطريق. وأشار البابا فرنسيس نفسه إلى المهمة التنظيمية التي تمارسها/الأخوة، بطريقة لا تجعل الحرية والمساواة يتسببان في فشل العلاقات الإنسانية.

يقدم المجلد إذن وثيقة أبو ظبي، ووثائق أخرى أيضا ذات صلة بها. الوثيقة الأولى هي خطاب البابا فرنسيس أمام مؤتمر القاهرة الدولي للسلام في 28 أبريل 2017 خلال رحلته الرسولية إلى مصر. ثم خطابا البابا والإمام الأكبر قبل توقيع الوثيقة في 4 فبراير 2019. وأخيراً، الخطاب الذي ألقاه فرنسيس أمام السلطات في الرباط في 30 مارس 2019، خلال رحلته الرسولية إلى المغرب. لكننا قررنا أيضاً ضم وثيقة/إضافية: الرسالة الإذاعية للقديس بولس السادس بتاريخ 22 ديسمبر 1964 عن الأخوة الإنسانية، وهي التي ذكرناها في بداية هذا العرض.

يُختتم مجلدنا ببعض الشهادات والأصداء ذات القيمة الكبيرة لنا. تتسم مساهمة رئيس المؤتمر اليهودي العالمي بأهميتها الكبيرة، وكذا مساهمة الأستاذ عدنان مقراني، الأستاذ في المعهد البابوي للدراسات الإسلامية (بيساي) وفي الجامعة البابوية الجريجورية.

ونذكر أيضاً أنه خلال رحلة فرنسيس إلى تايلاند، أهدى البابا نسخة من نص وثيقة أبو ظبي للبطريرك البوذي. وخلال رحلته إلى اليابان، اقتبس من نصها في هيروشيما، حيث أسقطت القنبلة الذرية على البشر بطاقتها المدمرة المروعة؛ ثم ذكرها أيضاً في خطابه أمام رئيس الوزراء. الوثيقة ترحل نحو الشرق، نحو الشرق الأقصى. وقد ظهر بالفعل صدى الوثيقة القوي على العالم البوذي، والهندوسي، وعلى السيخ، وهذا ما نورده هنا.

لهذا السبب، ننشر هنا بعض كلمات لديانات الشرق الأقصى، وهي نتاج لقاء فكري عُقد في روما في 15 نوفمبر 2019. نظمت الفعالية سفارة الأرجنتين لدى الفاتيكان، برعاية المجلس البابوي للحوار بين الأديان وبالتعاون مع معهد الحوار بين الأديان في الأرجنتين. وشكر السفير روجيليو فيرنر لإعطائنا هذه النصوص. في ختام هذا العرض، أشكر دكتور سيموني سيريني الذي عملت معه لاختيار المداخلات التي يتألف منها هذا المجلد. تشاركت معه تصميم وتنفيذ هذا العدد من مجلة *أتشيتي*.

نقدم هذه الصفحات لقرائنا على أمل أن ترشدهم لفهم أكثر وضوحا لما حدث في أبو ظبي في 4 فبراير 2019، للوثيقة التي تم التوقيع عليها آنذاك، وللأخوة بوصفها "تحديا قويا أمام الكارثة الشاملة".

نُشر هذا المجلد تحت رعاية "اللجنة العليا للأخوة الإنسانية". تتكون "اللجنة العليا للأخوة الإنسانية" من قادة دينيين، وباحثين في التربية، ورجال ثقافة يستلهمون فكرهم من الوثيقة ويكرسون أنفسهم لتشارك رسالة التفاهم المتبادل والسلام. وهم يعملون انطلاقا من التطلعات المبيّنة في الوثيقة، ويجتمعون مع الزعماء الدينيين، ورؤساء المنظمات الدولية، وغيرهم في جميع أنحاء العالم لدعم ونشر قيم الاحترام المتبادل والتعايش السلمي. كما تتولى اللجنة أيضا تنفيذ الخطط والبرامج والمبادرات التي تضمن مستقبلا سلميا للأجيال الجديدة. تشمل مهام اللجنة الإشراف على تنفيذ الوثيقة على المستوى الإقليمي والدولي، وتنظيم اجتماعات دولية مع الشخصيات الدينية والقادة ورؤساء المنظمات الدولية والأطراف المعنية الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، فإن اللجنة لها دور أساسي في الإشراف على بيت الأسرة الإبراهيمية في أبو ظبي، وهي إحدى مبادراتها الأولى، والتي تجسد العلاقة بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة وتوفر منبرا للحوار والتفاهم والتعايش بينها.

تأسست اللجنة في 20 أغسطس 2019، واجتمعت لأول مرة في 11 سبتمبر 2019، الساعة 8:30 صباحًا، في منزل القديسة مارتا.

مع تطور الأنشطة الدولية للجنة، سينضم إلى أعضائها بمرور الوقت قادة الديانات والمذاهب والمعتقدات الأخرى. وهي تطمح إلى مواجهة التحديات المعقدة التي تواجهها المجتمعات من جميع الأديان، متبعة نهجا يعتمد على أسلوب الانفتاح والتعلم والحوار.

شهدت اللجنة محور الحديث العديد من المبادرات والاجتماعات المختلفة، تُبين في شتى تفاصيلها على موقع forhumanfraternity.org. ونذكر، بشكل خاص، أن اللجنة قد اجتمعت في نيويورك في 4 ديسمبر 2019 مع الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش، وسلمت له رسالة من البابا فرنسيس وإمام الأزهر الأكبر، يُقترح فيها أن يُعلن 4 فبراير اليوم العالمي للأخوة الإنسانية. كما طُلب من الأمم المتحدة المشاركة، إضافة إلى المقر المقدس وجامعة القاهرة السنوية الموقرة، في تنظيم القمة العالمية للأخوة الإنسانية في المستقبل القريب. وأعرب غوتيريش عن تقديره واستعداده للمشاركة في المبادرة، مشددًا على أهمية العمل في خدمة البشرية بأكملها، وعين أداما دينج - مستشاره الخاص لخطاب الكراهية ومنع الإبادة الجماعية- ممثلًا عن الأمم المتحدة في متابعة الأنشطة المقترحة والتعاون مع اللجنة.

تتكون اللجنة حاليًا من 9 أعضاء: الرئيس هو سعادة السيد ميغيل أنجيل أيوسو جويكوت MCCJ، رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، والأمين هو محمد محمود عبد السلام، قاضي ومستشار الإمام الطيب السابق. يمثل المقر المقدس السيد يونس لحظي جايد، السكرتير الخاص للأب الأقدس. كما تشارك جامعة الأزهر أيضا بممثلها الأستاذ الدكتور محمد حسين عبد العزيز حسن. يمثل دولة الإمارات العربية المتحدة السيد محمد خليفة المبارك، رئيس أبو ظبي للثقافة، والسيد ياسر سعيد عبد الله حارب المهيري، كاتب وصحفي، والسيد سلطان فيصل الخليفة الرميثي، أمين عام حكماء المسلمين.

في 17 سبتمبر 2019، اختير الحاخام بروس لوستيخ من مجمع يهود واشنطن.
كما اختيرت أيضا في 16 نوفمبر السيدة إيرينا بوكوفا، المدير العام السابق لليونسكو.
وستنضم شخصيات أخرى لاحقاً.

أنطونيو سبادارو

مدير الحضارة الكاثوليكية La Civiltà Cattolica

الأخوة:

تحدي النهاية*

أنطونيو سبادارو

في 9 نوفمبر 1989، سقط جدار برلين. منذ ذلك اليوم، هدم الآلاف من سكان برلين هذا الرمز الذي جعلهم رهائن لمدة ثلاثين عامًا تقريبًا. هذا يوم رمزي لغروب الشمولية. كان يبدو أن عصرًا جديدًا ينشأ، تميزه العولمة. ولكنه يكتسب اليوم ملامح اللامبالاة والصراع، كما يكرر عادة البابا فرنسيس. ففي مقابل هذا الجدار المنهار، قامت عدة جدران في العالم¹. لم يستخدم البابا، متحدًا إلى مجموعة من اليسوعيين، أنصاف مصطلحات: "توجد جدران تفصل حتى الأطفال عن والديهم. يتبادر إلى ذهني هيرودس. أما بالنسبة للمخدرات فلا تقام أمامها جدران"².

عندما تحدث البابا فرنسيس عن الكنيسة في كونها "مستشفى ميداني"، لم يكن يقصد استخدام صورة جميلة وفعالة من الناحية الخطابية. كان يمثل أمام عينيه سيناريو "الحرب العالمية في أجزاء". تتخذ الأزمة العالمية أشكالاً مختلفة وتجد تعبيراً عنها في النزاعات، والأسلاك الشائكة، وأزمات الهجرة، والأنظمة المتهاوية، والتحالفات الجديدة المهدة، والطرق التجارية التي تفتح الطريق أمام الثروة والتوترات في الوقت ذاته. يمكننا إنشاء خريطة لكنها غير مكتملة دائماً³.

كبح النهاية: الإمبراطورية أم الكنيسة؟

*العنوان الأصلي: "تحدي نهاية العالم".

¹ انظر ج. سالفيني، "الجدران بين الشعوب تتزايد"، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2018، ص. 364-371.

² فرانثيسكو، "طريقنا الصغير". البابا يلتقي اليسوعيين في تايلاند واليابان"، في 2019.

³ كانت المرة الأولى التي استخدم فيها فرنسيس عبارة "مستشفى ميداني"، في إشارة إلى الكنيسة، أثناء المقابلة التي أجريت معه في بداية حبريته: أ. سبادارو، "مقابلة مع البابا فرنسيس"، في عام 2013. حول منظور فرنسيس للعالم، انظر نفس المؤلف، *عالم فرنسيس الجديد*. كيف يغير الفاتيكان السياسة العالمية، البندقية، مارسيليو، 2018.

ما معنى هذه القصة التي نعيشها؟ قبل بضع سنوات، أشار ماسيمو كاتشيارى، في كتاب بعنوان *القوة الكابحة*، إلى طريق نعتقد أنه ينبغي علينا أن نسلكه. فقد اقترح انعكاساً لعلم اللاهوت السياسي في ضوء الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكى (6، 2-7). كتب عن الهيئة الغامضة للوسط *Katechon*، أي الشيء أو الشخص الذي "يحجز" و"يشمل"، حاجبا أو مانعا اعتداء ابن الهلاك⁴. بطريقة ما، يمكن مقارنة وظيفته بدور شقيق بروميثيوس، ابتيميثيوس: بعد غروب حلم التقدم الذي كان يحمله بروميثيوس على عاتقه، جاء دور شقيقه للتحكم في مصير البشر، مانعا فتح الأوعية التي تحمل شرور العالم.

سعى آباء الكنيسة إلى تحديد هوية من يتحدث عنه بولس وما الذي يمكن أن يعوق نهاية العالم. حتى وقت معين، كان التفسير السائد أن *الوسط* هو الامبراطورية الرومانية، بقوتها الادارية التي كانت توحد العالم. ولكن هذه الوظيفة لا يمكنها إلا ان تحمل معها في الوقت نفسه سلطة روحية. مع انهيار الإمبراطورية، انتقلت هذه الوظيفة، في الواقع، إلى الكنيسة، التي أصبحت بهذا وريثة الإمبراطورية.

لكننا نعيش اليوم في بُعد عالمي لم تعرفه الإمبراطورية الرومانية. سؤالنا إذن هو: ما هي مهمة الكنيسة في هذا السيناريو المعقد؟ يبدو أنه لا مفر من التفكير في بديل، يوجد احتمالان فقط. الأول: الإعلان عن نهاية وشيكة لهذا "العالم" وتعجيل نهايته قدر الإمكان. والثاني: تكوين "جدار حامي"، وقوة كابحة، وخط دفاع أخير قبل الكارثة التي قد تحدث بسبب القوة التي تسيطر على نظام العولمة المتوحش، وتحكم العلاقات، ضامنة الحصانة والسلامة للمال فقط. هل نحن متأكدون من عدم وجود احتمال ثالث؟ هذا ما سنحاول التحقق منه.

دور الكنيسة في نهاية العالم

هل الكنيسة هي مستشفى ميداني بمعنى أنها تداوي جراح الحرب الخاسرة الآن، أم أنها تنوي إعادة القوة للأجساد المنهكة كي تستأنف القتال؟ هناك من يستغل بقوة

⁴ انظر، م. كاتشيارى، *القوة الكابحة*. مقال عن اللاهوت السياسي، ميلان، أدلفي، 2013.

التسارع الذي يميل إلى بناء غيتو من عدد قليل "من الانقياء" ضد "الأخرين"، أي الأشرار الكثيرون المنتشرون.⁵

ماذا عن فرنسيس؟ هل تقوم مهمته كبابا روماني على مثالية عالم أفضل أم على مأساة هدم العالم التي يجب تجنبها بأي ثمن؟ بالنسبة له، هل تعتبر الأرض كرة مثقوبة يجب ركلها بعيدا للقضاء على الشر مع الإشارة إلى "سماة جديدة وأرض جديدة"؟ أم إنها مزهريّة فخارية مكسورة يجب ترميمها قطعة تلو الأخرى بأي ثمن، ويعمل بطيء على "تجميع" اجزائها؟

بالنسبة لفرنسيس، ليست مهمة الكنيسة هي التكيف مع ديناميكيات العالم، والسياسة، والمجتمع لتدعيمها والحفاظ على حياتها بأقل الخسائر: هذا ما يعتبره هو "دنيوية". كما أنه لا ينوي الاحتشاد ضد العالم وضد السياسة والمجتمع. إن البابا لا يرفض الواقع الوشيك من نهاية العالم المتمناة، نهاية تنتصر على شر العالم مدمرة إياه. هو لا يعمل على دفع أزمة العالم إلى أقصى حد معلنا عن النهاية الوشيكّة، كما أنه لا يتمسك بأجزاء عالم ينهار باحثا عن تحالفات مريحة، ومتوازنة ومضمونة. علاوة على ذلك، هو لا يحاول القضاء على الشر، لأنه يعلم أنه مستحيل، لأنه سينتقل ببساطة وسيظهر في مكان آخر وبأشكال أخرى. بل سيحاول تحييده. هنا بالضبط تكمن جدلية عمل بيرجوليو. وهنا توجد عقدة فهم ماهية معناها.

الدور العالمي للكاتوليكية في السياق الحالي

ولهذا السبب، من منظور دبلوماسي، يتحمل فرنسيس مسؤولية المواقف الخطيرة. يجتمع الحذر الدبلوماسي التقليدي مع ممارسة حرية التعبير الكنسية، التي تقوم على الوضوح والشجب أحيانا: المواقف التي اتخذت ضد الرأسمالية المالية المضاربة، والإشارة المستمرة إلى مأساة المهاجرين، "العقدة السياسية العالمية الحقيقية"⁶، وذكرى

⁵ إنه بحث مؤلفين مثل رود دريهر الذي ناقشناه في ليند: ما هي مهمة المسيحيين في مجتمع اليوم؟ "خيار بنديكت" وبدعة دوناتيسنا، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2018.

⁶ "البابا فرنسيس يلتقي الحضارة الكاثوليكية *La Civiltà Cattolica* بمناسبة نشر المجلد 4000"، 2017.

"الإبادة الجماعية" الأرمنية، وإضفاء الطابع الرسمي على العلاقات مع دولة فلسطين. إن الأصداء المستمرة التي أنتجتها هي تلك التي تعلق من "صوت يصرخ في الصحراء"، على حد تعبير أشعيا، نبي الكتاب المقدس. ولا يتردد بابا الرحمة في الصباح "ملعونين"، خلال قداس القديسة مارتا، لأولئك الذين يشعلون الحروب ويستفيدون منها. يواجه فرنسيس الدور العالمي الجديد للكاتوليكية في سياق اليوم. وفي هذا السياق، تظهر رؤيته في الأساس كروية روحية وإنجيلية للعلاقات الدولية. حتى عندما يتحدث عن الدبلوماسية، كما فعل في اجتماعه الخاص في 3 مايو 2018 في أكاديمية كنسية، فإنه يؤكد أنها "دبلوماسية الركوع"، أي أنها متأصلة في الصلاة.

كل شيء يكمن في البديل الذي تحدثنا عنه في البداية. إذا أراد فرنسيس أن يمنع الانهيار، فإنه لا يستطيع الاستغناء عن القانون، والسلطة القائمة، والوساطة بين الدولة والكنيسة، والقواعد التي تسمح للنظام بأن يحافظ على نفسه، وصولاً إلى المواءمة. أما إذا كان يريد تعجيل الوصول إلى السماء الجديدة والأرض الجديدة، فلن يكون أمامه خيار سوى أن يصبح عامل هدم وشجب وتفكيك لكل ما يدعم وجود السلطة، وبالتالي العالم في الهيئة التي يبدو عليها.

ومن هنا نشأ صراع التفسيرات. من يهاجم فرنسيس يفعل ذلك لأنه يتهمه بالتصالح مع "العالم". ومن ناحية أخرى، هو يهدم الطبقة الحاكمة-على الصعيد المدني والكنسي، والتي يمثلها هو نفسه- ويعرض قائمة الأمراض التي يحملها هو نفسه. أما من يمدح فرنسيس فيفعل ذلك لأنه يشعر بإدراكه الرحيم لواقع العالم. ومن ناحية أخرى، يقول البابا بقوة- فعل ذلك أثناء زيارته لنابولي- إن الفساد "يفوح"، مستخدماً كلمات تنديد واضحة.

هناك معيار روحي عميق يجب ألا يغيب عنا أبداً. إنه ما يدفع يسوع إلى الترحيب بالخطيئ وطرد التجار من المعبد. المعيار هو يسوع نفسه؛ هناك مَنْ، بالنظر إلى الفعلين، يعتبرهما متناقضين لأنه- بسبب التشدد أو التراخي- لم يفهم إنجيل المسيح.

إن التعامل مع سياسات فرنسيس الدولية يعني الانغماس في رؤية روحية يغذيها إحساس عميق بالكارثة المحتملة وقوى الشر الفاعلة، وفي الثقة الفريدة في سر الله الذي يحملنا على قبول الخطوات الصغيرة، والمسارات، والسلطة الدنيوية، والمحادثات، والمفاوضات، والأزمة الطويلة، والوساطات.⁷

لكن هذا القبول يقوم على الوعي بأن العالم لا ينقسم بين الخير والشر، بين الأختيار والاشرار. والخيار لا يكمن في تمييز القوى (الحزبية، السياسية، العسكرية...) التي تتحالف معها وندعمها من أجل تحقيق النصر. هذا القبول للمحادثات الدبلوماسية يرتكز على اليقين بأن إمبراطورية الخير لا تقوم في هذا العالم. لهذا السبب نحن نحتاج إلى الحوار مع الجميع. تسقط سمة القدسية عن السلطة الدنيوية تماما. إذا كان من يمتهن السياسة مدعوا ليصبح "قديسا" بالتحديد من خلال كونه سياسيًا، يعمل من أجل الصالح العام، فمن ناحية أخرى، لا توجد أي قوة سياسية "مقدسة".

بهذا المعنى، يثق فرنسيس فقط في المستقبل الأخرى، يثق بالله وحده. وهذا بالضبط هو ما يدفعه إلى بذل كل جهد ممكن للتركيز على "التكامل"، في كل شيء- بغض النظر عن أي وهم زائف "للإمبراطورية المقدسة"- يدفع بالبشر الى طريق الخير، حتى وسط إجراءات هذا العالم. لهذا السبب بالتحديد لا أحد يلعب دور "السيئ"، أي يجسد الشيطان. وهذا الأمر يترك الباب مفتوحًا (أحيانًا ضيقًا حقًا، ولكنه مفتوح على أي حال) حتى في المواقف السياسية المثيرة للمشاكل.

ضد إغواء الكاثوليكية القبلية

لا تدفع الطاقة التي تجعله يكبح سقوط العالم في الهاوية البابا إلى تسوية وسطية مع السلطات. هذه هي النقطة الأكثر دقة في فكره، لأنه في بعض الأحيان تعتقد الكنيسة أن الطريقة الوحيدة لإيقاف الاضمحلال هي التحالف مع حزب سياسي يسمح لها بالبقاء كمؤسسة فاعلة. كانت هذه في الأغلب هي دراما إيطاليا. ولم ينطفئ الحنين لها بعد. على

⁷. انظر فرنسيس، "طريقنا الصغير".

جانبا اخر، لا يعتقد بيرجوليو في قوة السلطة هذه. لأن المقدس ليس داعما للسلطة. والقوة ليست داعمة للمقدس.

بهذا يتضمن خطاب البابا الرفيع موضوعات المساواة، وضرورة "الأرض والمنزل والعمل"، كما يتضمن الموضوعات المتعلقة بالحرية. تظهر "النسبية" الآن أكثر في جوانبها الاجتماعية المدمرة. وتمس الدعوة إلى "الصراع" ضد دكتاتورية النسبية قلب الكرامة الإنسانية، التي تظل بلا حماية، عاجزة بدون أرض ومنزل وعمل. لا يحدث هذا لكي يتخيل البابا فرنسيس الجنة على الأرض، فطوباويته ليست دنيوية. لكن لأن نظرتة نظرة الإيمان تقوم على الحساب الأخرى كما يقدمه لنا إنجيل الطوباويات.

وفي هذا الصدد، أشار أحد السفراء إلى أن "لغة بينديكت السادس عشر كانت لغة الحداثة الغربية، التي اعترفت، من ناحية، بتعددية وجهات النظر العالمية في المجتمع المعاصر، ومن ناحية أخرى أدانت "دكتاتورية النسبية". أما لغة فرنسيس، فعلى الرغم من مواجهتها العديد من تحديات الحداثة الثقافية، فتعتبر عملية الاستقطاب الاجتماعي والاقتصادي التي تتكشف على نطاق عالمي، بتقدم سريع وكثافة متزايدة، سائدة في الآن نفسه"⁸.

عند هذه النقطة، يسقط التعارض بين العلمانية والمسيحية، اللتين يُنظر إليهما بوصفهما فئتين أيديولوجيتين وحقلين دلاليين ومرجعيتين مجردتين. إن الروح القدس لا يشملها شيء. والفكر "المسيحي" يعارض في حد ذاته التفكير "العلماني" إذا تحول إلى أيديولوجية فقط. ولكنه إذا أصبح أيديولوجية في حد ذاته، فقد كل علاقة له بالمسيح. في الواقع - قال البابا في مصر⁹ - تسقط جميع الاتجاهات المتعارضة التي تصلبت بفعل غبار الزمن. تتسم المعرفة الحقيقية "بكونها منفتحةً وفي حركةٍ دائمة، ووديعةً ومجتهدةً في الوقت عينه". هناك تعارض واحد فقط: إما "ثقافة اللقاء" أو "ثقافة

⁸ فيرارا، عالم فرنسيس. بيرجوليو والسياسة العالمية، شينيزيللو بالسامو، ميلانو. سان باولو. 2016، ص. 21.

⁹ انظر فرنسيس، خطاب للمشاركين في مؤتمر السلام الدولي، القاهرة، 28 أبريل، 2017.

الصدام". وماذا عن الأديان؟ "شعَّ أيضًا على هذه الأرض نورُ الأديان المتعدّد الألوان". لا يضع التعدد الألوان في تعارض فيما بينها، بل يشملها في رؤية غير متضاربة. في النهاية، هذه هي المشكلة الكبرى اليوم: غالبًا ما نعيش الاختلاف على هيئة صراع.

أكد البابا فرنسيس في خطابه في العدد 4000 المنشور في مجلة الحضارة الثقافية: "انشروا معنى "الحضارة الكاثوليكية"، وأخبروا الكاثوليكين أيضا أن الله يعمل حتى خارج حدود الكنيسة، في كل "حضارة" حقيقية بنفخة الروح". قبل ذلك بوقت قصير، في نفس الخطاب، قال إن "الثقافة الحية تميل إلى الانفتاح، والتكامل، والتكاثر، والمشاركة، والحوار، والعطاء والاستقبال بين الناس ومع الشعوب الأخرى التي تقوم بينها علاقات"¹⁰.

الثقافة عند بيرجوليو لها قيمة الفعل وليس المسمى فقط. تعبر الأفعال وحدها عن ذلك بشكل جيد. أفعال مثل الانفتاح والاندماج والتكاثر والمشاركة والحوار والعطاء والاستقبال. سبعة أفعال مرنة في الماضي والحاضر والمستقبل. سبعة أفعال يمكن أن تشير أو أن تدعو أو أن تعبر عن فعل الأمر الذي يترجم الى فعل¹¹. الفعل الأول هو "يفتح".

إن فكرة الشعبوية الكاثوليكية أو- الأسوأ من ذلك- العرقية الكاثوليكية بعيدة كل البعد عن أفكار البابا، لأن الله الذي يبحث عنه موجود في كل مكان. إن فكرة "القبلية" التي قد تلائم سفر الإنجيل أو رمز الصليب نفسه بعيدة تماما. لا تتشابه مفاهيم الجذور والهوية بين الكاثوليكية والوثنية الجديدة. إن الجذور العرقية المتطرسة، والانتقامية هي ببساطة نقيض المسيحية.

الحرب العالمية الثالثة ليست قدرا. وتجنبها يعني توظيف الرحمة والبعد عن الروايات الأصولية والمروعة التي ترتدي الأقنعة الدينية. يتحدى فرنسيس نهاية العالم وفكر الشبكات الإلكترونية السياسية التي تدعم جغرافيا سياسية كارثية في المواجهة

¹⁰لقاء البابا فرنسيس بمجلة الحضارة الكاثوليكية بمناسبة نشر العدد 4000.

¹¹ نفس المصدر السابق

النهائية، المميّنة والحاسمة. إن جماعة المؤمنين، والإيمان، ليست أبداً مجتمع من المقاتلين، ولا مجتمع قتال.

ينبغي الفكّك من الإغراء العرضي لإلصاق صفة الألوهية بالسلطة السياسية التي تستغل هذا لتحقيق أهدافها الخاصة. وهكذا تفرغ آلة الحكي الطائفية الأزلية التي تقوم بالإعداد لنهاية العالم و"المواجهة النهائية". يعبر التأكيد على الرحمة كسمة أساسية لله عن هذه الحاجة المسيحية الراديكالية.

لهذا السبب، يقدم فرنسيس رواية مضادة منظمة تقابل رواية الخوف. لهذا السبب ينبغي أن نقاتل ضد التلاعب بموسم القلق وانعدام الأمن هذا. ولهذا أيضاً، وبشجاعة، لا يمنح البابا أي شرعية لاهوتية-سياسية للإرهابيين، ويتجنب، على سبيل المثال، أي اختزال للإسلام في الإرهاب الإسلامي. كما أنه لا يمنحها أيضاً لمن يفترضون ويريدون "حرباً مقدسة" أو الذين يبنون حواجزاً من الأسلاك الشائكة بحجة نهاية العالم، ووضع حاجز مادي ورمزي من أجل استعادة "النظام". السلك الشائك الوحيد في المسيحية هو، في الواقع، إكليل الشوك الذي يحمله المسيح على رأسه.

القديس فرنسيس على عرش القديس بطرس

يأتي فرنسيس، بطريقة إنجيلية مستقزة، ليطلق على الإرهابيين أنفسهم تعبيراً مليئاً بالإدانة والتعاطف: "أناس بؤساء مجرمون". استخدم هذا التعبير في لقاء مع اللاجئين والشباب ذوي الاحتياجات الخاصة في كنيسة بيتانيا الكاثوليكية اللاتينية في 24 مايو 2014. بين الأسطر، ننظر إلى الخاطئ دائماً- الإرهابي في هذه الحالة- على أنه "الابن الضال" وليس نوع من التجسد الشيطاني أبداً. حتى التأكيد الفردي على أن إيقاف المعتدي الظالم هو حق للإنسانية، يفترض أيضاً أنه "حق للمعتدي"، أي "الحق في أن يتم إيقافه حتى لا يضر". وبهذه الطريقة يُنظر إلى الواقع من منظور مزدوج، يشمل ولا يستبعد العدو وخيره الأعظم.

إن محبة المسيحي التقليدية ليست تلك التي توجه نحو "الأخر" فقط، بل تلك التي تشمل "العدو" أيضاً. عندما نصل إلى حد النظر إلى الإنسان الذي يرتكب الأفعال المريعة

بنوع من الشفقة، تنتصر بطريقة لا يمكن تفسيرها منطقيًا تلك التي يمكن اعتبارها قوة إنجيل المسيح الداخلية: محبة العدو. إنه انتصار الرحمة.

من دون هذا، يخاطر الإنجيل بأن يصبح خطابًا تحريريًا، لكنه بالتأكيد ليس ثوريًا. اختيار فرنسيس هو اختيار المسيح أمام السائل العظيم، كما يقدمه دوستوفسكي لنا في "الإخوة كرامازوف": قبة على شفاه من يُعلن حكم الإعدام عليه؛ لا تغير القبة الرأي، لكنها تحمل الشفتين على الارتجاف و"تحرق القلب".

يعارض البابا بقوة فتنة اعتبار الكاثوليكية ضمانًا سياسية، "الإمبراطورية الأخيرة"، وريثة الآثار المجيدة، مكبح الانحطاط، في مواجهة أزمة القيادة العالمية في العالم الغربي. أي عبارة مبسطة، هو يأخذ المسيحية بعيدًا عن إغواء أن تظل وريثًا للإمبراطورية الرومانية. هذا الإرث الذي يمزج بين السلطة والقوة السياسية والقوة الروحية التي ذكرناها في البداية. إنه مجرد القوة الروحية من إطار الزمن، ومن دروعها، وأرديتها الحديدية الصداة. هو، في ثوبه الأبيض- وبدون سلاح- يعيد المسيحية إلى المسيح. لم يعد يرتدي اللون الأحمر، اللون التقليدي للإمبراطوري الذي يعبر عن تقليد أسقف روما للإمبراطور، والذي يقدم له دستور كونستانتيني التبرير والعقوبة القانونية. دعونا لا نخدع أنفسنا: التشابك بين الكاهن والامبراطور لا يسهل كشفه. ربما نحن لا نعرف حتى كيف ستكون نتيجة هذه العملية. يجب توضيح الشروط والإمكانيات. من المؤكد أن البابا لم يعد يتوج بشكل رمزي أي "ملك" للدفاع عن الإيمان. نعم، هو زعيم ديني ذو أهمية عالمية، ولكنه أيضًا قائد يتمتع بقوة ناعمة قادرة على تقديم رؤية لعالم له مستقبل.

بهذا المعنى، يكون القديس بطرس هو القديس فرنسيس. بالنسبة للبعض هذا هو التناقض، "الفضيحة"، حجر العثرة أمام قراءة البابوية. تتقاطع هالة قديس أسيزي، المسيحي الفقير، مع هالة قديس المسيح. ويتخلى عن صورة الإمبراطور الروماني إلى الأبد. لكنه يفر أيضًا من خطر أن يصبح دون كيشوت، يحارب ضد طواحين الهواء في عصرنا. ويتجنب دور مرشد الأرواح الصالحة التي ظلت في الحظيرة.

ربما يتبادر إلى الذهن دانتي، الذي يربط في عمله حول الملكية بين القوة الروحية للبابا والأبوة. علق ماسيمو كاشياري بدقة على هذه المسألة: "السبق، الذي ينعكس في قدرة الكنيسة على أن تكون متواضعة، فقيرة، وإنجيلية. الذي يعني أن تظهر أمام العالم مجردة وعاجزة ومصلوبة. باختصار، فرنسيس هو خلاص الكنيسة. ويرفع صليب فرنسيس وحده، ستتمكن الكنيسة من حماية أبوتها في مواجهة السلطة السياسية"¹².

فقط كنيسة تأبي، معترفة صراحة بأنها ليست مدينة الله فعليا، أي حل وسط في إدارة السلطة السياسية، لا يزال بمقدورها أن تجد من ينصت إليها وأن تحظى بقيمة في "القرن". وبهذا المعنى، يكون بول إيلي محقا في نشره مقالا في نيويورك تايمز بعنوان "فرنسيس، نقيض الرجل القوي". وكتب: «اليوم هو عصر الرجال الأقوياء: شي جين بينغ في الصين، وفلاديمير بوتين في روسيا، وفكتور أوربان في المجر، ودونالد ترامب في الولايات المتحدة، يمقتون الضوابط والتوازنات، والصحافة المستقلة والقوى الأخرى التي يمكن أن تحبط سلطتهم. في ظل هذه الظروف، ظهر البابا فرنسيس كنقيض الرجل القوي. يستدعي اختيار اسمه فرنسيس دي أسيزي، شفيع الفقراء المتواضع"¹³. يعتبر الإرشاد الرسولي "افرحوا وابتهجوا" الذي ينصب بالكامل على القداسة ونشر بعد خمس سنوات بالضبط من انتخابه، بالنسبة للبابا فرنسيس، قلب عمله لإصلاح الكنيسة، وهو غير قابل للاختزال في الخيارات حول الهيئة الأسقفية.

يريد فرنسيس إعادة القوة الحقيقية لله، وهي قوة التكامل. يعني "التكامل" "دمج الاختلافات بين العهود والأمم والأنماط والرؤى في عملية البناء". أخبر البابا أساقفة القارة الآسيوية بأكملها في كوريا بوضوح أن الهوية لا تتكون فقط من المعطيات التي ينبغي الحفاظ عليها، ولا تتألف أيضا من ماض ينبغي حفظه بغيره¹⁴. إن الزمن الفعلي الخاص بالهوية لدي البابا ليس الماضي، الذي يولد "إغراءات الذاتية"، بل المستقبل. لا

¹² انظر كاشياري، القوة الكابحة، مرجع سبق ذكره.

¹³ إيلي، "فرنسيس، ومكافحة القوي"، نيويورك تايمز، 24 مارس 2018.

¹⁴ انظر، فرنسيس، خطاب إلى أساقفة آسيا، 17 أغسطس 2014.

تكشف الهويات فقط ما نحن عليه، ولكن قبل كل شيء ما نأمل فيه. لا تُمنح الهوية من أجل من كنت أنت، ولكن من أجل ما تأمل أن تكون.

وتستند على هذا أيضًا رؤية الكنيسة القائمة على الرجاء وعلى المستقبل الأخرى، الذي يتجاوز الدنيوية. كان فرنسيس قد ذكر هذا لأساقفة الولايات المتحدة الأمريكية، قائلاً يجب أن نكون حريصين على عدم الوقوع في محاولة تبادل "سلطة القوة بقوة العجز، التي خلصنا الله من أجلها". يجب ألا نجعل "الصليب راية للصراعات الدنيوية". يريد بيرجوليو تحرير الرعاة من شعورهم بأنهم يحاربون دفاعًا عن نظام سيؤدي سقوطه إلى نهاية الكاثوليكية وربما العالم. البابا لا يريد أساقفة "قلقين"، تستولي عليهم "عقدة حصار متسدا"، الذي يُشعر الكنيسة أنها محاطة بمجتمع يجب أن تقاتله. حتى الدفاع عما يسمى بـ "الغرب المسيحي" هو في الواقع انحراف فعال عن الأخلاق المسيحية. في بعض الحالات، يصل الأمر إلى حد تبرير المصالح الجغرافية والسياسية أو الاقتصادية بإخفائها خلف قناع الدفاع عن المسيحيين المضطهدين.

سيادة السلطة الروحية ونهاية "المسيحية"

يكشف فرنسيس إذن عن قناعته بأنه يشكل فكره من خلال قراءة اللاهوتي اليسوعي إريك برزوارا: نحن في نهاية عصر القسطنطينية وتجربة شارلمان، "العالم المسيحي"، أي هذا الكيان الذي بدأ مع قسطنطين والذي تقوم فيه صلة عضوية بين الثقافة والسياسة والمؤسسات والكنيسة. كان برزوارا- الذي استشهد به البابا مرارًا - مقتنعًا بأن أوروبا قد ولدت ونمت في ارتباطها وتعارضها مع الإمبراطورية المقدسة، التي تعود جذورها إلى محاولة شارلمان تنظيم الغرب كدولة شمولية. ومع ذلك، فإن نهاية العالم المسيحي لا تعني نهاية الغرب على الإطلاق، بل تحمل في داخلها مصدرا لاهوتيا حاسما من حيث إنها نهاية مهمة شارلمان. يتولى المسيح مرة أخرى عمل الأوبة. يسقط الجدار

الذي كاد يمنع الإنجيل من الوصول إلى أعرق طبقات الوعي، ومن اختراق مركز الروح.¹⁵

نهاية القسطنطينية هي "إمكانية أن تستأنف الكنيسة المسارات الإنجيلية التي بدأها فرنسيس دي أسيزي وأغناطيوس دي لويولا وتريزا دي ليزيو، وكسر الحاجز الذي فصلها عن الفقراء الذين بدت لهم دائما المسيحية- في اللاهوتية السياسية لمختلف صيغ العالم المسيحي- على أنها أيديولوجية وضمان سياسي للطبقات الحاكمة"¹⁶. وهذه الرؤية نفسها تقود البابا إلى حب كنائس "نقطة الصفر"، أي تلك التي لديها نسب منخفضة جدًا من الكاثوليكين مقارنة بسكان البلدان التي يقيمون فيها. ومع ذلك، فهي بذور للكنيسة العالمية. ومن ثم فإن جغرافيا المقر المقدس- بما في ذلك جغرافيا كلية الكرادلة والجولات الرسولية- هي جغرافيا رعوية. يوجد هنا فرق واضح بين المخطط الإمبراطوري اللاهوتي السياسي للوراثة "القسطنطينية"، الذي يريد أن يقيم مملكة إلهية هنا والآن، والمخطط اللاهوتي "الفرنسيسكاني"، الذي هو يرتبط بالآخر، يتطلع إلى المستقبل وينوي توجيه تاريخ الحاضر نحو ملكوت الله، ومملكة العدل والسلام. في المخطط "الإمبراطوري"، يظهر جليا أن اللاهوت هو الإسقاط المثالي للسلطة المكونة. هذه الرؤية تولد أيديولوجية الغزو. على العكس من ذلك، تأتي رؤية "الفرنسيسكان" بعملية التكامل.

واليوم يعتبر هذا صحيحا أكثر من أي وقت مضى، أي في عصر- في "اضطراب" عالمي جديد لا يزال من الصعب فهمه - تحظى فيه الكاثوليكية بأهمية أكثر في القضايا التي تهم العالم، مثل البيئة، والمهاجرين واللاجئين، واحترام حقوق الإنسان. لا يتعلق الأمر بعزل فرنسيس بالتسمية السهلة والسطحية "بابا الجنوب" في العالم في

¹⁵ انظر نفس المصدر السابق ص. 55، ج. زاماني، "بين قسطنطينة وهتلر." مؤسسة فريدريش هير أوروبا"، في اصدار نهاية عهد القسطنطينية، بولونيا، المولينو 2012، 55 - 57 .

¹⁶ ف. ماندريلي وج. ل. نارفايا، "مقدمة"، في برزوارا، فكرة أوروبا وازمة كل سياسة مسيحية، تراباني، بير جيراكوبي، 2013، 55.

معارضة مع أوروبا العلمانية. لكن الأمر يتعلق بإدراك أن عولمة الكنيسة هي التي تقوم بتغيير القضايا التي تحدد تأثير الكاثوليكية في المجال العام.

في 9 مايو 2016، في مقابلة مع صحيفة لأكرويكس الفرنسية، قال البابا، على سبيل المثال، عن أوروبا: "أوروبا، نعم، لها جذور مسيحية. وعلى المسيحية أن ترويه، ولكن بروح الخدمة مثل غسل القدمين. إن واجب المسيحية تجاه أوروبا هو الخدمة". ومرة أخرى قال: "إن مشاركة المسيحية في الثقافة هي مشاركة المسيح بغسل القدمين، أي خدمة الحياة وهبة الحياة"¹⁷.

وهذه هي الرسالة القوية التي أعطاها فرنسيس للكنيسة الإيطالية في فلورنسا في عام 2015 بخطاب طويل: «لن نرى شيئاً من امتلائها إذا لم نقبل أن الله أفرغ نفسه. وبالتالي لن نفهم أي شيء عن الإنسانية المسيحية وسوف تكون كلماتنا جميلة، ومثقة، وراقية، لكنها لن تكون كلمات إيمان. ستكون كلمات تدوي في الفراغ»¹⁸.

إن سيادة السلطة الروحية هي سيادة الرحمة. مرة أخرى يقول فرنسيس للأساقفة الإيطاليين: "في مواجهة شرور الكنيسة أو مشاكلها، لا فائدة من البحث عن حلول في الاتجاهات المحافظة والأصولية، في استعادة السلوكيات والأشكال القديمة التي لا تمتلك حتى على المستوى الثقافي القدرة لتكون مؤثرة. إن العقيدة المسيحية ليست نظاماً مغلقاً غير قادر على توليد الأسئلة والشكوك والتساؤلات، لكنها حية، ويمكنها أن تثير القلق، ويمكنها أن تحي النفوس. تمتلك وجهاً ليس بجامد، لديها جسم يتحرك ويتطور، ولها لحم رقيق: العقيدة المسيحية تسمى يسوع المسيح."

إن قوة المصلوب - وبالتالي قوة الصليب - هي الوحيدة القادرة على إنقاذ العالم. يعرف بيرجوليو أن "الشعب المختار" الذي يصبح "حزباً" يدخل في تشابك معقد بين الأبعاد الدينية والمؤسسية والسياسية التي تجعله يفقد الإحساس بخدمته العالمية وتضعه في مقارنة مع ما هو بعيد عنه، ومن لا ينتمي إليه، ومع من هو "عدو" له. كونك

¹⁷ج. جوهرت وس. ميلارد "مقابلة حصرية مع البابا فرنسيس"، لوكرويكس، يوم 17 مايو 2016 .
¹⁸فرنسيس، خطاب أثناء الاجتماع مع ممثلي المؤتمر الوطني الخامس للكنيسة الإيطالية، فلورنسا، 10 نوفمبر 2015.

"جزءًا" يخلق العدو: ينبغي على المرء الفكاهة من هذا الإغراء¹⁹. ولا يمكن أن تأتي الصفات السياسية مباشرة من الإنجيل. من ناحية أخرى، يراقب الإنجيل ويحكم العمل الدنيوي ومعاييرها. مثالان: الأول هو لا يمكن قبول اختزال الرجال والنساء والأطفال الهاربين إلى أشياء مفقودة في مياه البحر الأبيض المتوسط كوسيلة ضغط لتغيير المعاهدات الدولية. تمامًا كما هو الحال على الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك، لا يمكن فصل الأطفال عن والديهم كعمل قسري مبرر وشكل من أشكال ردع الهجرة غير الشرعية.

تحدي نهاية العالم بعد القنبلة والجدار: الأخوة الانسانية

والآن، يمكننا العودة إلى السؤال الذي انطلقنا منه. هل سيعلم فرنسيس ويعجل النهاية، حالما بطوباوية عالم جديد، أم أنه سيحافظ على قطع العالم الذي ينهار؟ في نهاية مسار رحلتنا، من الواضح أن طريقه لا يتوافق تمامًا مع أي من الفرضيتين. بل يخلق فرضية ثالثة.

يقدم فرنسيس الكنيسة كإيماءة تعارض في عالم أدمن اللامبالاة. فهو يتصرف مطالباً أولاً بالصلاة لأجل العالم، وقبل كل شيء لأجله. ثم يتصرف من خلال القيام بعمل تربوي تجاه أبناء الله أولئك الذين لا يزالون لا يعرفون أنهم أطفال، وبالتالي هم إخوة فيما بينهم. وهو يعلم أن رسالة الكنيسة تنتمي إلى مجال التربية، وبالتالي تحتكم إلى الانتظار والصبر.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا الإجراء هو التوقيع مع "الإمام الأكبر للأزهر" على "وثيقة الأخوة الانسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك". الحدث الذي وقع في أبو ظبي يوم 4 فبراير 2019. نعتقد أن نطاق هذا الحدث وتلك الوثيقة لم يُفهما بشكل جيد حتى الآن. تحمل صفحاتها حدسا يُبطل، من جهة، تعجيل الجهاديين أو "الحملات الصليبية الجديدة" لنهاية العالم، ومن ناحية أخرى، لا يقصر العمل العلاجي على مجرد وضع الضمادات بغية تأجيل النهاية الحتمية. إن الصفحات التي لم يوقع عليها

¹⁹ انظر برزوارا، فكرة أوروبا. مرجع سابق، ص. 3.

البابا والإمام فحسب، بل كتبها معاً، ليست حبيسة خيبة الأمل، ولكنها أيضاً ليست أحلام طوباوية لمدينة فاضلة.

في ذلك النص، تظهر قراءة الواقع، "وَضِعْ عَالَمِيَّ تَسِيْطُرُ عَلَيْهِ الضَّبَابِيَّةُ وَخَيْبَةُ الأملِ والخوفُ من المستقبلِ، وتَحَكُّمُ فِيهِ المصالحُ الماديَّةُ الضيِّقةُ". يتكلم الزعيمَان "بسم الله"، لكنهما لا يشكلان فرضيات لاهوتية غير متكافئة بشكل مباشر. وبدلاً من ذلك، فإنهما يبدأن من تجربة لقائهما ومن حقيقة أنهما انطلقا من إيمانها بالله، فقد تشاركا "أفراح وأحزان ومشاكل العالم المعاصر" عدة مرات. إليكم الدليل: "يقود الإيمان المؤمن إلى أن يرى الآخر أخاً جديراً بالدعم والمحبة. إن الإيمان بالله، الذي خلق الكون والمخلوقات وجميع البشر – خلقنا متساويين برحمته – ويطلب من المؤمن للتعبير عن هذه الأخوة الانسانية، بالحفاظ على الخلق والكون كله ودعم كل شخص، خاصة الأكثر احتياجاً وفقراً".

تواجه الوثيقة بشجاعة تحدي مرض الدين الذي يحول القداسة إلى خدمة عمل سياسي يُفهم على أنه قضية مقدسة. يبدو هذا المرض، في أشد أشكاله فتكاً وخبثاً، أنه يدفع في سبيل "خلق" جديد للعالم من خلال العنف. وهكذا، تُفهم رؤية نهاية العالم التي تولد الرعب كأداة لتحقيق إرادة الله بسرعة على أنها دمار. هذا، في الواقع، هو الجوهر اللاهوتي للإرهاب الديني. يكشف فرنسيس والطبيب معاً عن الديناميكيات المعاكسة لهذه الرؤية ويخرجون الطابع الديني منها بشكل نهائي.

الاعتراف بالأخوة أفقي، قائم على السمو والإيمان بالله. بالنسبة للموقعين، لا يخلص الإنسان نفسه، كما تقول الأخلاق العلمانية، والتنويرية، والراديكالية والبرجوازية. كما أن الأخوة ليست حقيقة عاطفية أو شعورية. وليس الأمر السهل والمهم أن "نحب بعضنا". وإنما، هي رسالة قوية ذات قيمة سياسية أيضاً. ليس من قبيل المصادفة أنها تؤدي مباشرة إلى التفكير في معنى "المواطنة": فنحن جميعاً إخوة، وبالتالي جميعنا مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات، يتمتع الجميع في ظل المواطنة بالعدالة. إن الحديث عن "المواطنة" يبعد أشباح النهاية المتسارعة والحلول

السياسية الزائفة. وفي الواقع، تختفي فكرة "الأقلية"، التي تحمل بذور القبلية والعداء والتي ترى في وجه الآخر قناع العدو.

وهكذا تكتسب الرسالة أهمية عالمية: في وقت تملو فيه الجدران، وتسود الكراهية والخوف، تقلب هذه الكلمات المنطق الدنيوي للصراع الضروري. وقد أوضح البابا ذلك في رسالته بمناسبة يوم السلام العالمي 2020: "الخوف غالبًا ما يكون مصدرًا للصراع". "انعدام الثقة والخوف يزيدان من هشاشة العلاقات وخطر العنف". لذا يجب أن نكسر "منطق الخوف" المرضي. إن نهج فرنسيس يُخرب اللاهوتيات السياسية المروعة التي تنتشر في كل من العالم الإسلامي والمسيحي. وليس هذا فقط. ليس من قبيل المصادفة أن البابا فرنسيس استشهد بوثيقة أبو ظبي أربع مرات في رحلته إلى تايلاند واليابان. وأهداها للبطريرك البوذي في بانكوك، وذكرها في هيروشيما، حيث تم إسقاط القنبلة الذرية على البشرية بطاقتها المدمرة المروعة. وقد علا بالفعل صدى قوي لانسجام كلا من العالم البوذي والهندوسي والسيخ مع وثيقة الأخوة الانسانية.

افتتحنا بجدار برلين ونختتم بقنبلة هيروشيما. الاتجاه الذي يجب أن نتحرك فيه لتجنب هاوية نهاية العالم. يوجد أساس كل شيء في إحدى عبارات وثيقة أبو ظبي: "يقود الإيمان المؤمن إلى أن يرى الآخر أخًا جديرًا بالدعم والمحبة". الأخوة هي التحدي الحقيقي لنهاية العالم.

الأخوة في العهد القديم

سافيريو كورادينو

في مسار تطور الأفكار في العهد القديم اتخذ موضوع "الأخوة" بُعداً ثابتاً إلى حد ما، ينبغي علينا فيه أن نأخذ في الاعتبار ما يفرضه كوننا إخوة من تبعات، ولا يمكن إدراكه من خلال كلمة "الأخ" و"الأخت" فقط. يبدو أن المسار الكامل للوحي الكتابي يمتد بين طرفين رئيسيين: يبدأ من آدم، كأصل للبشرية التي يرتبط بعضها البعض برابط دم، حيث تنحدر "من رجل واحد" (أعمال 17، 26)، (انظر، سفر التكوين 1-2)، وينتهي عند يسوع المسيح، "بكر بين إخوة كثيرين" (روم 8، 29)، وبالتالي يوجد موضع وحيد لارتباط تكتمل فيه الأخوة الأولى بين البشر. لكن هذه الأخوة لجميع البشر في الرب تُستمد من علاقة البنوة التي تربط يسوع بالأب، وتشير إلى طريقتنا الجديدة في الارتباط بالله في يسوع المسيح، أي تلك الطريقة التي تجمع الأبناء مع الأب.

ومع ذلك، يكشف الوجود البشري في العهد الجديد عن إشكالية تكوينية، تبين سر الأخوة فيما بيننا. الإنسان هو ابن آدم، السلف الوحيد في الخليقة الأولى، وهو ابن الله، لأنه خلص في المسيح. وقد يقال باتصافه في الأصل بأبوة مزدوجة، ويستتبعها أخوة مزدوجة، وتمزق داخلي لا يقل قوة. في الواقع، لا تتداخل أبوة الله مع أبوة آدم، ولكنها تعود إلى الله بدءاً من آدم، "ابن الله" (لوقا 3، 38). وينطبق الشيء نفسه على الأخوة، التي تمر عندئذ من خلال شخص الرب يسوع الإلهي والبشري، وتوحد برابط الدم معه الأخوة الإلهية للإنسان. لكن تاريخ العهد القديم يثري الأخوة من حيث الكم والمغزى، عن طريق التحالفات المتتالية مع إبراهيم وموسى وداود وهارون، والتي تبدو أنها تقيد المفهوم في حدوده وخصوصيته. إن العهد مع الله - الجديد والقديم - هو مدرسة أخوة متميزة.

ومع ذلك، نحن أمام تمزق وجودي، سببه الخطيئة وليس حال الإنسان في مبتدئه، ويلتئم هذا التمزق تماما بموت الشيخ المسن فقط، المولود بخطيئة آدم، وبأخوة المسيح أيضا الذي مات وقام من جديد (روم 5، 12-19). في شريعة الأب، لا يستبعد أحد من تلك الأخوة: إنها الكنيسة، شركة المحبة.

وفيما يتعلق بهذا الموضوع، يتمتع كتابان من العهد القديم بأهمية خاصة، كما يتضح في مصطلح "الأخ" الذي يتكرر فيهما بشكل ملحوظ، وهما: سفر التكوين وسفر طوبيا.

سفر التكوين

يوضح السفر الأول من الكتاب المقدس أن تمزق الضمير الإنساني يعود إلى نشأة الخليقة. في صمت الحقيقة الإلهية، دُعي الإنسان، آخر المخلوقات، ليكون على صورة الله ومثاله (سفر التكوين 1، 26 – 27) ولكنه في الوقت ذاته كان خاضعا لاختبار يتعلق بنزعه "أن يكون مثل الله" (3،4). يتجسد فشل الإنسان فورا في موضوع الأخوة: قتل قابيل هابيل (4، 1-8). تلك الجريمة النمطية، التي تتجلى فيها سيطرة الخطيئة على الوجود البشري، هي تمثيل واقعي لغيرة الأخ من أخيه: تصل الكراهية حد إبادة أحدهما للآخر بعنف.

وحالة أخرى للتنافس بين الإخوة نجدها في العلاقة بين عيسو ويعقوب (29،25-34) (1،27-42). كما تظهر نوايا القتل بين الإخوة أيضا في قصة يوسف (39،37-50)، لكن هنا، في نفس البطل، تنقلب إرادة القتل من الداخل، وتصبح صورة الأخ هي صورة واهب الحياة: أخ هو من ينقذ الآخرين، موفرا لهم الطعام، وحاملا المذنبين منهم على التوبة.

يمكن قراءة سفر التكوين بأكمله تقريبا من منظور لـ "الأخوة" اللاهوتي: فهو يجعلنا ندرك ما يعنيه الأخ²⁰. يبدو أن مسمى "الأخ" له أهمية لاهوتية أكبر من تلك

²⁰ منقول بتصرف عن ألونسو شوكيل، أين يوجد أخاك؟ صفات عن الأخوة في سفر التكوين، بريشا، بايديا، 1987.

الخاصة بمسميات "الأب" و"الأم"، وهي مسميات ومواقف يدور الحديث عنها باستمرار، بشكل يبرز معانيها ويثمن تبعاتها (مثال: أبوة آدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل). في سفر التكوين، يُذكر الأب والأم قبل الإخوة (24،2). ويليهما مباشرة لفظ "أخ"، الذي يعود ويتكرر لسبع مرات متتالية (4،2-11)، في أسطر قليلة. طبقا لهذا السفر، يبدأ تاريخ البشرية في إطار الأخوة الأولى. لكن تلك الأخوة محطمة أو مهددة باستمرار: مجموعة من الإخوة المتنافسين، وتوتر مستمر، وصراع دامي بين من تربطهم صلة رحم مشتركة.

لا تخلو القصة من مسار إيجابي، لكنه ذو أهمية ثانوية: يرغب إبراهيم في تجنب الصدام مع لوط (13،8)، ويتمكن يعقوب من التصالح مع عيسو (33،4)، ويغفر يوسف لإخوته (45،1-5). ينتهي سفر التكوين بالتأكيد على إمكانية إعادة الأمور إلى نصابها، لكنها إمكانية ذات طابع بطولي نادر الحدوث: فهي تجسد نماذج للكرم والحكمة يشق على المرء التفكير فيها (50،15-21).

طوبيا: كتاب السبي

النص الآخر هو سفر طوبيا، الذي يعتبر من الأسفار القانونية الثانية، وقد وصل إلينا فقط في نسخته اليونانية، وبقواعد نصية معقدة. لدينا منه نسخة مختصرة بالأحرف الإنشائية برمز (B) أي من المخطوط الفاتيكانية، و(A) رمز المخطوط الإسكندري، وبها أحرف كثيرة كبيرة. ولدينا نسخة مطولة، تُمثل فقط بالرمز السينائي (S) وهي مزودة ببعض القطع الأرامية واليهودية التي وجدت في قمران، هذا بخلاف النسخة اللاتينية القديمة *Ia Vetus latina* (نصوص العهد القديم المترجمة في نسختها اللاتينية). وكما هو حال بقية النصوص القانونية الثانية، كذلك الفولجاتا تمتلك مسارا خاصا بها. ولعلها تتفق حول إعادة بناء أصل النسخة اليونانية، والنسخة السامية البعيدة، مرتكزة بشكل أساسي على نص المخطوط السينائي، والذي يعتبر أكثر دقة من الناحية اللاهوتية، مع الاستعانة بالنسخ الأخرى أيضا إما عند الحاجة إليها (حيث توجد بعض الفجوات في المخطوط السينائي) أو عندما تقدم تنوعات مفيدة.

في إطار القصص المقدس، يقع سفر طوبيا على الطرف المقابل من سفر التكوين: هناك، في الطرف الأقصى، حيث يبدو أن التجربة التي بدأت في سفر التكوين قد وصلت إلى مرحلة نضج حرجة. يتوجه هذا السفر إلى شعب الله أثناء السبي، وبالتالي لمسيحية مشتتة أيضا، كتلك التي نعيشها اليوم. الأبطال هم بنو إسرائيل من قبيلة نفتالي، وهي إحدى "القبائل المفقودة" العشر، قبائل المملكة الشمالية التي نفاها الآشوريون عام 721 وتشتت أهلها إلى الأبد في منطقة شاسعة من آسيا الصغرى. يدور الحديث، إذن، عن يهود هامشين، لا يوليهم الكتاب المقدس اهتماما خاصا: أسباط بني الخدم (سفر التكوين 35، 25-26)، وأهل الجليل من الوثنيين، حيث عاش الرب وبدأ خدمته²¹. ونفتالي هو أحد أبناء الخادمة الأربعة، وتنسب قصة يوسف إليه جزءا بارزا من الكراهية ضد الأخ (سفر التكوين 2، 37).

يفتقر موضوع "الأخ" في سفر طوبيا إلى العنصر المأسوي الموجود في سفر التكوين. يتكرر استخدام المصطلح باستمرار ولكن في إطار إيجابي، حيث لا توجد إشارة مطلقا إلى التنافس الأولي بين أعضاء نفس المجموعة البشرية. على النقيض، نشهد هنا تأكيدا على فكر لاهوتي مهم، وهو أن "أبناء الخادمت" أيضا إخوة، وبكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولا يستبعدون من دعوة إسرائيل. بمعنى أدق، تلك القبائل المفقودة ليست مفقودة على الإطلاق، ولكن يتوجب عليها التعبير عن دعوة شعب الله بأكمله، والذي دُعي هنا للشتات.

يعالج سفر طوبيا السبي في عهد الآشوريين؛ لكن السبي لم يكن قد انتهى عندما كُتب السفر (14، 6-7)، وتخص وصايا طوبيت الأخيرة لابنه طوبيا (14، 3-7، 9-10) نينوى وأرض السبي، بينما تبقى أورشليم، العالية في مجدها، مجرد محور للنبوءات (13، 9-17).

²¹ منقول بتصريف عن نص سفر أشيعاء 8، 9-1، 23 وفي متى 4، 13-16: الجليل هو المكان الذي قام فيه يسوع بجزء كبير من خدمته، في الأراضي المقابلة لنفتالي وزبولون.

تتسم الرسالة بواقعية غير مسبوقة، فيما يخص إسرائيل في القرون الأخيرة من العهد القديم، والمسيحيين في جميع الآونة. الشخص المؤمن الذي ينغلق داخل دائرة من العادات والتعاليم الدينية، دون أن يشارك فيما يمر به، يعتبر مقصرا في الإيمان، مثله كمثل من يتلمس اتصالا بالعالم يشده إلى أعماقه، أو كمن أصبح بالفعل تحت تأثير وسيطرة هذا العالم، وهكذا تصير القبائل "ضائعة" بالفعل.

الانغلاق داخل الغيتو أو الاستسلام لسطوة الغزاة: صورتان غير صحيحتين عن مفهوم الأخوة، تختلفان في الشكل وتنفقان في الجوهر، فكلتاها تُقران بأن الدعوة لتكون شهودا لله بين الوثنيين، في علاقة مساواة أو في دونية نسبية غالبا، هي أمر عسير، ومن المشروع، والواجب أيضا، التخلص من هذا الالتزام. ذلك هو الطرح الذي ينهى عنه السفر بشكل مباشر من خلال العلاقة المتبادلة التي تركز على الأخوة الأولى بين كل المنتمين حقا إلى شعب الله.

يعتبر صمت الله تجربة قاسية للغاية على كل إنسان يؤمن به. في الواقع، تظهر التجربة كحالة فقر: يبدو أن الإنسان قد خسر كل شيء، بما في ذلك دعم الله أيضا (2،14). وبالرغم من ذلك، فهو لا يكل ولا يتراجع لأنه يدرك أن هذه التجربة تقاس بمدى إدراكه لعدم استحقاقه أن يكون رجل الله (1،3-6)، ولذا فخير سلاح هو الإيمان. وهذا الإيمان الظاهر في إطار التجربة- ولعل هذا هو الجديد الذي يقدمه هذا السفر- يجد تعبيرا عنه في نزعة أخوة قوية.

وربما يكون حدث القمص المركزي هو ذلك الذي يدور حول شخصين من بنى إسرائيل، يجمع بينهما رابط الدم، لذا فهم "إخوة"، وقد ظلا على إيمانها ووضعهما كإخوة خلال التجربة المؤلمة القاسية متضرعين إلى الله كفقراء؛ وعلى الرغم من أن كلا منهما لم يكن يعرف شيئا عن الآخر، تضرعا معا وفي نفس اللحظة، متحدين أمام الله في التجربة والصلاة (3، 7-17)، وفي الخلاص الذي سيدركهما فيما بعد من خلال "أخ" آخر أيضا.

حدث اللقاء بين طوبيت الشيخ وسارة، وهما شخصيتان تبدوان مختلفتين ومتباعدتين، خلال الصلاة، لكن جذورهما تمتد إلى رابط الدم، وإن كان بعيدا، مما يجعل منهما إخوة. لقاء غير مرئي، بغير إدراك، لكنه كان قطعا حقيقيا، كما يثبت فيما بعد من تحوله إلى لقاء روحي.

سيرى طوبيت- الذي كان أعمى آنذاك- سلالته لابنه من خلال سارة، وكان هذا ضمانا لمستقبل باهر لأورشليم (13، 9-17) (14، 6-7) حيث سيدخلها ليحكم فيها إلى الأبد.

الأخ، نسخة أخرى " من نفسي".

قد يبدو غريبا، للوهلة الأولى، أن نبحث عن موضوع الأخ (باليونانية adelphos) في نص يبدو أنه يتجاهل مواقف الأخوة بمعناها الحرفي. في الواقع، كان مصطلح الأخ، في ذلك العصر، يحمل في طياته- لأهميته اللاهوتية واستخدامه المتكرر أيضا في اللغات السامية- معاني ثرية كثيرة ومتنوعة. وهو يشير- كما يحدث في العهد الجديد- إلى رابط الدم بين الأشخاص من قريب أو بعيد²². غالبا ما يوصف به الشركاء في العقيدة حيث يفترض أنهم من نفس سلالة آدم ويعقوب، ولأنه بموجب الشريعة تنشأ روابط تتخطى أيضا رابط الدم²³.

ويوجد معنى آخر لكلمة Adelphe "أخت"- في اليونانية وبالمثل في العبرية- وهو "زوجة"²⁴. تتداخل العلاقات الإنسانية الثلاث- وهي القريب والأخ والزوج- فيما بينها وتتقاطع طوال أحداث سفر طوبيا بصور مختلفة لتؤسس في النهاية لفكرة الرباط الوحيد والمطلق أمام الله وأمام البشر.

²² منقول بتصريف من سفر طوبيا 1، 14، 21؛ 2، 10؛ 3، 15؛ 4، 12؛ 5، 16؛ 6، 18 (المخطوط السينائي)، 7، 1 (S)، 2 (S)، 7 (S)، 10 (S)، 12؛ 13، 10.

²³ منقول بتصريف من سفر طوبيا 3، 5؛ 1 (المخطوط السينائي S)، 16، 10؛ 2، 3؛ (S) 13²، 5، 4؛ (S) 9، 6؛ (S) 10، (S) 11 (S) 11، 12، 13، 14، 14³، (المخطوطان الفاتيكاني والإسكندري B، A) 14²، (S) 17²، (S) 6، 7، 11، 13²؛ (S) 16، 14، 1²؛ (S) 6، 3، 4، 6؛ (S) 9، 11، (S) 2؛ 9، 2؛ (S) 10، 6؛ (A، B) 18؛ (A، B) 14، 4؛ (A، B) 7.

²⁴ مذكور فقط في المخطوط السينائي: منقول بتصريف من سفر طوبيا 5، 22؛ 6، 19؛ 7، 9، 12²؛ 7، 21؛ 8، 21؛ 10، 6. وفي المخطوطات الأخرى، منقول بتصريف من 7، 15؛ 7، 4؛ 8.

نرى شيئاً مماثلاً في سفر التكوين: عبر الرباط الجسدي تتضح لنا فكرة أن مَنْ هو ابن أبى وأمي هو نموذج آخر من نفسي. ويكتسب هذا الأمر قيمة لدينا نحن أيضاً حتى وإن كان لنا تفكيرنا المختلف تماماً. في نهاية الأمر، حدث عرضاً أن آلت الصفات التي تجعل أخي يختلف عنى إليه وليس إلي، والعكس صحيح، فصفاتي أيضاً آلت إلي وليس إليه بنفس الطريقة. في سفر طوبيا يتضح أصل هذا الطرح: adelphos، adelphe (الأخ، الأخت) هو ببساطة الشخص الذي أرى فيه بطريقة أو بأخرى صورة لنفسى. لا توجد بيننا أفضلية مزعومة، ولا يتكبر أحدنا على الآخر، ولكن يجمعنا اليقين بوجود اتحاد أولي مشترك.

الابن: أخ

من بين هذه الاستدعاءات، توجد لحظات معبرة بشكل خاص. قال الملاك روفائيل لطوبيا في حديثه عن سارة: "سيكون لك منها أولاد يكونون لك كالإخوة" (6،18). أن تحصل على أخ يفوق حصولك على ابن، إنه رباط أكثر عمقا من حيث المعنى، وهو سبب أقوى للابتهاج. الابن هو في نفسه منى وفي نفسه الآخر من الزوج، شخص يختلف عنى، وإن كنت برغم اختلافه ألتطابق معه (لذا فكلمة Adelphe تعني زوجة أيضاً). أما الأخ فهو نفسى فقط، بدءاً من حال أولي يختلف عرضاً ليس إلا. بعد ذلك (7،12) يظهر مصطلح adelphos "الزوج" في تناغم مع استخدامي مصطلح adelphe "الزوجة". هذا تأكيد متفرد على المساواة بين الزوج والزوجة، يتضح من خلال التبادل اللفظي لاستخدام (adelphos، Adelphos، adelphs) في سفر يقدم لفكرة أن الرجل هو منقذ امرأته²⁵، باستثناء الرجل الذي يكون، بسبب عدم نضجه الروحي، سبباً في ضياع زوجته، كما حدث مع أزواج سارة السبعة الأوائل (6،14).

بالنسبة لطوبييت، ظل العبريون الذين اتجهوا لعبادة الأوثان إخوة له (1،10-5) وظل يعاملهم كإخوة (1،17-16)، 2،2، رغم تألمه من عدم إيمانهم. كان الله في

²⁵ منقول بتصرف من سفر طوبيا 6،18. يقول روفائيل لطوبيا: "ستنقذها أنت".

الحقيقة يتصدق عليهم من خلاله: كان ينوى إعادتهم إلى حالهم الأول كإخوة، كما اتضح من خلال الدلالات الخاصة بمصطلح "adelphoi"، تلك الأخوة التي لم تُنَحَّ جانبا مطلقا. في النهاية نلاحظ أن وظيفة روفائيل (يعني "الله يشفي") السردية تكمن في تأكيد الطرح اللاهوتي، أي أن الله يشفي وينقذ فقراءه عندما يتضرعون إليه من وسط التجربة، وتبرز أيضا الطرح الآخر، وهو أن من يتمكن من البقاء أخا حتى النهاية- كما فعل روفائيل مع الجميع- لا يقل عن الملائكة في شيء.

تعني كلمة Adelpchos - الذي يتكون من حرف a كرابط وAdelpchys التي تعنى رحم- رحم الأم- أن الأصل الجسدي يظل كما هو، لكنها تشير أيضا إلى شخصية سامية، تأتي من عند الله. وهو ما عبر عنه العهد الجديد مباشرة في إشارة إلى يسوع، الذي هو "بكر لإخوة كثيرين" (روم 8،29 في السياق كله).

الأخوة الحقيقية هي هوية يستطيع الإنسان الحصول عليها والاحتفاظ بها كهبة من الله فقط: فهي صفة تفوق الطبيعة البشرية، صفة ملائكية، كما أشار سفر طوبيا، أو بالأحرى صفة ابن الله كما ذكر العهد الجديد.

الأخوة

يمتد تطور المفهوم إلى ما هو أبعد من إمكانية عقد مقارنة بين المصطلحات. يبدو كل شيء متصلا برابط الأخوة في هذه القصة، والتي على الرغم من أنها تبدو منقسمة بين الألم الذي تسببه الانشقاقات العديدة والمستمرة لبني إسرائيل (1،10،6-4) والأفضلية المطلقة لرابط الدم بغض النظر عن مدى امتداده، وذلك لما له من قيمة روحية. "لأننا أبناء أنبياء"، كما قال طوبيت لابنه (12،4)، وهو يوصيه بالزواج من امرأة من نسل أبيه.

الانتماء إلى شعب الله هو أحد شروط الخلاص. والمقصود هنا الانتماء الحقيقي وليس الجسدي، كما سيتضح فيما بعد (5،14). لكن القرابة الحقيقية، وإن كانت بعيدة للغاية، في العهد الجديد، تتمثل في تلك التي تربط بين جميع البشر والمسيا من بنى

إسرائيل، من خلال الانتماء إليه بالروح: وهي القرابة غير المادية التي تعود إلى تجسد الكلمة.

تعددت التعبيرات الدالة على الأخوة بالجسد في هذا السفر، دون استخدام صريح للفظ "أخ". عندما عرف طوبيا "خلال رحلته" عن مأساة سارة التي قصها له الملاك (6،18-11) قال إنه "أحبها" (6،19). لقد أحبها طوبيا فجأة، كما نحب أحد أقرب أقاربنا الذي لم نكن نعلم عن وجوده شيئاً ولم نره من قبل، ولكنه عزيز علينا حتى قبل أن نلقاه. الحب الذي شعر به طوبيا تجاه سارة ليس حبا رومانسيا ولكنه شعور ينبع من دافع إنساني بحت، نشأ كنتاج إرث روحي وجسدي: هي مباركة أبيه له (5،17) ومباركة الرب بواسطة إبراهيم وإسرائيل التي تسري في عروقه. كانت هذه إشارة طبيعية وإلهية في الوقت ذاته، ونبوءة عن التجسد أيضا.

لقد رأينا كيف أن الأخوة بين سارة وطوبيا خلال التجربة وفي الصلاة قد وطدت من رابط الدم بينهما، ولكنها كانت أخوة ذات وجود مسبق، أمر به الله، وهي تمثل تصدق الله على الفقراء إليه. يسير ترأف الله في نفس اتجاه الأخوة: ويلازمها حتى النهاية ويزيدها عمقا. إن سفر طوبيا هو كتاب التصدق بين الإخوة، وتصدق الله نحو من هم بالفعل إخوة. لم تكن هذه الصدقة يوما ما مرادفا للتستر أو التواطؤ أو النفعية: فهي تنتقل بين روابط الدم لكنها تفترض الفقر بين عناصرها وتحرك ترأف الله نحو أبنائه. لقد تهيأ كل شيء ليشمل شعب الله في العهد الجديد الإنسانية كلها من خلال دعوة الخلاص، ولكي يكون الرابط البشري، بين المسيا من بنى إسرائيل وبين الإنسانية كلها، هو الطريق الذي سيصلنا من خلاله ترأف الله، الذي هو الخلاص.

نلاحظ أيضا أن العلاقة بين الصلاة والفعل تتضح في نقاط محورية²⁶، وتعتبر من بين أهم العناصر المميزة لسفر طوبيا. في هذا السفر كما في سفر إستير وسفر يهوديت- وهي النصوص الأخيرة التي وصلت من العهد القديم- تحدد الفعل تماما واكتمل ونفذ بفعل الصلاة التي سبقته. قد يتخذ التنفيذ الواقعي إيقاعا احتفاليا، لأن كل خلاف بين

²⁶ منقول بتصرف من سفر طوبيا 3-4؛ 5،7-8؛ 15-17؛ 13.

البشر وبعضهم هو كذلك بين الله والإنسان، والفقراء قادرون على إنهائه: التضرع من قلوب الإخوة يستدر عطف الله.

الأخوة والتضامن

إن سفر طوبيا هو كتاب أولئك الذين هم إخوة حقا، سواء كانوا يعرفون بعضهم البعض أم لا؛ منذ الآية الأولى يعتبر السفر كتاب التضامن، ويتطور هكذا بشكل غير مباشر إلى ما هو أبعد من الاعتبارات العرقية لبنى إسرائيل. سنحاول عرض الصورة بشكل مبسط، انطلاقا من الصفحات الأولى للنص.

يبدأ السفر بعرض النسب (1،1) كطريقة مثالية للتعبير عن الاتحاد الجسدي، الذي هو أساس الأخوة بين أهل الكتاب المقدس. يوضح استمرار روابط الدم الإيمان المشترك الذي يمتد من سلف لآخر ويكتمل بتعاقب الأجيال.

ثم يوجد مَنْ يحمل على عاتقه مسؤولية الآخرين، حتى وإن لم يكن مذنباً، ولكنه يتضامن مع إخوته الخطاة، ويصبح بالتالي مذنباً وفقيراً (2،1). ها هو أحد العذابات التي تصاحب حياة الشركة مع الخطاة: لكن هذه الشركة لها علاقة بدعوة الإيمان ومصير شعب الله. لا يضع الشخص الصالح نقاءه (الحقيقي أو المزعوم) في مقارنة مع ذنوب الآخرين، ولكنه يعتبر ذنوبه شرا طال الجميع، وذنوب الآخرين ذنوبا تخصه هو (3،3-6).

يظهر هذا التضامن مع الإخوة بالقول (ابتهاج ضمير المفرد المتكلم الصريح في الفصل الأول) وبالأفعال الإيجابية المتمثلة في المشاركة والتعاون (1،3). وهناك ما هو أكثر من ذلك: بالنسبة لشعب الله يؤدي التعارض بين المصيب والمخطئ إلى إثقال كاهل المصيب بجميع الواجبات التي تجاهلها وأهملها المخطئ، والذي رغم ذلك يظل أخوا بالمعنى الحقيقي للكلمة²⁷.

²⁷ منقول بتصرف من سفر طوبيا 4،1-8: ينتمي طوبيا لنفس قبيلة نفتالي، السلف الذي كان قد ترك قبيلة داود وابتعد عن اورشليم لكي يبخر لعجل يربعام في دان.

يدفع هذا التضامن بالشخص الصالح إلى دائرة تعاقب الأجيال وصلات القرابة وبالتالي إلى ممارسة الأخوة في نطاق أوسع. لكنه لا يخرج من عزلته. وكما حدث مع أيوب، كان لزوجة طوبيت، حنة، (9a،1) دور في إظهار وزيادة حدة عزلة المصيب (14،2) وحتى نهاية الإصحاح). وقد استمرت تلك العزلة في سياق من التضامن، مصطلحان يترتب أحدهما على الآخر، ويعطي كل منهما قيمة للآخر بشكل قاسٍ وغامض.

يظهر شعاع الأمل الوحيد في الانفتاح على المستقبل- الابن (9b،1)- وليس في الانغلاق على الماضي. يعتبر هذا الماضي إرثاً مهماً، يشتمل على رحمة الله غير المحصاة لشعب إسرائيل، ولكنه يمثل لطوبيت عبئاً روحياً من خطايا عليه التطهر منها. بالنسبة له، يتلخص فعل اندماجه في التاريخ في حوضه لتجربة الشتات (1،10)، ويمثل، بين أجزاء القصة، وفي النص المقدس كله بشكل نموذجي، قدسية أحد المشتتين. بهذا يتضح إلى أي حد تفتقد الجذور البيولوجية والثقافية للأهمية، طالما كانت تخلو من الانتماء الروحي، الذي لا يبرز فيه ما يقدمه الله في كل عهد جديد وفي كل بداية حياة جديدة فحسب، بل، بالأحرى، حصيلة الموروثات السابقة الإيجابية بشكل أو بآخر. يعتبر الانتماء إلى حياة الأشقياء، بالنسبة لطوبيت، تضامناً مع الخطاة، بدون مشاركتهم في الخطيئة (1،10): هذا هو السبيل لإنقاذهم، وهكذا يصبح طوبيت شخصية يفتح أمامها مستقبل استثنائي غير محدود: إنه يحاكي غير مدرك صورة يسوع المسيح، وهي صورة كل إنسان يؤمن من أعماقه بصوت الله الذي دعاه.

في مثل هذه التجربة المريرة في الأخوة، كانت هناك لحظات من الهدوء والنجاح (1،15-12). لكن ينبغي معرفة كيفية قضاء هذه اللحظات باعتبارها مؤقتة، دون التضحية بأشياء جوهرية سعياً لإبقائها أو جعلها دائمة ومستمرة. فالمشاركة التي تمتد من خلالها الأخوة، تصل إلى جميع الشركاء المحتملين في جميع لحظات الصدق التي يعيشها جميع البشر بغض النظر عن ماضيهم. كانت هذه الصدقة هبة (1،22-21،13).

وتم منحها إلى الآخرين (18،1-16). هكذا تصل هذه الصدقة، التي تتمثل في المشاركة في نفس المصير (1،25-22)، إلى مواقف جديدة وأشخاص جديدة.

هكذا تُصور مشاركة الشخص الصالح المعبرة، الذي يدفن الموتى بينما هو على قيد الحياة. هم موتى بالخطيئة والشخص الصالح ليس بمنأى عن ذلك الموت، فهو يحمل على عاتقه العبء المادي والجسدي والمعنوي لهؤلاء الموتى، كما هو حال من يقوم بالدفن ويحمل جثث الموتى ليوارىها التراب. هذه هي الصدقة الحقيقية التي يتحدث عنها بشكل أساسي سفر طوبيا.

ثم إن الشخص الصالح حي، لكن حياته حتى ذلك الحين مزعزعة، وتواجه أخطار وتهديدات (1،20-9) كما أنها تخلو من أي ضوء. الضوء الوحيد هو الصدقة. حتى تلك الطاعة الصارمة ذات الطابع الفريسي التي يوصي بها كثيرا هذا السفر (كما في سفر يهوديت وإستير أيضا)، والتي تشير إلى الانتماء لشعب الله، هي صدقة تجاه الخطاة: لقد عانى إسرائيل من السبي بسبب خطيئته.

ينبغي أن ننتبه أيضا إلى أنه بالرغم من قسوة الحياة التي دار الحديث عنها في الإصحاحات الثلاثة الأولى، نستشعر إحساسا غامرا بالسعادة في السفر كله، يُفتتح بذكريات تقديم البواكير في الهيكل (1،6)، وبعدها يبدأ الحديث عن تجمع العائلة في يوم عيد العنصرة، بعد عودة طوبيت (2،2-1)، ثم الحدث الحاسم وهو الجلوس حول مائدة الضيوف، والتي ستتحول فيما بعد لمائدة عرس (7،14-9) (8،21-19) (6،9)، وتنتهي الأحداث بفرح كبير مع مدائح وبركات (13-12). من خلال الاحتفال يُعبر شعب الله عن اتحاده في الإيمان ويدعو أيضا الآخرين- وخاصة أولئك الذين ليس لديهم قدرة على الاحتفال- للمشاركة في احتفال الجمع (1،8-7) (2،3-2).

وفقا لطريقة السرد، ينتظم سفر طوبيا في مجموعة من الحلقات. تنتهي الحلقة الأولى برباط مثالي بين قصة طوبيت والأحداث التاريخية. يعتبر أحيقار- بالنسبة لقاص من الشرق القديم- شخصية عامة ومعلما وحكيما عظيم الشأن (22-21،1). هناك العديد من أشكال الصدقة التي لا يمكن للشخص الصالح البحث عنها: عبر الله بذاته عنها

من خلال الأحداث التي مر بها الشخص الصالح في حياته التي ستصبح لها فيما بعد الأساس أو الإطار الخارجي. لا تعتمد حياة الشخص الصالح بأي شكل من الأشكال على تلك الارتباطات، رغم أنها تعطي معنى لهذه الحياة وتضعها في إطار معبر ومتميز. وهنا نرى أن حياة طوبيت، أحد أقرب المقربين لأحيقار – ماهي إلا عمل بطولي حكيم. يخرج من تلك الحلقة التمهيدية مجموعة من الخيوط المهمة التي تسهم في تطور أحداث القصة (1،14،17b،19،22a)، ثم تظهر معالم شخصية البطل التي تستبق الأحداث التالية، وفي النهاية يأتي مشهد شديد الاتساع، تشمل أبعاده آلاف عدة، حيث تُستعرض قدرة خطط الله، كصدقة كبرى أحاطت بقصة الشخص الصالح في كل أحداث السفر.

ها هو أحد الأسفار القانونية الثانية الذي يعكس وبقوة مفهوم الرحمة في العهد القديم واتجاهها نحو العهد الجديد. ليست هذه هي الحالة الوحيدة: بل نجد أحداثا مشابهة في أسفار قانونية أخرى، كحكمة سليمان وسفر يهوديت، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب الحقيقي لاستبعادهما من التوراة.

يعتبر سفر طوبيا نتاجا لمسيرة طويلة تتجه نحو الأمام، نحو غاية الخلاص المشار إليه في العهد القديم الذي هو الصفة البشرية لابن الله. في اتحادنا معه، نصبح إخوة بمعنى حقيقي وبلا حدود، ونتشارك بشكل غامض في دعوة إيمان وتاريخ أي كائن بشري.

أبناء للأب الواحد:

العهد الجديد

سافيريو كوراديني

تُعتبر وثيقة الأخوة الإنسانية التي وقَّع عليها البابا فرنسيس والإمام أحمد الطيب في أبو ظبي، في الرابع من فبراير عام 2019، نصا مهما للجميع، وخاصة لنا نحن المسيحيين، كما أنها تعد في مجملها دعوة للتعمق في هذا الموضوع بالرجوع إلى الكتاب المقدس، حيث طُرح في عدة مواضع في سلسلة الأسفار. في العهد الجديد، بوجه خاص، تناول إنجيل لوقا- وليس وحده- بإسهاب موضوع الإخوة، أبناء الأب، وعالجه في أحداث مختلفة تمس المضمون ذاته.

المقارنة بين الإخوة والأخوات

أول طريقة لتحري هذا المفهوم هي الرجوع إلى النصوص التي عقد فيها لوقا، بشكل فريد ومبسط، مقارنة بين الإخوة والأخوات: في البداية يأتي مثل مارثا ومريم في استقبال السيد المسيح (لوقا 10، 38-42)، ثم مثل الأب الرحيم (15، 11-32)، وفي النهاية مثل الغني الجشع ولعازر الفقير (16، 18-31).

يدور مثل يسوع الذي يقابل الأختين مارثا وماريا حول مفهوم حسن الضيافة الذي ينتظره الله: وهو لا يتجلى فقط في مجرد أشياء يجب القيام بها، أو واجبات يتم تقديمها إلى الضيوف، بل في طريقة استقبال الضيف، وبالأحرى الإصغاء إليه، فالإنصات إلى كلمته أهم من أي شيء أيا كانت أهميته أو قيمته.

كان ظهور مارثا وماريا كأختين يعني أنهما متساويتان منذ البداية، ويبرز بالتالي مقدار أهمية اختيارهما. تؤدي مارثا الأعمال المهمة والأساسية على مستوى العلاقات البشرية، بينما تتطلع مريم إلى ما يتجاوز ذلك ولا يقل مركزية عنه، لأنه شيء ينتمي

إلى مفهوم الإنسانية الجديدة التي يؤسسها الإله الأب داخل شخصية الابن: إنه أمر يفوق الحدود الدنيوية، دون إنكار أو تجاهل لقيمة كل ما يمس الحياة اليومية.

إن كوننا إخوة وأخوات يعنى الوقوف على قدم المساواة؛ لكنها فرصة للمقارنة أيضا. وحده الله يقوم بتلك المقارنة، فلا يمكن للإنسان أن يرفض مقارنته بأخيه، الذي يقيمه الله ويساعده على فهم ذاته من خلاله. لا يمكن للإنسان أن يفعل مثلما فعل قابيل. على الرغم من أن تلك المقارنات قد تبدو للإنسان غير مفهومة، إلا أنه يجب عليه أن يفتنمها ويتقبل مغزاها: هذا هو الطريق للدخول في سر الله، ومن ثم المشاركة فيه والاتحاد به.

ولا يمكن للإنسان عقد تلك المقارنة من تلقاء نفسه، والتوهم بأنه ذو أفضلية، يقيسها مقارنة بنقاط ضعف أو نقائص أخيه. عالج إنجيل لوقا نقطة محورية في موضوع الأخ وهي استحالة المقارنة التي اعتاد أن يقوم بها أحد الإخوة جالبا بها الضرر لأخيه.

الأب الرحيم

يرسي مثل الأب الرحيم (لوقا 15، 11 – 32) لمبدأ المساواة بين الأخ الأصغر والأخ الأكبر. ولكن علاقة كلا من الأخين مع الأب- تلك العلاقة التي تركز على مبدأ الأخوة- تختلف بين واحد وآخر؛ وقد أدى طلب الأخ الأصغر لاستقلالته إلى انزاله (15، 19). ينتهي هذا الطلب بإحداث خلل في مبدأ المساواة الأولى: فهو، ظاهريا، يتخطاه ويمنح الأخ الأصغر حرية في التصرف يجهلها الأخ الأكبر (15، 29)، لكنه، في جوهر الأمر، سيدفعه إلى خسارة كل شيء.

لا أخوة إلا في علاقة مع الأب: ها هو معطى آخر واضح، وجوهري، بشأن مفهوم الأخ. تنال معارضة الأب- كما فعل الأخان، كل بطريقته، في المثل- من صورة الأخ أيضا: إن الابن الأكبر الذي يأبى الاحتفال مع والده، هو في واقع الأمر يرفض كأخ، الابن الأصغر الذي عاد إلى الأب. يُنظر إلى تلك العودة كرجوع حقيقي للحياة (15، 24 – 32) لأنها تعيد الضال إلى ما لا غنى عنه فعليا، أي إلى وضعه كابن وأخ.

تنقسم القصة تلقائياً إلى مشهدين، يتبادل فيهما الأخان الأكبر والأصغر دور البطولة. في المشهد الأول لدينا مثل جلي: تقدم قصة الابن الضال مقارنة واقعية بين طريقي الخطيئة والتوبة، أو هي مقارنة، إذا شئنا العرض بشكل تكاملي- بين مفهوم الخطيئة وروح الله الأب تجاه من يخطئ.

يأخذ المشهد الثاني منعطفاً آخر. هنا لا توجد أية مقارنات: فالخاطئ هو الضال، والخطيئة تساوي الضياع التام، والندم بعد الخطيئة يكافئ التحسر على بيت الأب، وشعور الله تجاه الخاطئ يعادل الانتظار الصامت الممتشق للأب الذي هجره ابنه. هنا تتسم القيم المعبرة بالشفافية ووضوح المغزى، وتخلو من ازدواجية المقارنات والملاءمات: الابن الأصغر هو صورة مباشرة للخاطئ النادم الذي نال الغفران؛ وبيت الأب، حيث يقام الحفل، هو صورة للرابط الحميمي بين الله وأبنائه؛ وشخصية الأب هي رمز صريح للإله الأب الذي يحمل وجوده جميع أشكال الخير (15،31)، ولذا فهو كافٍ، لا يحتاج شيئاً عداه، ولا حتى لذبيحة ليقوم وليمة الاحتفال مع الأصدقاء.

في الحوار الشاق مع الابن الأكبر، الأب هو الله الأب ليس إلا. يخطئ الابن الأكبر، الذي يبدو أنه يلوم على أبيه الأرضي معاملته غير العادلة، في حق أبيه الذي هو الله الأب: يظل الإرث الأبوي كاملاً دون نقصان دائماً، إنه ثروة أبدية لا ينال منها تبذير الخطأة غير المجدي (15،30).

تميل القصة في نهايتها، وفي أجزائها المختلفة، إلى الصورة المجازية وليس إلى المقارنة، ويكاد المثل يتحول إلى استعارة، يُقص فيه- أو يوصف- الاحترام الذي يقابل الله به العناد البشري الذي لا يلين: عناد يتجاوز عناد الخاطئ الذي لا يريد سوى ممارسة الخطيئة بحرية؛ عناد من يؤمن بالله ولكنه يضع نفسه في مقارنة مع إخوته ليدينهم (18، 19-30).

الأخ الذي يخطئ

يتقاطع المثل عند هذه النقطة- وهي نقطة الختام- مع سفر يونان. يحلل المثل صورة الأخ والخطئ المركزية بدون حدة أو تحفظ؛ ليست تلك الصورة الشائعة، بل

الصورة النموذجية: حال متباين، يدخل ضمن فعل الخطيئة ذاته لكن له دلالاته الخاصة به في إطار الإيمان بالله.

يشعر يونان بأنه مختلف عن باقي سكان نينوى، فيعتزلهم مقيما لنفسه مأوى أعلى أحد التلال، في مواجهة المدينة، ليتمكن من رؤيتها وهي تنهوى (يونان 4،5)، وليتحقق أيضا من أن الله قد أدى دوره، بعد أن قبل هو بأداء ما عليه (يونان 1، 1-3) \ 2، (3-1). كان الأخ الأكبر، وبنفس المنطق، يرفض في المثل الاعتراف بأنه يتساوى مع الأخ الأصغر، وقد رفض صراحة إبداء إيماءة المشاركة والتعبير عن الترحاب المتبادل وهي الجلوس على المائدة للاحتفال. لم يقبل بالأخ كأخ، ومن ثم فهو لم يقبل بالأب الذي استمر في التصرف كأب، وهو الذي منحه صفة الأخوة، ويريد منه أن يتمثلها وهو يشعر بالسعادة لأن "أخاك هذا كان ميتا فعاش، وكان ضالا فوجد" (لوقا 15، 33). سلك الأخ الأكبر، عبر دروب أخرى أكثر إيجازا وسرية، نفس مسار الأخ الأصغر. وهنا كشف حقا عن غروره من خلال معارضته، بثبات وحسم، لأبيه: فهو لا يتقبل أخاه لأنه خاطئ، لأنه مبدد- دون وعي- لثروة أبيه. هو لا يتقبل فقر الخاطئ، الذي صار في تلك اللحظة فقره هو أيضا. (انظر مشهد المرأة الزانية في إنجيل يوحنا 8، 7-9). يعتبر الفقر مكونا أساسيا في حال الأخ: فقد حصل الأخان على كل شيء من الأب، تلقى الخاطئان من الله الأب كل شيء، لكنهما لا يملكان شيئا خاصا بهما. ها هو أحد أوجه موضوع الأخ الأخرى.

لم يبد النبي بطل سفر يونان ولا الأخ الأكبر في مثل إنجيل لوقا أي استعداد للتغير. وأمام رحمة الله التي تشملهما، لم يظهر ا رغبة في الخضوع ولا في تأمل نفسيهما ومواجهتها، ولم تهتز مشاعرهما حيال ما قدمه الله لهما من محبة وعطف ولطف حتى غيرا من نفسيهما. لم يقبلا تلك الرحمة التي بدت وكأنها تضعهما في نفس مرتبة إخوانهم الخطاة. أصرا، بشكل صريح أو مستتر، على المقارنة. كانا فخورين بتشدهما هذا وقد توهما أن لديهما ما يعلماه للآخرين: لله، يعلماه إلى الله في هذه الحالة، إلى الله بالتحديد. هما في حقيقة الأمر يجسدان حال من يستحيل تصحيح مساره: وكأنه شيء شيطاني.

أبوة الله

في مثل الأب الرحيم، تتسم معالجة لوقا لموضوع الأخ بمستوى جديد من العمق، إضافة إلى وجود عناصر أخرى جديدة. يحلل المثل من منطلق لاهوتي موضوع أبوة الله التي لا تتفصل عن واقع أن كوننا إخوة يعني أيضا كوننا أبناء لذلك الأب. لذا يتخذ موضوع الأخ بعدا إضافيا- بمقدورنا القول بأنه بعد رأسي، يتجه للعمق (الخط الرأسي الذي يمتد من الأب إلى الابن)- وهنا تأتي قراءة نصوص الأناجيل الأخرى من منظور جديد. تظل ماهية اللحظة الحاسمة لوضع الأخوة جلية بشكل لا نقاش فيه، إنها تلك اللحظة التي يشير فيها إلى تميزه: عندما يخضع لإغواء المقارنة، ويرى نفسه في حال أسمي، ويقر بأفضليته، رافضا بذلك مبدأ المساواة الأساسي بين الإخوة.

كما ترد الإشارة أيضا إلى طرف أساسي أخير في خصوصية حال الأخ، الدافع الذي يجعله ثريا بوشائج روحية: الفقر. كوننا إخوة يعني تلاقينا في حالنا الأول المجرد الذي ولدنا فيه، وفي احتياجنا لكل شيء، في تلقي كل شيء بلا مقابل، انطلاقا فقط من الحب المجرد. تلك الفطرة المجردة التي هي التجربة الأولى التي يتضح ويظهر من خلالها علاقتنا بالله الأب.

لعازر والغني والإخوة

يمكننا أن نرى تطورا آخر لتلك النقطة الأخيرة في مثل لعازر والغني (لوقا 16)، 18-31). أُعطي لعازر، أحد أبطال المثل، اسما. بمعنى أدق، الفقير وحده يمتلك اسما، وكأنه يُعطى هوية عميقة خاصة به ستستمر إلى الأبد. أما الآخر فيبقى بلا اسم، ويُشار فقط إلى صفته الظاهرة والمتمثلة في حال ثرائه "رجل، شخص ما، كان شخصا غنيا". هنا يدخل الإخوة في الحديث عرضا بالقرب من النهاية فقط: بعد أن خبر مدى بلائه، تذكر الغني في النهاية وجود أشخاص غيره، فبدأ يوصي إبراهيم بإخوته، ولكن دون جدوى. تفترض الأخوة الوقوف على قدم التساوي، وربما تعنى أيضا الارتباط بمصير مشترك إلى حد ما: من هنا يأتي قلق أخ أكبر نال مصيرا سيئا. يبقى الغني دائما

كما هو، ثابتا عند نفس المستوى؛ لكنه قرر الخروج من ذاتيته، بعد أن أصبح سجين الجحيم؛ ينظر حوله ويحاول أن يأخذ على عاتقه مهمة إنقاذ غيره.

لكن ليس هذا هو نمط الأخوة، هش وعديم الجدوى كما هو، الذي يُقدره المثل. الأخ الحقيقي للغني هو لعازر: تتلاقى أقدارهما وترسخ في استمرارية صارمة، ولكن باختلاف جذري فيما بعد الموت (16،25). نال الغني في الحياة كل شيء، بينما لم يحظ الفقير بأي شيء؛ يبدو أن التناقض سيستمر أيضا بعد الموت، بما أن الحديث يدور عن قبر الغني، الفخم بطبيعة الحال، بينما يبدو أن لعازر لن يدفن. في الواقع، ينعكس الوضع تماما. كان لعازر يشتهي أن يشبع من الفئات التي تقع أسفل الطاولة، ولكنه لم يستطع الحصول عليها، لأنه لم يكن ذا قيمة؛ والآن يتمنى الغني قطرة ماء (قطرة ماء بحجم طرف عقلة الأصبغ) لكن لن يعطيها له أحد، لأن الفجوة واسعة لا يمكن عبورها. لم يرد الالتفات إلى الوهن الشديد الذي أصاب لعازر، وها هي الآن صلاته لن يُلتفت إليها. وفي إطار تبادل كهذا للأدوار، يمتد مسار كل منهما بشكل مباشر وطبيعي ودون توقف، ليتقاطع مع مصير الآخر: إنها أخوة مأساوية تماما.

ليس هذا كل ما في الأمر. في تبادل الأدوار هذا تعود الإشارة مجددا لدور الأب: فهو العنصر الأساسي في مصيرهما المشترك. الأبوة التي تحيلنا إليها تلك الأخوة هي في حد ذاتها أبوة الله، لكننا نراها مجسدة في صورة أبوة إبراهيم، كأب لسلالته. احتضن إبراهيم لعازر كابن له، ليس كمجرد أحد أبناء سلالة دمه، بل كابن حقيقي له. لذا جعله إبراهيم يستريح في حضنه إلى الأبد (16، 22-23): وهو تعبير يشير إلى الأرائك التي يضطجع عليها الأشخاص أثناء المآدب (كما كان في فلسطين أيضا طبقا للتقاليد الهلنستية). هذه هي المآدبة الأخروية، حيث يكون للعازر مقام رفيع على يمين إبراهيم. والغني أيضا هو ابن إبراهيم، هكذا ناداه إبراهيم بشكل مباشر: "يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذَلِكَ لِعَازِرُ الْبَلَايَا" (16،25)، مستحضرا بشكل مباشر، وبما يتعارض مع المآدبة السماوية الخالدة، صورة المآدب التي كان يقيمها الغني في منزله ويتجاهل فيها لعازر الجائع. هي، إذن، أخوة فعلية لكنها تهدف فقط إلى تجسيد

التباين المطلق: ولضمان الحصول على تباين كامل يتطلب الأمر أن يكون الطرفان متشابهين فيما بينهما، أن يتكافأا.

الإخوة في الإيمان

يُستعرض أمر مماثل- في إنجيل لوقا أيضا- في مثل الفريسي والعشار (لوقا 18، 9-14)، حيث لا يدور الحديث عن إخوة، لكن تُعقد في الوقت ذاته مقارنة أصيلة بين الإخوة. يتعلق الأمر هنا بالأخوة التي تنشأ بموجب العلاقة العامة مع شريعة موسى: علاقة أزلية يتمتع بها بنو إسرائيل، الذين يعتبرون أنفسهم أبناء الله، ينفذون وصاياه، أي ناموس موسى، وهم إخوة فيما بينهم اعتمادا على رابط الأبوة الإلهية ذلك.

علاقة مع الشريعة، إذن هي ملزمة، يعترف بها ويحترمها العشار والفريسي في المثل، كل منهما بروح متباينة. وتحول هذه الروح المتباينة المساواة الأساسية بين الإخوة إلى تعارض: إنهما يسلكان الطريق ذاته، وهو الشريعة، ولكن في اتجاهين مختلفين. يمتد التباين مرة أخرى، وكما رأينا في مثل الغني ولعازر، ليشمل الحياة الأبدية أيضا. بعد ذلك اللقاء مع الرب في الهيكل، في نفس الزمان وفي مكانين لا يبتعدان كثيرا عن بعضهما، عاد العشار إلى بيته مُبررا (14، 18)، وإذا استمر رغم كونه خاطئا في توسل رحمة الله، ولا شيء خلاف ذلك، فإنه سيقترّب أكثر من الله. أما الفريسي الذي عاش حياة لم تمنحه أي مجال لمراجعة نفسه، فتزداد خطاياه باستمرار في كل لقاء يومي مع الله. وستعكس النتيجة المتضادتان داخل المثل على المصير الأبدي.

في هذه الواقعة (التي لا تعتبر مثلا على الإطلاق، بل يمكننا أن نصفها بأنها عادة يومية لشعب الله) تتجلى علاقة الأخوة في كل عناصرها الأساسية. أولا، نجد الإشارة إلى الأب. يجتمع شخصان من بنى إسرائيل معا أمام الله في صلاة. وهنا ننبأ بأن الله هو أب يتعامل مع شعبه كأبناء وإن كانوا مذنبين، لكنه لا يلتفت إلى مَنْ يساوى نفسه به، مَنْ يطالب بحقوق ويعدد ما يؤديه من فروض تجاه الله (18، 11-12).

ثم يظهر منطق المقارنات المشوه: لم يكن للفريسي سوى خطيئة واحدة، لا تتجسد في افتخاره بقدرته على حفظ الشريعة، لأنه شكر الله على هذه البركة ولم ينسبها لموهبته

البشرية، بل في خطئه في حق أخيه- وهي خطيئة فطرية، تلقائية، حتى أنها قد لا تبدو كخطيئة- الذي كان حاسما: محا كل الخير الذي كان بداخله. وهنا يتكرر المشهد، من لا يتقبل أخيه كأخ ويستمر في حساب المسافة بينهما، يضع في الواقع مسافة بينه وبين الله، ولا يعترف بالله كأب. وها نحن نعود مجددا وبصمت لمتل يونان، لشعوره بالأفضلية غير المحدودة على قومه، للروح التي أدان بها نبي إسرائيل قوم نينوى، وهو ينتظر تنفيذ الإدانة فيهم، وإلى عدم أوبته الشيطانية.

هذا هو الثقل الحقيقي لتعاليم الكتاب المقدس، التي يُنظر إليها في أغلب الأحيان على أنها مجرد قيم إضافية، تُفيد في بلوغ الكمال، لكنها ليست ضرورية للخلاص: "لا تدين" (متى 7، 1-2)، (6،37)، "طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون" (متى 5،7) (cfr.) (33،18).

يعرض هذا المشهد، الرئيسي والمحوري، لوعيين يجتمعان في المكان والزمان في إطار مشترك وهو الصلاة، ويتناقضان جوهريا، ويكشفان عن موضع الفقر في مفهوم الأخ. الأخ هو شخص مثلي أنا، يمكنني أن أطلب منه أن يبقى إلى جوارى، وأن يظل في نفس مستواي، وألا يتركني. هو شخص لا أختلف عنه، لا أتعارض معه، ولا أرغب مقارنة نفسي معه، هو مثلي تماما. لهذا يمكن للفقراء وحدهم أن يصبحوا إخوة حقا. فمن لا يملك شيئا يوحى له بالأفضلية على الآخرين، شيئا يخصه دون غيره، هو في نهاية الأمر شخص قادر على أن يصير أبا بمعنى الكلمة.

بفقر كهذا يتسم حال الرجل الذي وقف أمام الله: إنه فقير من يصلى. الصلاة هي عمل الفقير. لذا يجب أن يكون هذا- وإن لم يحدث فعليا- هو حال الفريسي والعشار: الرجلان من بني إسرائيل اللذان يتواجدان في الوقت ذاته داخل الهيكل للصلاة. النقطة المحورية هي أن الفريسي ليس فقيرا حقا. إنه يلتزم بالشرعية بلا توان، ويفتخر بإيمانه هذا كأعظم أوجه الخير على الإطلاق، خير ذو قيمة أبدية؛ هو يعتبر نفسه صانع هذا الخير لأنه وليد إرادته، إنه خير وهبه له الله (وهو يعترف بذلك)، لكنه في حقيقة الأمر يعتبره ملكا له وحده، لدرجة أنه يجهر بذلك بطريقة تركز بشدة على مظهر ملكيته له،

وشعوره بذلك وإقراره بأفضليته على العشار، لدأبه المخلص. كان الفريسيون عادة فقراء ماديا: ولكنه ليس الفقر كما يراه الكتاب المقدس الذي يقول "طوبى للمساكين" (متى 3،5) (20،6)، أولئك الذين تتجلى فيهم كل الخيرات الأخرى. لهذا أضاف إنجيل متى لمصطلح المساكين توضيحا إضافيا: "مسكين الروح"، "روحيا".

في واقع الأمر، زادت الأخوة بين الاثنين عما كانت: إذ يجمع بينهما الآن حال الخطيئة، والخطيئة قمة وبذرة الفقر. الخاطئان: كان أحدهما كذلك قبل الصلاة، وصار الآخر كذلك بعد الصلاة وبسبب صلاته تلك. عاد الفريسي والعشار إخوة من جديد لأنهما فقيران: ليس لديهما شيئا خاصا بهما، كل ما هما عليه هو ملك للأب، بما في ذلك إيمان الفريسي وانسحاق العشار. هما خاطئان، فقيران؛ حُملا إلى الصلاة، وهما معدان خصيصا لهذا.

الخاطئ هو إنسان فقير يمكنه أن يخاطب الله وحده، وليس له الحق في المطالبة بشيء، وهو يدرك أنه إذا ظل في حال فقره سيعطيه الله كل ما يحتاجه. الخاطئ هو إنسان يستجدي، وله إخوة كثر مثله، إلى أن تأتي تلك اللحظة التي يرى لنفسه فيها أفضلية عليهم.

لصا الصليب

موقف يشبه تماما مثل الفريسي والعشار هو ذلك الذي يصور لصين يحتضران على خشبة الصليب إلى جوار الرب (لوقا 23، 39 – 43)، وهنا نرى مرة أخرى أن الأخوة تتخذ صورتين متعارضتين.

المشهد مهيب: طبقا لإنجيل لوقا، هذا هو العمل الأخير ليسوع قبل موته. وكما رأينا في المثل السابق، نجد هنا أيضا رجلا يعترف بأنه خاطئ ويصلى: إنه فقير يناجي يسوع من فوق خشبة الصليب لكي يتذكره؛ وهو لا يذكر تعذيبه على الصليب إلا في إشارته فقط إلى أنه يستحقه. وعلى النقيض، لا يفكر اللص الآخر في خطاياها، بل ينشغل بالعذاب والموت الوشيك، ولا يراجع نفسه في شيء. وكما فعل من قاموا بصلبه، فضل

أن يتهم البريء (23،39ب) . لقد فعل بذلك ما فعله يونان والأخ الأكبر في المثل والفريسي الذي يُذكر الله بما أداه له، فقد عارض الرب هو أيضا.

تنضح جلية هنا الأخوة المثالية في سلبيتها المأساوية: هما خاطئان، حكم عليهما بموت وحشي، يستحقانه تماما، كما يعترف كل منها للآخر، متحدثا باسمه. وهنا يتضح التناقض الذي تنتهي إليه تلك الأخوة في الجريمة، التي ربما استمرت عمرا.

بالنسبة للص النادم، الذي اعتبر نفسه صديقا ليسوع وسلم نفسه له، جاء "يوم" الخلاص: "اليوم أنت معي في الفردوس" (23،43).

مصر، أرض الحضارة والتلاقي *

أنطونيو سبادارو

من التبير إلى النيل

هبطت الطائرة البابوية بعد الساعة الثانية ظهرا بقليل في مطار القاهرة الدولي، بعد أن حلقت فوق دلتا النيل ومنازل العاصمة المصرية التي تتلون بلون الرمال. ومن على مبعده، ذُكرت ظلال الأهرامات وفد البابا والصحفيين على متن الطائرة أنهم على وشك الهبوط على أرض ذات حضارة عريقة للغاية، وريثها هو الشعب المصري. في خطابه الأول في جامعة الأزهر، بدأ البابا بهذه الطريقة، متحدثا عن مصر و "تاريخها المجيد"، و"متطرقا إلى "نور المعرفة" التي تميزت حضارتها به دائما: الحكمة، والعبقرية، والفن، وعلم الفلك. لكن هذه الأرض ذات الماء والرمل، الخصبة والجافة، تشهد تناقضات عميقة. كما أن صخورها المسامية مشبعة بدماء الشهداء. ويبدو أن حكمة المعرفة، المنفتحة على "الأخر" وعلى اختلافه، تقع تحت تهديد عنف ينكر وجود الآخر ولا يعترف به.

في رحلته من نهر التبير إلى النيل، أراد فرنسيس، الذي يعي هذه التوترات، زيارة "مهد الحضارة، وهبة النيل، وأرض الشمس والكرم، حيث عاش البطارقة والأنبياء وحيث أسمع الله، الرحمن الرحيم، القدير الواحد، صوته"²⁸. استغرقت الرحلة 27 ساعة بالكاد، ولكن يبدو أن ازدحامها قد أطل الساعات والدقائق.

"استجابة لدعوة رئيس الجمهورية وأساقفة الكنيسة الكاثوليكية وقداسة البابا تواضروس الثاني والإمام الأكبر للجامع الأزهر، الشيخ أحمد محمد الطيب، سيقوم قداسة البابا فرنسيس برحلة رعوية إلى جمهورية مصر العربية في الفترة من 28 إلى 29

*العنوان الأصلي: "مصر، أرض الحضارة والتلاقي. الرحلة الروحانية العلاجية الرعوية لفرنسيس".
²⁸كانت هذه بداية الرسالة المتلفزة الذي أطلقها عشية سفره.

أبريل 2017، تتضمن زيارة مدينة القاهرة". كان هذا هو الإعلان الصادر من المكتب الإعلامي للفايكان في 18 مارس. إنه بابا مدعو من كافة القوى المجتمعية.

ضرورة "العلاج" ووحدة البلاد

أحداث 9 أبريل، أحد الشعانين. في طنطا، في دلتا النيل، في منتصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية، انفجرت قنبلة في كنيسة مار جرجس القبطية الأرثوذكسية. كانت الكنيسة مكتظة بالمصلين، وكان التلفزيون الرسمي يبث الاحتفال على الهواء مباشرة. انقطع البث لحظة الانفجار الذي خلف قتلى وجرحى بين أرجاء الكنيسة. بعد أقل من ساعتين، فجر انتحاري ثانٍ نفسه في الإسكندرية أمام كاتدرائية مار مرقس (المعظم لكونه مؤسس الكنيسة القبطية)، بالتزامن مع وقت الليتورجيا برئاسة البابا تواضروس الثاني. خلف الحادث 49 قتيلًا و78 جريحًا. كما قامت قوات الأمن المصرية بإبطال مفعول عبوتين ناسفتين تم زرعهما في مسجد سيدي عبد الرحيم بطنطا، حيث يوجد ضريح أحد الصوفيين. في وقت لاحق، في 19 أبريل، وقع هجوم على نقطة تفتيش على الطريق المؤدي إلى دير سانت كاترين الأثري في سيناء²⁹.

لذلك، اكتسبت رحلة البابا فرنسيس بغتة قيمة إضافية، قيمة "علاجية" بصورة أساسية، في اللحظة التي تقترب فيها "المستشفى الميداني"، أي الكنيسة، بفضل يد راعيها العالمي، من الإنسانية الجريحة. كما أن هذا كان أحد أهداف فرنسيس خلال رحلاته: شفاء الجروح. لقد فعل ذلك في بانغي وسراييفو، لامبيدوزا وأوشفيتز، في الفلبين والمكسيك، وغيرهم. بعد الهجمات، شكك البعض في قيام البابا بالرحلة. ولكن على النقيض، جعلت هذه الهجمات، من وجهة نظر البابا، للرحلة الرعوية أهمية أعظم.

²⁹ يصعب حصر سلسلة الهجمات التي هدّدت المجتمع القبطي ولطخته بالدماء. وقع يوم الأحد 9 أبريل أخطر هجوم في ذاكرة التاريخ الحديث، ولكن سبقته حوالي 500 حلقة أخرى من العنف ضد المسيحيين في مصر منذ عام 2013. نتذكر أنه قبل أيام قليلة من رحلته، السبت 22 أبريل، ذهب فرنسيس إلى كاتدرائية سان بارتولوميو في جزيرة النيبير للاحتفال بطقوس ليتورجيا الكلمة مع جماعة سانت إيجيديو، تخليداً لذكرى "الشهداء الجدد" في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

يعتبر أي هجوم على المسيحيين هجوما على وحدة البلاد، والتي هي من أئمن ثمار السلام³⁰. وكان شعار "بابا السلام في مصر السلام" الشعار الرسمي للزيارة. يظهر فيه فرنسيس وخلفه الأهرامات ونهر النيل ويعلوه الهلال رمز الإسلام والصليب المسيحي، وجواره حمامة رمزا للسلام، بينما هو يبتسم ويعطى إشارة البركة.

لقاء مع إمام الأزهر

بعد وصول طائرته إلى القاهرة، وصل البابا إلى قصر الرئاسة في مصر الجديدة، حيث تم استقباله في أول لقاء خاص تضمن أيضا تبادل الهدايا مع الرئيس عبد الفتاح السيسي. ثم انتقل إلى مقر الأزهر الشريف، على بعد حوالي 10 كم، في زيارة غير رسمية إلى الإمام الأكبر للجامع.

أكسب الاجتماع مع الطيب³¹ هذه الرحلة أهمية خاصة. في الحقيقة، لا يزال الجامع، مع المدرسة الثانوية للدراسات الإسلامية الملحقة به في القاهرة، التي تأسست في القرن العاشر، أكبر مركز للدراسات الدينية والقانونية في العالم الإسلامي. اكتسبت زيارة فرنسيس للأزهر قيمة كبيرة ذات بعد رمزي، وذلك لأن سلطة الأزهر الخاصة معترف بها في العالم الإسلامي السني، وتقوم مدرسته كل عام بتدريب الآلاف من الأئمة الذين يعهد إليهم بالوعظ في المساجد حول العالم.

كان فرنسيس قد التقى من قبل بأحمد الطيب في الفاتيكان في 23 مايو 2016، في مقابلة استغرقت ثلاثين دقيقة. قال فرنسيس، بحسب الشهود³²، "إن اجتماعنا هو

³⁰ "إن هذه الأعمال لن تنال من وحدة هذا الشعب وتماسكه. لقد توحد المصريون في مواجهة هذا الإرهاب كي يتم القضاء عليه"، وقد أخبر تواروس رئيس الوزراء المصري شريف إسماعيل على الفور، الذي اتصل به لتقديم التعازي. النقطة الأهم هي: وحدة الشعب المصري وتماسكه على أرض الجميع. كان البابا شنودة الثالث سلف تواروس قد قال ليوحنا بولس الثاني: "مصر ليست وطننا نعيش فيه بل وطن يعيش فينا".

³¹ أحمد الطيب، وُلد في الأقصر في 6 يناير 1946. هو رجل دين مصري معروف، كما إنه فيلسوف وباحث في علم اللاهوت. درس الفكر الإسلامي في جامعة باريس الرابعة (باريس السوربون)، وحصل على درجة الدكتوراه ثم قام بالتدريس في الجامعة، وفي عام 1989 أصبح أستاذا في جامعة فريبورج. في 6 يناير 1988 أصبح أستاذا للفلسفة واللاهوت في الأزهر، وأصبح إماما للجامع الأزهر عام 2010.

³² كانت لهذه الجلسة أهمية كبيرة، لأنها جرت بعد أن شهدت العلاقات بين الفاتيكان والأزهر فترة من البرود. إضافة إلى ذلك، كان بينديكت السادس عشر، بعد هجوم على كنيسة قبطية في الإسكندرية في مصر، قد طلب حماية المسيحيين في الشرق الأوسط، وخاصة في مصر، متوجها إلى سلطات القاهرة، وحكومات المنطقة، والاتحاد الأوروبي. للأسف، أساء البعض فهم ذلك واعتبروه شكلا من أشكال التدخل في الشؤون الداخلية

الرسالة". من المهم أن تقوم علاقات إيجابية مع المحاور السنوي الأكثر مصداقية وموثوقية من منظور مناهض للأصولية، ضمن المبادرات التي تجري مع بعض النخب المسلمة في ضوء تعاون واسع الأفق وفعال³³.

المواطنة والمستقبل الذي ينبغي أن نبنيه سويا

لفهم دلالة تواجد البابا في الأزهر، يجب أن نعرف أن مؤتمر "الحرية والمواطنة والتنوع والتكامل" كان قد انعقد في المكان نفسه في الفترة من 28 فبراير إلى 1 مارس 2017. وفي النهاية وقع المشاركون- سياسيون وأكاديميون وزعماء دينيون مسيحيون ومسلمون- من 50 دولة على "إعلان الأزهر للعيش الإسلامي المسيحي المشترك" الذي يدين استخدام العنف باسم الدين، ويشير إلى أن مبدأ المواطنة هو المعيار الذي يجب تطبيقه لضمان التعايش السلمي والمثمر بين الأشخاص الذين ينتمون إلى طوائف ومعتقدات دينية مختلفة. المسلمون والمسيحيون- كما جاء الإعلان- هم "مجتمع واحد، المسلمون بدينهم والمسيحيون بدينهم"؛ "إن مسؤوليات الوطن هي في الواقع مسؤوليات يتقاسمها الجميع". يوظف الإعلان مثالا جميلا: "نحن أناس نعيش على نفس السفينة، وفي مجتمع واحد؛ نواجه مخاطر مشتركة تهدد حياتنا ومجتمعاتنا ودولنا وجميع أدياننا". إن مفهوم الأمة، الذي لم يكن موجودا في العربية حتى القرن التاسع عشر، حظي دائما بتفسيرات تستخدم مصطلحات عرقية أو دينية. أما الآن فتصيغه أهم مؤسسة سنوية، الأزهر، من الناحية الجغرافية، في الوطن المشترك، حيث ينبغي على الجميع العيش جنبا إلى جنب، سواسية، دون تراتيبات أو أفضليات عرقية أو دينية³⁴.

هذا هو صميم المشكلة: إنها ليست مسألة مناشدة السلطة لـ"حماية"، جماعة دينية أو أخرى، لكنها مسألة ضمان الحقوق الأساسية للفرد باعتباره جزءا من العائلة

لمصر. ومنذ ذلك الحين، عملت دبلوماسية الفاتيكان والمجلس البابوي للحوار بين الأديان بجدية لإعادة الاتصالات.

³³ منقول بتصريف عن حديث أمين سر دولة الفاتيكان، الكاردينال بيتر بارولين في الاجتماع الكنسي الدوري حول الشرق الأوسط، في 20 أكتوبر 2014.

³⁴ "إعلان مراكش" يعتبر من الوثائق المهمة حول مصطلح المواطنة، بتاريخ 26 يناير 2016. منقول بتصريف من كريستيانو، كوربان: "البابا في القاهرة بينما تولد أمة جديدة"، في داخل الفاتيكان *Vatican Insider* (www.lastampa.it/vaticaninsider)، 20 إبريل 2017.

البشرية الواحدة. يأتي الدفاع عن المسيحيين في إطار حماية الفرد واحترام حقوق الإنسان، خاصة تلك المتعلقة بالحرية الدينية وحرية الفكر.

لهذا السبب، ينبغي تعزيز وتطوير مفهوم "المواطنة" كنقطة مرجعية للحياة الاجتماعية، وضمان حقوق جميع المواطنين من خلال الآليات القانونية المناسبة. يجب، في مجمل القول، أن تنتقل من النظرية إلى التطبيق، من الأحاديث إلى العملية السياسية. وإذا كان هناك شيء يكرهه الديكتاتوريون والأصوليون، فهو هذا بالضبط³⁵.

إما "ثقافة اللقاء" أو "ثقافة الصدام"

التقى البابا والإمام في مركز الأزهر للمؤتمرات، حيث عُقد "مؤتمر الحوار بين الأديان من أجل السلام" في الفترة من 27 إلى 28 أبريل، الذي نظمه مجلس حكماء المسلمين، وهي منظمة مقرها في أبو ظبي، عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة، وتهدف إلى تعزيز القيم الإنسانية في العالم الإسلامي. وفي حضور زعماء دينيين آخرين وسياسيين مصريين وحشد كبير من المعلمين وطلاب الجامعة، توالى خطابا الإمام الأعظم والبابا، وكان هذا ختام المؤتمر الذي تم تنظيمه بمناسبة الزيارة البابوية. وألقى الرمزان حديثهما من منبر مزين بغصن الزيتون وفرع النخيل، في إشارة للسلام والاستشهاد.

فاجأ الجميع العناق الدافئ الطويل بين البابا والإمام، الذي وصف فرنسيس "بالضيف العظيم والأخ العزيز". وشبه هذا المشهد بعناق القديس فرنسيس والسلطان الكامل، والذي تحدث عنه البابا أيضا أثناء خطابه.

ألقى فرنسيس خطابا مستقيضا ومهما، قاطعه التصفيق حوالي عشر مرات. تمحور النقاش حول أهمية "الأخ" في تنوعه. "البحث عن المعرفة"، الذي طالما عهدته مصر، هو "البحث عن الآخر، بالتغلب على التشدد والإغلاق". بالرغم من الحديث عن

³⁵ ينتعش الإرهابيون بفضل دعم السلطات التي تدفع الفئات المستضعفة إلى البحث عن ملجأ تحت الرايات السوداء للإسلام الأصولي. وهنا يقع أولئك الذين يتصفون بـ"الأقليات" تحت إغواء تسليم مصائرهم إلى أنظمة تعتبر قلاع حماية من الإرهاب.

الماضي، واستحضار صورة الحضارة القديمة، لم يشر البابا إلى الجذور المسيحية القديمة أو تلك الإسلامية الأكثر حداثة. لكنه باختصار، وضع المصريين المعاصرين جميعا في نفس الزاوية معا، باعتبارهم ورثة لحضارة عظيمة.

وتحدث أيضا عن جذور هذه الحضارة، مؤكدا أن المعرفة الحقيقية تنبع من انفتاح القلب والعقل: إنها "منفتحة وفي حركة دائمة، ووديعة ومجتهدة في الوقت عينه". اليوم، سيكون كل هذا بطبيعة الحال نتاج التربية وحدها، وهي المنوط بها تعزيز التلاقي بين الأديان والثقافات والحوار. قال البابا "شع أيضا على هذه الأرض نور الأديان المتعدّد الألوان". لا توجد بدائل إما "ثقافة اللقاء" أو "ثقافة الصدام". بناء المستقبل مسؤولية الجميع: تعتبر مصر، وهكذا يجب أن تكون، "أرض التحالفات" من أجل الصالح العام. من هنا يجب أن يبدأ التجديد المرجو للخطاب الديني، وحل التناقضات النظرية والعملية التي تجمع بين العنف والدين.

لذلك يصبح من الضروري التمييز جيدا بين الإطار الديني والإطار السياسي، وهكذا ينشأ شباب مثل الأشجار الراسخة يمدون جذورهم جيدا في التاريخ، "ويحوّلون يوميا، فيما ينمون لأعلى وجنبا إلى جنب مع الآخرين، جو الكره الملوّث إلى أكسيجين الأخوة". في خطابه، دمج البابا بين الشعبوية والأصولية، وانتقد بشدة كل من الدين الذي يستخدم العنف، والدين الذي يصبح أداة في يد السلطة من خلال ارتباطه بالحكومات والفصائل السياسية. كانت هذه رسالة قوية تمتد إلى ما هو أبعد من الوضع في الشرط الأوسط.

كان خطابه ضد العنف قويا، ولا سيما العنف الذي "يتنكر بزيّ القدسيّة المزعومة". وهو ذاته "إنكار لكل تدين حقيقي". كان فرنسيس صارما في هذا الأمر. ترددت (لا) للعنف واضحة وصريحة عدة مرات خلال خطاب البابا، وأيدها باستمرار تصفيق الحاضرين. ونذكر في هذا الصدد أن اللقاء قد افتتح بلحظات وجيزة من الصمت تخليداً لذكرى ضحايا الهجمات الإرهابية، بناء على طلب من الإمام الأكبر.

يبدو بناء السلام ممكنا فقط حين تبذل جهود "استئصال أوضاع الفقر والاستغلال، حيث يتأصل المتطرفون بسهولة أكبر" ، و"ردع تدفق الأموال والأسلحة نحو الذين يثيرون العنف" كما قال البابا. إن السلمية المجردة لا تكفي: علينا أن نعمل لمواجهة الجذور العميقة للعنف.

لذلك تمثل زيارة البابا للأزهر خطوة أخرى تجاه التغلب على أيديولوجية صراع الحضارات والحرب الدينية، الذي يعمل عليه فرنسيس بجدية وبلا تهاون. إنه يعلم أن استخدام الخوف لأغراض جيوسياسية هو أمر تكرر في تاريخ البشرية. إن الفكر التكفيري الذي ينبثق منه "الإرهاب الإسلامي" هو في الحقيقة وليد أجنادات اجتماعية، واقتصادية، وليست ثقافية ودينية³⁶. وهي المقابل لحركات الهوية اليمينية "المتطرفة" في الغرب ، التي تدعمها المصالح السياسية والاقتصادية³⁷.

النبوءة مصر، "وطن للجميع"

بعد ختام زيارة الأزهر انتقل البابا إلى فندق الماسة حيث التقى بالسلطات. وحضر المؤتمر حوالي 800 ممثل عن المؤسسات والهيئات الدبلوماسية والمجتمع المدني. هنا التقى البابا والرئيس أمام الجمهور وألقيا خطاباهما.

في السنوات الأخيرة، اهتزت مصر أولاً بالثورة في ميدان التحرير وبسقوط الرئيس حسني مبارك، ثم بفوز الإخوان المسلمين في الانتخابات، وبعدها أزمة حكومتهم، وفي أعقابها ثورة جديدة أطاحت بمحمد مرسي لتأتي بممثل آخر للجيش على رأس السلطة وهو عبد الفتاح السيسي³⁸. خلال فترة رئاسته تحسنت الظروف المعيشية للمسيحيين وألغي حظر بناء الكنائس الجديدة. كان السيسي أول رئيس في تاريخ مصر يشارك في الاحتفال بعيد الميلاد المجيد في 7 يناير حسب التقويم القبطي. وكثيرا ما حث

³⁶ منقول بتصريف من ر. أيتالا، "النموذج المزيف لصراع الحضارات"، *ليمس Limes*، إصدار 17/2، 193-204.
³⁷ منقول بتصريف أ. سبادارو، "دبلوماسية فرنسيس. الرحمة كمنهج سياسي"، *الحضارة الكاثوليكية Civiltà cattolica*، 2016، I، 209-226.

³⁸ منقول بتصريف عن، على سبيل المثال، ج، ساليه، "الجدل حول الديموقراطية والعالم الإسلامي بعد مرور خمسة أعوام على الربيع العربي"، *الحضارة الكاثوليكية Civiltà cattolica*، 2016، II، 17-32. نفس المؤلف، "الثورة المصرية الثانية في فصل الصيف"، *ivi*، III، 2013، 491-478. نفس المؤلف، "الإسلام والديموقراطية"، *ivi*، 2011، II، 319-326.

الرئيس القادات الدينية على تطبيق إصلاح يجعل الإسلام أكثر توافقاً مع الديمقراطية، وعلى إدانة انحراف الفكر الجهادي. وفي أعقاب الهجوم المزدوج على الكنائس القبطية، زاد انتشار القوات المسلحة في البلاد، مما أثار قلق البعض بشأن التجاوز في إجراءات مكافحة الإرهاب والمراقبة المتخذة تحت مسمى حفظ الأمن.

إن مصر اليوم تمتلئ بتناقضات مقلقة، وإن كانت سياستها تعتبر محورية دون شك في استقرار منطقة كاملة تتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة. أوضح البابا أن "السلام هو هبة من الله ولكنه أيضاً ثمرة لجهد الإنسان. إنه خير يجب أن يُشيد وأن يُحرس، في إطار احترام المبدأ الذي يؤكد "قوة القانون لا قانون القوة"، كما يصبح ضرورياً أيضاً وجود "الاحترام غير المشروط لحقوق الإنسان غير القابلة للمساومة". ولكن كان من الجلي أيضاً أن فرنسيس يرى مصر كدولة لها دور رئيسي في الشرق الأوسط، كشريك ومحاور مهم، وقد أقر بأن لها "دورا لا غنى عنه" في الإطار الجيوسياسي للشرق الأوسط. كان يرى مصر في مخيلته داعمة للسلام الإقليمي، على الرغم من أنها ضحية "العنف الأعمى". لذلك، تصرف البابا كقائد ذي مكانة سياسية رفيعة، مدركاً تماماً أن "السلام هو هبة من الله ولكنه أيضاً ثمرة لجهد الإنسان": وهو عمل بطيء وشاق وأحياناً متناقض.

كان البابا قد التقى بالفعل بالرئيس في الفاتيكان في 24 نوفمبر 2014. وقد سجل بيان المكتب الإعلامي، خلال المحادثات، تمني "إمكانية تعزيز التعايش السلمي بين جميع مكونات المجتمع والاستمرار في طريق الحوار بين الأديان". وقد تطرقت تلك الزيارة بالفعل إلى القضايا المتعلقة بدور مصر في تعزيز السلام والاستقرار في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

في القاهرة، في حديثه إلى السلطات، ذكر فرنسيس مرة أخرى تاريخ مصر المرموق في الماضي- الفراغنة والأقباط والمسلمين-، وذكر أيضاً الماضي التوراتي وحقيقة أن "العائلة المقدسة: يسوع ومريم ويوسف وجدوا على الأرض المصرية الملاذ والضيافة". اليوم على هذه الأرض يُرحب "بالملايين من اللاجئين القادمين من بلدان

مختلفة، والتي من بينها السودان وإريتريا وسوريا والعراق، والذين يُسعى إلى دمجهم في المجتمع المصري من خلال جهود تستحق كل ثناء". لذا دعا البابا إلى بناء "مصر لا يفتقر أحد فيها إلى الخبز والحرية والعدالة الاجتماعية".

ثم توجه بأسى إلى الحاضرين قائلا: "علينا واجب أن نؤكد معًا أن التاريخ لا يغفر لهؤلاء الذين ينادون بالعدالة ويمارسون الظلم؛ التاريخ لن يغفر لهؤلاء الذين يتحدثون عن المساواة ويقصون المختلفين. علينا واجب أن نفصح باعة أو هام الآخرة، الذين يعطون بالكرهية كي يسرقوا من البسطاء حياتهم الحاضرة وحقهم في العيش بكرامة، ويحولونهم إلى وقود حرب حارمين إياهم من إمكانية أن يختاروا بحرية، وأن يؤمنوا بمسؤولية. وقد قلتم منذ دقائق، فخامة الرئيس، أن الله هو إله الحرية، وهذا صحيح. يجب علينا أن ندحض الأفكار القاتلة والأيديولوجيات المتطرفة، مؤكداً على أنه لا يمكن الجمع بين الإيمان الحقيقي والعنف؛ بين الله وأفعال الموت".

لذا أكد فرنسيس على أن مصر هي "وطن للجميع" ويجب أن تكون كذلك، كما يقول شعار ثورة 23 يوليو 1952، بفضل "المساواة بين جميع المواطنين". إن وجود المسيحيين "تاريخي ولا ينفصل عن تاريخ مصر". وتابع وسط التصفيق: "وقد أثبتتم، وتثبتون، أنه يمكن أن نعيش معا في الاحترام المتبادل والمواجهة المتكافئة، وأن نجد في الاختلاف مصدرا للإثراء وليس أبداً سببا للخلاف". وبهذه الطريقة، أراد فرنسيس دعم النقاش المهم حول الدين والمواطنة في العالم الإسلامي، لكي يتحرر ذلك الأخير من قيود النظريات. نقاش يهدف إلى تجنب الوقوع في فخ بناء مجتمعات ذات نزعة عرقية قومية، وتفسير "قبلي" للهوية الدينية.

عند إلقائه هذا الخطاب، كان البابا على دراية تامة بأن دم الأقباط يستخدم في سياق صراع سياسي كبير ضد الرئيس أو لجذب السلفيين والإخوان المسلمين الأصوليين المنهزمين. فإثارة الفتن - كما تعلمون - هو أحد أساليب السيطرة السياسية. لكن المجتمع القبطي لديه وعي كامل بأنه يعيش على أرضه. وانطلاقاً من هذه القناعة، نجد أن هذا المجتمع قد شارك في مختلف مراحل التحرر الوطني التي نفذها دائماً المسلمون

والمسيحيون معا. وفي هذا الواقع الصعب، بما فيه من هجمات ومخاوف، يبدو مدهشا النضج المسيحي الذي ظهر في رد فعل قيادة الأقباط، التي لم ترتد قناع الضحية ولم تشك من الاضطهاد، على الرغم من بعض الضغوط التي تعرضت لها من قبل الغرب. المجتمع المسيحي ليس "أقلية" مهمشة في مصر، ولا يمكن اختزاله- كما يحدث أحيانا في وسائل الإعلام- في كونه مجرد "ضحية". إنه عنصر أساسي وحيوي ذو تاريخ وثقافة في بلد متعدد العناصر و"متعدد الأطياف".

الأخ تواضروس والشهادة الحية للكنيسة القبطية

في حوالي الساعة 17.20 وصل فرنسيس إلى قصر تواضروس الثاني، حيث عقد الاثنان جلسة خاصة. في النهاية، وفي قاعة مجاورة، بحضور الوفود، ألقيا خطابينهما. تعجب الجميع لرؤية فرنسيس يدخل القاعة مرتديا صليبا قبطيا على صدره، كان قد ناله كهدية.

تواضروس هو رأس الكنيسة القبطية، وهي واحدة من الكنائس الشرقية القديمة، التي يطلق فيها لقب "البابا" على بطريرك الإسكندرية. اشتق مصطلح "قبطي" من العربي qubṭ (قبط)، والذي اشتق بدوره من اليونانية αἴγυπτος "مصري". وفقا لبعض الإحصاءات الأكثر موضوعية، يقدر تعداد الأقباط بحوالي 10 ملايين من أصل أكثر من 90 مليون نسمة. تأسست الكنيسة في مصر في القرن الأول ونشأت بكراسة القديس مرقس. ولقد أسهمت بشكل كبير في انتشار المسيحية بفضل كتابها، ومفسريها، وفلاسفتها، من أكليمندوس السكندري حتى أوريجانوس. وفي الإسكندرية، تأسست أول مدرسة للتعليم المسيحي (190 م)، كان بها معلمون عظام.

في حديثه، أعرب تواضروس عن وده وامتثانه لفرنسيس. رد فرنسيس على هذه المشاعر ، قائلاً إنه جاء "كحاج" ، "وأتق من الحصول على بركة أخ كان ينتظرنى". كان يسود القاعة أجواء توحى بأهمية اللقاء وبالأخوة والمهابة في الوقت ذاته.

يعود الانقسام بين الكنيسة القبطية والكنيسة الكاثوليكية إلى القرن الخامس، عندما انفصلت الأولى مع الكنائس الشرقية الأخرى عن الكنائس اللاتينية واليونانية بسبب

رفض استنتاجات مجمع خلقيدونية عام 451. الأقباط هم "miafisiti" ، أي يعتقدون أن يسوع كامل في ألوهيته ومثالي في إنسانيته، لكن ألوهيته وإنسانيته اتحدتا في طبيعة واحدة، تسمى "تجسد الكلمة".

في خطابه وصف البابا فرنسيس زيارته بأنها مرحلة أخرى من المسار المشترك داخل ما أسماه "الشركة الحية". في الواقع ، "في حضور الرب، الذي يريد لنا أن نكون "كاملين في الوحدة"، "لم يعد بإمكاننا الاختباء وراء ذرائع وجود اختلافات في التفسير، ولا حتى خلف قرون التاريخ والتقاليد التي جعلتنا غرباء". لم يعد في مقدورنا المضي قدما هكذا كل في طريقه. تدعم "مسكونية الدم" نضوج الحوار المسكوني. قال البابا: "أورشليم السماوية هي واحدة، وسنكسار شهادتنا هو كذلك واحد، وآلامكم هي أيضاً الآمان". لذلك ينبغي أن نرسخ مفهوم "شركة تامة فيما بيننا وسلام للجميع".

إن خطاب فرنسيس هو جزء من تاريخ العلاقات المسكونية التي بدأت بعد مجمع الفاتيكان الثاني. وبالتحديد منذ يونيو 1968، عندما أعاد البابا بولس السادس جزءا من رفات القديس مرقس الإنجيلي إلى الأقباط تلبية لطلب من البطريرك كيرلس السادس. وكانت رفات القديس قد سرقت عام 828 حيث نُقلت إلى البندقية. كان بولس السادس هو أول من التقى بطريرك الأقباط الأرثوذكس في مصر. حدث هذا في 10 مايو 1973، في الفاتيكان، عندما وقع بولس السادس وشنودة الثالث على "بيان" مشترك حول الفكر المسيحي، حيث أعطيا إشارة البدء للحوار المسكوني الثنائي بين الكنيستين. كانت الثمرة الرئيسية هي الإعلان المشترك الصادر في 12 فبراير 1988، والذي يعبر عن اتفاق رسمي على طبيعة وصفات المسيح، وهو اتفاق وافق عليه المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية. لقد وضع الإعلان المشترك حول الإيمان الكريستولوجي حدًا لقرون من سوء الفهم وعدم الثقة بين الطرفين³⁹.

³⁹ نؤمن أن ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، الكلمة (اللوجوس) المتجسد، هو كامل في لاهوته وكامل في ناسوته. وجعل ناسوته واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا تشويش. ولاهوته لم ينفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. وفي نفس الوقت، نحرم تعاليم كل من نسطور وأوطاخي.

الباباوات والبطاركة و "الشركة الحية"

كان آخر اجتماع بين قادة الكنيستين في 10 مايو 2013، عندما التقى فرنسيس وتواضروس الثاني في روما فيما سماه البابا "فرحة عظيمة ولحظة نعمة حقيقية". وفي عظته خلال قداس الصباح في كنيسة القديسة مارتا، عبر عن مشاعره على النحو التالي: "إنه أخ يأتي لزيارة كنيسة روما للحوار، ليقطع معنا جزءا من الطريق. إنه أسقف أخ مثلي، أسقف، يدير كنيسة. نطلب من الرب أن يباركه ويساعده في خدمته على رعاية الكنيسة القبطية. ونطلب هذا لنا أيضا، حتى نتمكن من أن نقطع معا هذا الجزء من الطريق".

بعناقه تواضروس في 28 أبريل، يكون فرنسيس قد احتضن أيضا كنيسة خبرت الاستشهاد جيدا، في حاضرها وفي ماضيها البعيد، وتحياها بكرامة وأمل. وكان للتضامن المعنوي الذي عبر عنه فرنسيس لتواضروس بعدا مسكونيا ملموسا. من ناحية أخرى لا تعتبر المسكونية شيئا مجردا في حد ذاتها، ولكنها تسعى لخدمة المسيحيين المتحدين في عالم مقسم، وممزق، وغير مستقر.

وفي إشارة ملموسة، وقع فرنسيس وتواضروس على إعلان مشترك يلخص المسار المسكوني ويعيد إطلاقه نحو المستقبل: "إننا نعلن، وبشكل متبادل، بأننا نسعى جاهدين بضمير صالح نحو عدم إعادة سر المعمودية الذي تمّ منحه في كلّ من كنيستينا لأي شخص يريد الانضمام للكنيسة الأخرى". من خلال هذه الخطوة الإضافية في المسار المسكوني، يتضح أن البابا والبطاركة الذين التقى بهم حتى الآن "يلعبون" دورا رعويا داخل كنائسهم، ماضين نحو تحقيق اتحاد أقوى من أي وقت مضى، دون الالتفات إلى العراقيل والمصاعب التي تواجههم.

ما حدث بعد الانتهاء من التوقيعات وتبادل الهدايا كان دليلا واضحا على جدية النشاط المسكوني: انتقل البابا مع البطريرك والوفود في موكب إلى كنيسة القديس بطرس، على بعد 100 متر، لأداء صلاة مسكونية بحضور رؤساء الطوائف المسيحية الأخرى. وفي هذه الكنيسة تظهر بوضوح آثار الهجوم العنيف الذي وقع في 11 ديسمبر

والذي راح ضحيته 29 قتيلًا و 31 جريحًا. في ذلك اليوم تم نقل الجثث من داخل الكنيسة ووضعها خلف جدار خارجها. اتخذ هذا الجدار لون دمائهم. واليوم تم وضع زجاج واق أمام ذلك الجدار، وأصبح هذا المكان مقصدا للحج والصلاة، إنه "جدار الشهداء" بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

وبين هذه الجدران تحديداً، أقيم حفل، كان من بين الحاضرين فيه البابا فرنسيس والبابا تواضروس والبطريرك بارثولومئوس والبطريرك ثيودور الثاني من الإسكندرية، جميعهم للمرة الأولى معاً.

بعد أن قرأ الإنجيل، جزء التطويبات، أحد رجال الدين باللغات الإسبانية والإنجليزية واليونانية والعربية، وبعد صلاة البابا فرنسيس والبابا تواضروس الثاني، تبادلوا القبلة المقدسة ورددا الصلاة الربانية. وعند خروجهما من الكنيسة، في الفناء، كرم البابا المكان الذي يُحيى ذكرى الضحايا، بوضعه إكليلاً من الزهور أمامه، وأشعل أيضاً شمعة في صمت مهيب. أصبح موضع استشهاد الضحايا، أي الجدار الملطخ بالدماء، واحداً من الأماكن الكثيرة التي باركها فرنسيس.

الكنيسة القبطية الكاثوليكية و"التطرف في العمل الخيري"

وصل فرنسيس يوم السبت 29 أبريل، حوالي الساعة 9:30 صباحاً، إلى استاد الدفاع الجوي، حيث ترأس القداس الذي أقامه من أجل المؤمنين من الطائفة الكاثوليكية، التي تتكون من الأقباط واللاتين والكلدانيين والملكيين والأرمن والمارونيين. وفي المساء السابق، قام بتحيةة 300 شاب كانوا قد وصلوا إلى العاصمة المصرية كحجاج لمدة يومين، ثم شاركوا بعد ذلك في الاحتفال. بمجرد وصوله، أحيط فرنسيس بمجموعة من الأطفال، ركضت لاحتضانه. كان القداس عبارة عن سيمفونية كبيرة من الأغاني، تؤدبها 6 جوقات تمثل الطوائف الكاثوليكية المختلفة الموجودة في مصر، مطلقاً بذلك رسالة عن اتحاد الكنيسة. وكان بين الحاضرين ممثلون عن الطائفة القبطية الأرثوذكسية والأزهر. كان بين شعب الكنيسة أيضاً العديد من الأرثوذكس والمسلمين، وبعضهم من أقارب ضحايا الهجمات الإرهابية في الأشهر الأخيرة.

يوجد في مصر حوالي 270.000 مسيحي كاثوليكي، 213 أبراشية، 16 أسقفا، وحوالي 500 كاهن، من بينهم كهنة الأبراشيات والكنائس، و730 راعيا، بالإضافة إلى مئة آخرين مكرسين. يشارك الكاثوليكيون في حوالي 400 مؤسسة تعليمية- من بينها 3 في التعليم العالي والجامعي- يتردد عليها 100000 طالب. بينما يزيد عدد الجمعيات الخيرية ومراكز الخدمات الاجتماعية التي يمتلكها ويديرها رجال دين وخدام عن 230 مؤسسة.

في رسالته الرعوية إلى الطائفة الكاثوليكية الصغيرة، علق البابا على إنجيل تلاميذ عمواس، في ليتورجيا يوم الأحد الثالث من عيد الفصح. وقال: "كم مرة يقيد الإنسان نفسه، برفضه تقبل مفهوم الله، هذا الإله الذي له صورة الإنسان ومثاله! كم مرة يئس فيها، لعدم اقتناعه بأن قدرة الله غير المحدودة لا تكمن في القوة والسلطة، بل هي قدرة على المحبة، والغفران وإعطاء الحياة!". إن الله يفوق حدود تصورنا له ، وغالبا ما يكون هذا التصور مرتبطا بمنظور دنيوي يعتبر القدرة مرادفا للقوة. القدرة المطلقة لله هي المحبة. وهذه رسالة تؤكد على الحب وتنبذ العنف وترفضه من أرض الأديان.

وتحدث البابا عن "تطرف في العمل الخيري" حقيقي وملمس، داعيا إلى "حب الجميع، الأصدقاء والأعداء". إنها رسالة قوية تحث- بغض النظر عن أية اعتبارات- الشعب الكاثوليكي الصغير في مصر للخروج من موقفه الدفاعي، والمضي قدما ثقة في الله وليس في القوة الدنيوية.

في حوالي الساعة 15.00 بعد الظهر، استقبل قداسة البطريرك إبراهيم إسحاق سيدراك، رئيس الطائفة القبطية الكاثوليكية، البابا، في مقر الكلية الإكليريكية التي تحمل اسم القديس ليون الكبير في حي المعادي. هنا، في ساحة الألعاب الرياضية، التقى برجال الدين، رجالا ونساء، من إكليركيين وخدامات: وكان مجمل عددهم حوالي 1500 شخص. خلال ليتورجيا الكلمة، ألقى فرنسيس خطابا، شبه فيه الكهنة والخدام والخدامات بـ "الخميرة" التي أعدها الله لهذه الأرض المباركة، حتى تنمو فيها مملكته، بفضل إخواننا الأرثوذكس أيضا. هؤلاء هم "زارعو الأمل وبناء الجسور وداعمو الحوار والوفاق".

هذه هي الطريقة لكي نصبح "رعاة" في أرض مصر، متجنبيين بذلك سلسلة من الإغراءات- حدد فرنسيس سبعة منها- أحدها "نزعة التفرعن"، التي تحمل من يتبناها إلى العزلة والتكبر. وذكر البابا عنصري الهوية الدينية المصرية: "أن تكونوا أقباطا- بمعنى أن يكون لكم رباط بجذوركم النبيلة والقديمة" و "أن تكونوا كاثوليكًا- أي جزء من الكنيسة الواحدة الجامعة". في نهاية الاجتماع الإكليريكي، انتقل البابا إلى المطار لحفل الوداع، وقطع مسافة 40 كم، عبر فيها للمرة الثانية المدينة.

في 23 أغسطس 2017، سيجرى الاحتفال بمرور 70 عاما من العلاقات الدبلوماسية بين مصر والفاتيكان. إن الوضع السياسي الدولي حرج، وفي هذا السياق يُصنف فرنسيس أنه "أحد القادة الرئيسيين الذين يمكنهم قيادة العالم نحو السلام والأمن"⁴⁰. وقد لخص الرئيس ماتأريلا ذلك بشكل جيد في رسالته إلى فرنسيس الذي غادر إلى القاهرة: هذه الرحلة هي "رسالة أمل لكل من المؤمنين وغير المؤمنين، وتحمل تحذيرا بضرورة حماية حقوق الإنسان المعترف بها عالميا، كما أنها تمثل تشجيعا على حل الأزمات العديدة التي هزت الشرق الأوسط لفترة طويلة". لذلك كانت الزيارة لمصر رحلة مليئة بالمعاني والرسائل والكلمات المفتاحية المتكررة، والتي ترددت في خطابات البابا: "الله"، "السلام"، "الحياة"، "الأرض"، "معا".

وبعد إتمامه رحلة العودة من النيل إلى التبرير، ظهرت على البابا تعبيرات السعادة بشكل واضح. كانت رسالته الأساسية هي التي كررها دائما باللغة العربية في بداية جميع خطباته: السلام عليكم ، أي "السلام معكم"⁴¹.

⁴⁰ من كلمة السفير عبد الرحمن موسى مستشار الإمام الأكبر في مقابلة مع وكالة سير في 19 أبريل 2017.
⁴¹ حمل فرنسيس "السعادة والفرح للشعب المصري"، جاء ذلك في بيان صادر عن الرئاسة المصرية، التي تعهدت بالالتزام "بمواصلة بذل أقصى جهد لمحاربة الفكر الأصولي وتدميره من خلال رفع قيم الاحترام، من خلال القبول المتبادل للطرف الآخر والتعاون والبناء من أجل خير سائر البشرية.

أبو ظبي، "حراس الأخوة في الليل"*

أنطونيو سبادارو

في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم 3 فبراير، حلقت طائرة البابا فرنسيس إلى الإمارات العربية المتحدة لبدأ رحلته الرعوية رقم 27. وكانت هذه هي الرحلة الأولى التي يقوم بها أحد البطاركة إلى شبه الجزيرة العربية، على مقربة من الأماكن المقدسة الإسلامية في المدينة المنورة ومكة.

في الساعة 12.00، بعد صلاة التجسد في ساحة القديس بطرس وقبل الذهاب إلى مطار فيوميتشينو، تذكر البابا اليمن، وأعرب عن قلقه البالغ إزاء الأحداث التي تمر بها دولة تزعت بسبب حرب خلفت وراءها حتى الآن الآلاف من الضحايا والنازحين، وكان الأطفال هم أكثر من تكبد الخسائر. مأساة تدور أحداثها في شبه الجزيرة العربية. بهذا النداء، أراد البابا أن يعطي إشارة واضحة على إدراكه للتام للآليات الجيوسياسية الديناميكية بالمنطقة، والتي تشمل الإماراتيين أنفسهم⁴².

كانت الدعوة قد وجهت له لزيارة البلاد في مايو 2016 من قبل الشيخة لبنى القاسمي، وزير الدولة للتسامح، أثناء زيارتها للفاتيكان. في سبتمبر من العام نفسه، في الفاتيكان، تم استقبال سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، ولي العهد، نجل المرحوم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، "خادم الأمة" وأول رئيس للإمارات، وشقيق الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة.

تحدث الأمير مع البابا حول محاربة التعصب، وثقافة التعايش بين المسيحيين والمسلمين. وسلم البابا، إضافة إلى "سجادة السلام" التي نفذتها مجموعة من النساء الأفغانيات في إطار مشروع تضامن تدعمه حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، كتابا

*العنوان الأساسي: "حراس الأخوة في الليل". الرحلة الرعوية لبابا فرنسيس لأبو ظبي".
42 في سياق متصل بالزيارة، منقول بتصريف من ج، ساليه: "الإمارات العربية المتحدة"، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2019، I، 141-151.

مصوراً عن الحفريات الأثرية في جزيرة صير بنى ياس. كشفت تلك الحفريات عن أحد الأديرة المسيحية القديمة الذي أنشئ في عصر ما قبل الإسلام على جزيرة صغيرة غير بعيدة عن ساحل الجزيرة العربية. لهذا السبب صدر من الإمارات احتفاء رسمي بالتواجد المسيحي القديم في المنطقة.

أول زيارة لبطريك في شبه الجزيرة العربية

هبطت الطائرة البابوية الساعة 22.00، في المطار الرئاسي لمدينة أبو ظبي- والتي تعني باللغة العربية "أرض الغزال"- عاصمة الإمارات وثاني أكبر مدينة بعد دبي. تعتبر هذه الأرض جزءاً من النيابة الرسولية في جنوب شبه الجزيرة العربية، التي تأسست في عام 2011، وتضم حوالي مليون مؤمن- معظمهم من المهاجرين- وتنقسم إلى 16 أبرشية، يعمل فيها 13 كاهناً أبراشياً و51 كاهناً نظامياً، وتختص برعاية شؤون الكاثوليكين المقيمين في الإمارات العربية المتحدة، وعمان واليمن. يترأسها المونسنيور بول هيندر. كما يوجد في شبه الجزيرة نيابة رسولية في الشمال، تمارس خدماتها في الكويت، والمملكة العربية السعودية، وقطر والبحرين.

كان في استقبال البابا عند مدرج المطار ولي العهد. وقدم له طفلان يرتديان الزي التقليدي الزهور في إطار استقباله والترحيب به. كان في انتظاره الإمام الأكبر للجامع الأزهر أحمد الطيب، الذي وصل قبله بوقت قصير.

بدأ برنامج الزيارة في اليوم التالي، 4 فبراير. في الساعة 11.50 ذهب البابا إلى القصر الجمهوري، الذي تبلغ مساحته 160.000 متر مربع. يغلب على القصر اللون الأبيض الناصع، ويعلوه أكثر من 70 قبة من الفسيفساء الزجاجية والذهبية، تشغل مساحة حوالي 18000 متر مربع. الباب الرئيسي شديد الفخامة: ارتفاعه 12 متراً وعرضه 8 أمتار، مصنوع من الفولاذ والبرونز. رافق الحرس الرئاسي بخيوله سيارة البابا حتى المدخل الرئيسي للقصر، حيث استقبل ولي العهد فرنسيس. وبمجرد الانتهاء من العروض الافتتاحية، رافق الأمير البابا إلى الغرفة التي تم إعدادها خصيصاً للاجتماع المغلق.

في فترة ما بعد الظهر ذهب البابا إلى جامع الشيخ زايد الكبير، وهو أهم مكان للعبادة في البلاد، وواحد من أكبر المساجد في العالم. يتسع لأكثر من 40.000 ألفا من المصلين. يعكس المجمع التاريخي الرغبة في الجمع بين التنوع الثقافي للعالم الإسلامي والقيم التاريخية والحديثة في العمارة والفن. يحتوي المبنى على 82 قبة وحوالي 1100 عمود، وأقواس ذات طراز أندلسي وأربع مآذن. وكان في استقبال البابا الإمام الأكبر ووزراء الخارجية والتسامح والثقافة عند مدخل ضريح الشيخ الذي زاره فرنسيس. صعد البابا في عربة جولف مع الإمام الأكبر حتى وصلا إلى فناء المسجد، حيث عقد اجتماع خاص مع مجلس حكماء المسلمين في الهواء الطلق. المجلس هو منظمة دولية مستقلة، مقرها في أبو ظبي، وتعمل على تعزيز عملية السلام في المجتمعات الإسلامية.

كانت مناسبة الزيارة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة هي على وجه التحديد المشاركة في "المؤتمر الدولي للأخوة" (المؤتمر العالمي للأخوة الإنسانية)، الذي روج له المجلس. وقبل وصول البابا، كان 500 من الرموز الدينية من جميع أنحاء العالم قد اجتمعوا بالفعل، وتبادلوا النقاش خلال 21 ورشة عمل تضم 60 متحدثًا، و30 مسيحيًا ويهوديًا ومسلمًا آخرين.

بعد انتهاء الاجتماع، ذهب البابا، برفقة الطبيب والوزراء الحاضرين، إلى نصب المؤسس التذكاري، وهو نصب وطني يخلد ذكرى حياة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وإرثه وقيمه. المبنى مثير للدهشة، تتوسطه الثريا، من تصميم الفنان الأمريكي رالف هيلميك، وهي تمثل صورة ديناميكية ثلاثية الأبعاد للشيخ زايد، تقع في جناح مكعب الشكل يبلغ ارتفاعه 30 متراً، ويحتوي على 1.327 شكلاً هندسياً معلقاً على 1110 من الأسلاك، لتكون بذلك صورة القائد.

وصل البابا والإمام إلى المنصة معاً. وألقى الأمير التحية أولاً، ثم تبعه الطبيب وفرنسيس.

"تجريد قلب الإنسان من السلاح"

نذكر أن الإمام الأكبر قد زار فرنسا في 23 مايو 2016، بينما كان آخر لقاء بينهما- زيارة خاصة إلى بيت القديسة مارتا- في أكتوبر الماضي 2018. رحب الطيب بالبابا خلال رحلته الرعوية إلى مصر 28-29 أبريل 2017، بمناسبة مؤتمر السلام الدولي، الذي نظمه الأزهر ومجلس حكماء المسلمين. وقد دعا ضيفه البابا حينها بـ"الضيف العظيم والأخ العزيز". في عام 2019، تحل ذكرى مرور 800 عام على لقاء فرنسيس الأسيزي مع السلطان الملك الكامل، ابن شقيق صلاح الدين الأيوبي. إن ذكرى عناق الماضي ذلك أصبحت اليوم أيقونة لمستقبل أت.

قال البابا في تلك المناسبة: "لا يوجد بديل" إما "ثقافة اللقاء" أو "ثقافة الصدام". يجب أن "ينشأ الشباب مثل الأشجار الراسخة يمدون جذورهم جيدا في التاريخ، ويحولون يومياً، فيما ينمون لأعلى وجنباً إلى جنب مع الآخرين، جوّ الكره الملوّث إلى أكسجين الأخوة". وكان هذا "الأكسجين" هو حجر الزاوية في وثيقة "الأخوة البشرية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك"، التي وقعها البابا والإمام في 4 فبراير في أبو ظبي. قبل التوقيع التاريخي، ألقى الإمام الأكبر وفرنسيس خطابيهما. بدأ الطيب بالحديث عن تجربته الشخصية باعتباره جزءاً مما يمكن تسميته بـ"جيل الحروب": فمنذ الحرب العالمية الثانية حتى أحداث 11 سبتمبر 2001 المأساوية، شهدت حياته سلسلة من الأحداث المؤلمة التي تصب اليوم في رغبته في حدوث تغيير جذري. وفي إشارة إلى البابا والنظر إلى الإرهاب كأفة، قال: "كان صديقي العزيز رحيماً يتألم لمآسي الناس كل الناس. بلا تفرقة ولا تمييز ولا تحفظ. وكان أبرز ما تسألنا عليه هو: أن الأديان الإلهية، بريئة كل البراءة من الحركات والجماعات المسلحة". ثم وجه نداء قويا إلى المسيحيين الموجودين في الشرق: "أنتم جزء من هذه الأمة، وأنتم مواطنون. ولستم أقلية!"; وكذلك إلى المسلمين الموجودين في الغرب: "اندمجوا في مجتمعاتكم اندماجاً إيجابياً، تحافظون فيها على هويتكم الدينية كما تحافظون على احترام قوانين هذه المجتمعات، واعلموا أن أمن هذه المجتمعات مسؤولية شرعية، وأمانة دينية في رقابكم تُسألون عنها أمام الله تعالى".

في خطابه قدم فرنسيس نفسه على أنه "مؤمن متعطش للسلام". و"لكي نحافظ على السلام باسم الله، نحن بحاجة للدخول معًا كعائلة واحدة في فُلك يستطيع أن يعبر بحار العالم العاصفة *بِإِذْنِ فُلكِ الأُخوة*". كانت "الأخوة" الكلمة المفتاحية للخطاب بأكمله وللوثيقة التي تم توقيعها. يعيد فرنسيس أساسها إلى الله، الذي هو "أصل العائلة البشرية الوحيدة". إن نظرة الله، "منظور السماء"، تحتضن وتدمج. لا يوجد عنف يمكن تبريره دينيا. يجب حماية التعددية والاختلاف. لا توجد علاقة بين الأخوة وفكر التوفيقية بين الأديان. بل على العكس، "يتطلّب الأمر في الوقت عينه شجاعة الاختلاف، التي تتضمن الاعتراف الكامل بالآخر وبحريّته". الحرية الدينية، بشكل خاص، هي المنوط بها أن "ترى في الآخر آخًا بالفعل، وابنًا لبشريّتي نفسها، ابنا يتركه الله حرًّا".

نحن نتفهم كيف لم يقتصر خطاب فرنسيس على العلاقة بين المسيحيين والمسلمين. كان خطابا ذا أبعاد عالمية، وكانت الرسالة موجهة إلى عالم ممزق. "ليس هناك من بديل آخر: إمّا نبني المستقبل معًا وإلاّ فلن يكون هناك مستقبل. لا يمكن للأديان، بشكل خاص، أن تتخلى عن الواجب الملحّ في بناء جسور بين الشعوب والثقافات. لقد حان الوقت للأديان أن تبتذل ذاتها بشكل فعّال، وبشجاعة وإقدام، وبدون تظاهر، كي تساعد العائلة البشريّة على إنضاج القدرة على المصالحة، ورؤية ملؤها الرجاء، واتّخاذ مسارات سلام ملموسة".

لذا فإن الأديان مدعوة "لتسهر كحارسة الأُخوة في ليل الصراعات"، وعليها أن تمنع الإنسانية من الاستسلام إلى مآسي العالم ولتسهم بشكل فعال في "الإسهام بشكل فاعل في تجريد قلب الإنسان من السلاح". لذلك طلب البابا التزاما محددًا "ضدّ التسلّح على الحدود وبناء الجدران وخنق أصوات الفقراء".

وثيقة الأخوة

بعد انتهاء الخطابين، بدأ كل من البابا والإمام مراسم التوقيع المشترك على الوثيقة، في مشهد مؤثر وفي حضور جميع المشاركين في المؤتمر الدولي للأخوة.

نشرت مجلتنا بالفعل نص الوثيقة⁴³. يتطلب فهم الوثيقة قراءة متعمقة. هنا نقتصر على إبراز بعض الجوانب الأساسية للوثيقة في إطار ديناميكية الرحلة. ومن الجدير بالذكر أن توقيعها كان مفاجأة للكثيرين، لأن الخبر لم يذع قبلا، ولم يكن نصها معروفا بشكل مسبق. أعلنت نقاط مضمونها الأساسي في تلك اللحظة، في مقطع فيديو عُرض على شاشة عملاقة وضعت بجوار النصب التذكاري.

في أول الأمر، نلاحظ أن القائدين قد عبرا عن نفسيهما "باسم الله"، دون أن يتطرقا إلى مقدمات عقائدية. فقد بدءا حديثهما انطلاقا من تجربتهما الشخصية في أعقاب اللقاء الثنائي، وانطلاقا أيضا من المرات العديدة التي تشاركا فيها "الأفراح والأحزان ومشاكل العالم المعاصر". إن وضع العالم- وليس الإطار النظري للحوار بين الأديان- هو الذي دفع فرنسيس والطيب لأن يُقرا شيئا معا يكون "دليلاً للأجيال القادمة لتعلم ثقافة الاحترام المتبادل، وفهم النعمة الإلهية العظيمة التي تجعل جميع البشر إخوة".

تظهر هنا نقطة منهجية مهمة: جاء الاجتماع نتيجة للإصغاء إلى الواقع. هذا هو السبب الذي جعل القائدين يتحدثان "باسم" الفقراء، والأيتام، والأرامل، والشعوب التي تفتقد السلام، أي مهمشي العالم. ولكنهما تحدثا أيضا "باسم" الحرية، والعدالة، والرحمة، وجميع أصحاب النيات الحسنة.

تظهر قراءة الواقع أننا في "وَضْعٍ عالميٍّ تُسَيِّطِرُ عليه الضَّبَابِيَّةُ وَخَيْبَةُ الأملِ والخوفُ من المستقبلِ، وتَحَكُّمُ فيه المصالحُ الماديَّةُ الضَيِّقَةُ". والسبب الحقيقي وراء كل هذا هو "الضمير الإنساني المغيب"، و"تدهور الأخلاق"، و"الابتعاد عن القيم الدينية الأصيلة" والانجراف في تيار "التطرف الديني والوطن".

تتناول الوثيقة بشجاعة فكرة مجابهة الاعتلال في العقيدة، التي تحول قدسية الدين إلى خدمة العمل السياسي الذي يُنظر له بوصفه أمرا مقدسا. يبدو هذا الاعتلال، في صورته الأكثر تطرفا ومكرا، وكأنه يدفع تابعيه نحو "خلق" جديد للعالم من خلال العنف

⁴³ منقول بتصرف من "الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك" (أبو ظبي، 4 فبراير 2019)، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2019، I، 391-399.

والإرهاب. سيصبح هذا هو سمته الديني المزعوم. وستصبح صورة "الشهيد" المبجلة من قبل هذه الصيغة الأصولية رمزا عقائديا يضيفي شرعية وقديسية على فكرة الانضمام لهذه الجماعات. كشف كل من فرنسيس والطيب عن الآليات الداعمة لهذه الرؤية، والتي تنزع عنها تماما الطابع الديني. وبذلك، يصبح الالتزام الأخلاقي لحماية الإنسان وكرامته هو مركز الاهتمام. يريد كل من البابا والإمام الأكبر إنقاذ المفاهيم الدينية من الاستغلال البرجماتى لها في الإطار السياسي والعدمي. وكما يتضح، يتجاوز مغزى وثيقة الأخوة حدود حوار الأديان بين المتخصصين. كما أنه يتجاوز مجرد الحوار بين المسيحيين والمسلمين: فهي في الواقع نص ذو قيمة دينية عميقة وتأثير سياسي كبير.

تمثل الوثيقة نقطة تحول، لأنها تتجاوز بشكل كبير منطق "الحوار"، أي مناقشة القضايا المهمة، التي هي عنصر أساسي، لكنه لم يعد كافيا. وهنا ينضج ما طرحه فرنسيس في أغسطس 2014، في كوريا، في لقاء مع رجال الدين في البلاد، حين قال ملوفا بيده: "الحياة رحلة طويلة ولا يمكن أن نمضي فيها بمفردنا. يجب أن نسير مع الإخوة في ظل وجود الله: هذا ما طلبه الله من إبراهيم. دعونا نعتبر أنفسنا كأخوة ونمشي معا".

إن الاعتراف بالأخوة يغير الرؤية ويقلبها رأساً على عقب، ويصبح بمثابة رسالة قوية ذات قيمة دينية وسياسية أيضا. ليس من قبيل الصدفة، أنه يؤدي مباشرة إلى التفكير في معنى "المواطنة": فنحن جميعا/خوة، وبالتالي نحن جميعا مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات، يتمتع الجميع في ظل المواطنة بالعدالة. بهذا تختفي فكرة "الأقلية" التي تحمل في طياتها بذور القبلية والعداء، والتي ترى في وجه الآخر قناع العدو. هكذا يعبر العالم الإسلامي، من جانب، عن فهم أفضل للحدثة، ومن جانب آخر، تكتسب هذه الرسالة أهمية عالمية: في وقت تُبنى فيه حواجز الكراهية والخوف الممنهج، تقلب هذه الكلمات منطق النزاع الضروري رأساً على عقب. من الواضح أننا هنا لا نتحدث عن حقيقة كاملة، ولكن عن اتجاه نريد أن نسير فيه نحو الحقيقة.

يوجه النداء إلى "إيقاظ الحس الديني". وقال البابا، في رده على أسئلة الصحفيين عن الوثيقة أثناء رحلة العودة إلى روما: "إذا لم نتمكن نحن المؤمنين من أن نمد أيدينا لبعضنا البعض، أن نتعاقق، أن نقبل بعضنا البعض، وأن نصلي أيضا، سيُهزم إيماننا". هنا يتحدث فرنسيس عن جميع "المؤمنين" وعن "الإيمان"، مشيرا إلى مَنْ هم أبعد من المؤمنين الكاثوليكين.

أخذ البابا والإمام الأكبر خطوة حاسمة معا نحو التغلب على الضغائن والفخاخ الأيديولوجية. هدما الجدران التي بناها محاربو الثقافة، الذين يتوقون إلى صدام الحضارات بفضل الاختزال الأيديولوجي للأديان. إن أساس كل شيء يكمن في جملة واحدة: "يقود الإيمان المؤمن إلى أن يرى الآخر أخًا جديرا بالدعم والمحبة".

بناء على هذه القناعة يمكن التصرف بشكل صحيح. لم يقصد فرنسيس أبدا أن يملئ على الإسلام ما يجب أن يكون عليه، فهو ليس مفكرا يتبنى إصلاحا "تنويريا" تجاه الثقافة الإسلامية. الأمر ليس هكذا. على النقيض، كتبت الوثيقة مشاركة لأننا يجب أن نسير معا. في عالم تسود فيه الانقسامات ذات الصبغة العالمية، يصبح مفهوم الأخوة عند من يرى في نفسه "ابنا لله" نوعا من التفكير النقدي.

كيف يمكننا تفسير هذه الوثيقة من وجهة نظر فرنسيس؟ البابا- بلغة كرة القدم- هو "صانع ألعاب". يتميز أدائه على أرض الملعب أحيانا بالتفرد فلا يمكن لأحد أن يتوقعه. وهذا يقوده، في بعض الظروف، إلى الاستجابة لنداء النفس وليس إلى القواعد والأعراف التقليدية. يميل إلى أن يكون بعيد النظر، وبالتالي يدفع الكرة خارج إطار الملعب ليدير هناك مبارياته الحقيقية. لكنها ليست لعبة يمكنه أداءها بمفرده. وهذا ما قام به بالفعل- بطرق مختلفة- مع بارثولوميو، وكيريل والآن مع الإمام الأكبر للجامع الأزهر. أطلق لاعبا أبو ظبي الكرة، لكنهما قالوا إنهما يتحدثان أحدهما "نيابة عن مسلمي الشرق والغرب"، والآخر "بالنيابة عن كاثوليكى الشرق والغرب".

لهذا السبب سترتفع بالتأكيد أصوات ناشرة. ومع ذلك لن تكون هناك عودة للوراء: المسار مفتوح، والكرة بالخارج. وقال فرنسيس في رحلة العودة "يجب أن تنضج

المسارات مثل الزهور والفاكهة". من خلال تحريك هذه المسارات وتعزيزها، تظهر الكنيسة الكاثوليكية اليوم، وسط هذا العالم الممزق، كلاعب جيوسياسي قوي وقادر على الإصلاح والتجديد بفضل القيم الأساسية والجامعة لمبدأ الأخوة. يجب تحليل هذه الوثيقة بوصفها ثمرة لروح العصر الفاتيكاني الثاني، كما أكد فرنسيس.

مجتمع كاثوليكي مهاجر يذيب الاختلافات

في اليوم التالي، 5 فبراير، حوالي الساعة 9.00، ذهب البابا إلى كاتدرائية القديس جوزيف، وهي واحدة من كنيستين كاثوليكيتين فقط في إمارة أبو ظبي (الأخرى هي كنيسة سان بولس في المصفح). يعود تاريخ الكنيسة الأولى إلى عام 1962 وتم بناؤها على طول الساحل، على قطعة أرض تبرع بها حاكم أبو ظبي. تستقبل الكنيسة المؤمنين الكاثوليكيين من جميع أنحاء العالم، حتى أن المراسم لا تقام باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية فقط، ولكن أيضًا بالتغالوغ والمالايالامية والسنغالية والأوردو والتاميلية.

كانت زيارة فرنسيس خاصة. أثناء التراتيل، دخل البابا وسط موكب وسار في الصحن الرئيسي للكنيسة. أعطته إحدى العائلات باقة من الزهور، وضعها هو على المذبح. بعد لحظة تأمل، بارك فرنسيس الحاضرين. استأنف بعد ذلك رحلته متوجهاً إلى الملعب لإقامة بالقداس. عند وصوله بالقرب من مدينة زايد الرياضية، قام بجولة وسط المؤمنين خارج الملعب وداخله. هذا الإستاد تم بناؤه في عام 1979 ، وبه 45000 مقعد، ويعد أكبر ملعب متعدد الأنشطة في الإمارات العربية المتحدة.

كانت المشاعر وأجواء الاحتفال بادية، داخل وخارج الاستاد، على وجوه 180 ألف شخص حاضرين، من المهاجرين الكاثوليكيين- الذين يشكلون 10٪ من السكان- والذين جاءوا إلى الإمارات للعمل. وحدهم الإيمان رغم اختلاف لغاتهم وطقوسهم. إن وحدة أشخاص ينتمون إلى حوالي 100 جنسية مختلفة هي إشارة مهمة، يصعب رؤيتها في مكان آخر.

حضر القديس المؤمنون الكلدان، والأقباط، واليونان الكاثوليكيون، واليونانيون الملكيون، واللاتينيون والمارونيون وأتباع الكنيسة الكاثوليكية والسيرانية-المالابارية والسيرانية-المالانكارية. كان هذا أكبر احتفال مسيحي شعبي على الإطلاق في شبه الجزيرة العربية. بينت صلاة المؤمنين أيضا تنوع جذور الكاثوليكين في البلاد، حيث قُرئت النوايا باللغات الكورية والكونكانية والفرنسية والتاغالوغية والأوردو والمالايالامية. وأقيم القديس باللغتين الإنجليزية واللاتينية. كما حضر المؤتمر 4000 مسلم ووزيرة التسامح.

خُصص اليوم للطائفة الكاثوليكية التي تعيش على تلك الأرض والتي تمثل في حد ذاتها قيمة خاصة للكاثوليكية بشكل عام. للكنيسة في شبه الجزيرة العربية خصوصية تتلخص في أنه في المدن الكبيرة في الخليج، يقوم لقاء خاص بين المسيحيين والمسلمين: يشكل مئات الآلاف من المهاجرين المسيحيين اليوم الوجه الجديد لشبه الجزيرة العربية. في حقيقة الأمر، يستحيل أن تتخلى دولة الإمارات عن العمالة الفلبينية والهندية. فالسكان المحليون أقلية.

ولهذا السبب أصدر شيخ أبو ظبي في عام 2015 قانونا لحماية جميع الأديان من الكراهية وعدم التسامح، شريطة ممارسة العقيدة بحكمة. في هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أنه، بسبب الطبيعة الاستثنائية لزيارة البابا، سُمح بالاحتفال بالقديس في مكان عام، في الهواء الطلق، وهو أمر يستحيل في العادة القيام به: كان هذا أيضا مستجدا تاريخيا. في الحياة اليومية يقوم المسيحيون بالاحتفال داخل الكنائس. أرادت الحكومة، بسبب الطبيعة الاستثنائية لزيارة البابا، السماح بهذا الاستثناء. بالإضافة إلى ذلك، مُنحت لعمال القطاع الخاص الذين حضروا القديس مع البابا عطلة مدفوعة الأجر.

تتميز كاثوليكية هذه الأراضي العربية بتعدد اللغات والثقافات والألوان، وقد نمت بطريقة غير منظمة، انطلاقا من المآرب الأساسية التي دفعت الكثيرين إلى مغادرة أوطانهم للبحث على وظيفة. هكذا تضم الأبرشيات، القليلة والمزدحمة دائما، أطيفاا مختلفة ذات لغات وطقوس مختلفة، ويُعمد فيها الآلاف سنويا. ترسل هذه الكاثوليكية

المتعددة الأعراق، المكونة من مهاجرين وأطياف متنوعة، رسالة قوية إلى الكاثوليكية بشكل عام في وقت تنتشر فيه الصراعات حول الهوية والهيمنة في العالم الغربي. ما هي رسالة فرنسيس لهذا المجتمع؟ الامتنان إلى هذه الكاثوليكية الفريدة والغنية، قال البابا: "أنتم تشعرون هنا بتراتيل الإنجيل، وتعيشون حماسة إيقاعه. أنتم جوقة تضم مجموعة متنوعة من الأمم واللغات والطقوس؛ تنوع يحبه الروح القدس ويريد له أن يتناغم أكثر فأكثر ليصبح سمفونية. إن تنوع الإيمان المبهج يعتبر بمثابة شهادة تقدمونها للجميع وتتأسس عليها الكنيسة".

في هذا الموقف يمكن للمرء أن يحيا روح التطويبات: "أن نحيا كمطوبين سالكين طريق يسوع لا يعني، مع ذلك، أن نكون سعداء دائما. أولئك الذين يتألمون، أولئك الذين يقاسون الظلم، أولئك الذين يعملون بجدية ليكونوا صانعي سلام يعرفون ماذا تعني المعاناة. من المؤكد أنه ليس من السهل عليكم أن تعيشوا بعيدا عن أوطانكم، حيث يتناوبكم الشعور بالقلق حيال المستقبل، بالإضافة إلى افتقادكم إلى المشاعر الأكثر دفئا. لكن الرب أمين ولا يتخلى عن أبنائه". أشار فرنسيس تحديدا إلى نوعين من التطويبات ينبغي تلمسهما: التأمل وأن نكون صانعي سلام. لئيلح المسيحي "بايمانه المتواضع وحبه الملموس" فقط؛ لهذا السبب هو أحد مظاهر وجود الله في العالم.

حوالي الساعة 12.00، بعد القداس، غادر البابا الملعب للتوجه إلى المطار، حيث كان ولي العهد في انتظاره ليودعه. بعد أن قام بتحية وفد الإمارات العربية المتحدة، كان هو آخر من صعد إلى الطائرة. أقلعت الطائرة صوب روما حوالي الساعة 13.00. لكن رحلة فرنسيس المقبلة إلى المغرب كان قد تم الإعلان عنها بالفعل، في الفترة من 30 إلى 31 مارس. إن "الجولة الثلاثية" التي تتألف من مصر والإمارات والمغرب- بخلاف الرحلات التي قام بها إلى تركيا وأذربيجان وبنغلاديش- توجه نداء قويا لخيالنا. كامتداد لذلك العناق الذي يعود إلى 800 سنة بين السلطان وقديس أسيزي.

في المغرب "الكنيسة تتحدث" 44

أنطونيو سبادارو

هبطت طائرة شركة أليطاليا وعلى متنها البابا فرنسيس، والمرافقون له، والصحفيون المعتمدون، في مطار الرباط- سلا، عاصمة المغرب⁴⁵، قبل دقائق قليلة من الساعة 14.00 ليوم 30 مارس. تقع المدينة على ساحل المحيط الأطلسي، في الجزء الشمالي من البلاد، عند مصب نهر بو رراق. استقبل البابا عند سلم الطائرة الملك محمد السادس وطفلان يرتديان زيا تقليديا، قدما له الزهور. بعد استعراض حرس الشرف، حيا البابا، برفقة الملك، رئيس أساقفة الرباط، المونسينيور الساليزياني كريستوبال لوبيز روميرو، قبل التوجه إلى الصالون الملكي، حيث قدم لهم التمر وحليب اللوز، في إيماءة ترحيب تقليدية.

انتقل البابا فرنسيس بعد ذلك إلى صومعة حسان، التي ترتفع حوالي أربعة وأربعين مترا، وتكتسي بالرخام وتتوزع بها الكثير من الأعمدة. يتخذ هيكلها شكل مئذنة، غير مكتملة، للجامع الذي أراد تشييده السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور. وهي ترتفع أمام ضريح محمد الخامس. وصل البابا والملك معًا مكان الحدث، في سيارتين مختلفتين، سيارة البابا وسيارة ليموزين مفتوحة. بعد مراسم الترحيب التي جرت وسط أمطار غزيرة، وصلا إلى المنصة لإلقاء خطابيهما الموجهين إلى الشعب المغربي، والسلطات، والمجتمع المدني، والهيئة الدبلوماسية.

ملك المغرب هو آخر ممثل للأسرة العلوية التي حكمت المغرب منذ عام 1666. وهو من أشد الداعمين للعملية الإصلاحية. قال متوجها إلى فرنسيس: "على مستوى تاريخي، يجمع لقائنا هذا بين الانفتاح والتلاقح الثقافي المتبادل، وهو رمز للتوازن.

44 العنوان الأصلي: الكنيسة تتحدث. الرحلة الرسولية للبابا فرنسيس إلى المغرب.

45 انظر سالي، "المغرب في عهد محمد السادس"، 2019.

نجتمع هنا بكامل رغبتنا، بين البحر الأبيض المتوسط والأطلنطي وعلى مسافة وجيزة بين المغرب وإشبيلية، حتى تكون هذه نقطة تبادل وتواصل روحاني وثقافي بين أفريقيا وأوروبا. أردنا أن تكون هذه الزيارة إلى المغرب علامة أمل ونقطة التقاء بين الإسلام والمسيحية". حملت هذه الزيارة أثر القيمة المركزية للوثيقة التي وقعها البابا فرنسيس وإمام الأزهر يوم 4 فبراير في أبو ظبي، أي- بتعبير الملك- "الأخوة التي تعلمناها من أبناء إبراهيم". إن عام 2019 بالنسبة للبابا هو عام "الأخوة"، كما أوضح في رسالته بعنوان المدينة والعالم في عيد الميلاد الماضي، مكرراً الكلمة 10 مرات.

فرنسيس هو البابا الثاني الذي يزور المغرب. زارها القديس يوحنا بولس الثاني في عام 1985. جاءت رحلة فرنسيس عندما كان وقع الهجوم الذي حدث في 15 مارس في نيوزيلندا لا يزال قويا، حيث قام متعصب أبيض بذبح 50 مسلماً أثناء الصلاة. قال البابا مخاطباً صاحب السيادة والجمهور "أجدد الدعوة لكي نتحد بالصلاة والسلام لمكافحة الكراهية والعنف". ثم أشار إلى اللقاء التاريخي بين القديس فرنسيس الأسيزي والسلطان الكامل قبل 800 عام، واعتبره علامة على "إعداد مستقبل أفضل للأجيال الجديدة". في زمن "تتحول فيه الاختلافات وسوء الفهم المتبادل، إلى أسباب للسجال والتشردم"، هناك "تحدي علينا أن نواجهه جميعاً". واستشهد بالوثيقة الموقعة في أبو ظبي، والتي أصبحت مرجعا للسلوك وطريقة ومعيارا للقاء يتجاوز "الحوار" البسيط ويحترم الاختلافات، وبالتالي يحترم الكرامة.

واصل البابا إدانته للتعصب والأصولية، وتحدث عن أزمة الهجرة الخطيرة، مشيراً إلى ضرورة "التوبة الإيكولوجية": وكلها قضايا شهدت دولة المغرب مؤخراً لكونها مقرا للاجتماعات الدولية. ولكن قبل كل شيء، أعرب عن قناعته الراديكالية: "أرحب بإقامة تضامن حقيقي بين الأمم والشعوب، من أجل إيجاد حلول عادلة ودائمة للآفات التي تهدد البيت المشترك وبقاء العائلة البشرية". فمن الظلم تأتي بذور الصراع. وهكذا اختتم فرنسيس خطابه الأول بتكرار ما يقوله دائماً إلى السلطات خلال رحلاته الرسولية حول دور المسيحيين في البلاد: "يريدون أن يقوموا بدورهم في عملية

بناء أمة متضامنة ومزدهرة، وهم حريصون على الخير العام للشعب". المسيحيون مدعون لأن يكونوا "خداما للأخوة الإنسانية، ومروجين لها ومدافعين عنها".

نداء عن القدس

في نهاية الاجتماع، انتقل البابا والملك إلى ضريح محمد الخامس، الذي يقع في ساحة برج الحسن. يرتفع الأثر المشيد من الرخام الأبيض، وسقف هرمي من البلاط الأخضر فوق قبر محمد الخامس، الذي يعتبر مؤسس الأمة المغربية الحديثة. تم بناء الضريح- على مساحة 1500 متر مربع- بأسلوب الفن المغربي بين عامي 1961 و1971 على يد المهندس المعماري الفيتنامي إريك فو توان. تحت القبة يوجد التابوت الملكي، من حجر الجزع الأبيض، الذي يحتوي على رفات محمد الخامس. في الزوايا، تقع مقابر الأمير مولاي عبد الله (1935-1983)، الابن الأصغر لمحمد الخامس، وشقيقه الحسن الثاني، الذي كان ملكا للمغرب من 1961 إلى 1999. بعد وضع تحية الزهور على المقابر، وقع البابا في دفتر ضيوف الشرف.

توجه بعد ذلك إلى القصر الملكي، أو دار شرم المخزن، المقر الرسمي والإداري لملوك المغرب منذ عام 1785، عندما جعل السلطان محمد الثالث من الرباط مدينة إمبراطورية، وبنى القصر، الذي هو في الحقيقة مدينة صغيرة تضم العديد من المباني العامة والحكومية ومكتبة تم إنشاؤها لاستيعاب مجموعة مخطوطات الحسن الثاني.

وبهذه المناسبة، اشترك الملك، بصفته رئيسا للجنة القدس، والبابا، معترفين بتقرد وقدسية القدس (أو القدس الشريف، كما تُدعى في اللغة العربية)، ومعترزين بأهمية القدس الروحية باعتبارها مدينة السلام، في النداء التالي: "إننا نؤكد أهمية المحافظة على مدينة القدس الشريف، باعتبارها تراثا مشتركا للإنسانية، وبوصفها، قبل كل شيء، أرضا للقاء ورمزا للتعايش السلمي بالنسبة لأتباع الديانات التوحيدية الثلاث، ومركزا لقيم الاحترام المتبادل والحوار. ولهذه الغاية، ينبغي صيانة وتعزيز الطابع الخاص للقدس الشريف كمدينة متعددة الأديان، إضافة إلى بعدها الروحي وهويتها الفريدة. لذا، فإننا نأمل أن نُكفّل داخل المدينة المقدّسة حرّية الولوج إلى الأماكن المقدّسة، لفائدة أتباع الديانات

التوحيدية الثلاث، مع ضمان حقهم في أداء شعائرهم الخاصة فيها، بما يجعل القدس الشريف تصدح بدعاء جميع المؤمنين إلى الله تعالى، خالق كل شيء، من أجل مستقبل يعم فيه السلام والأخوة كل أرجاء المعمور".

نذكر أنه في عام 1975 في مدينة جدة، شكلت منظمة المؤتمر الإسلامي لجنة القدس، بهدف الحفاظ على التراث الديني، والتنمية الثقافية والعمرانية للمدينة المقدسة. وقد عُقدت الجلسة الأولى برئاسة ملك المغرب. وأصبحت قضية القدس منذ ذلك الحين مهمة بالنسبة للمملكة.

وردا على سؤال من صحافية مغربية، أثناء رحلة العودة إلى روما، قال البابا إن هذا النداء "خطوة إلى الأمام لم تتخذها سلطة المغرب وسلطة الفاتيكان، بل قام بها إخوة. المؤمنون يعانون من عدم رؤية "مدينة الأمل" مدينة عالمية كما نريد لها جميعا: اليهود والمسلمون والمسيحيون. كلنا نريد هذا. ولهذا وقعنا على هذه الوثيقة: أكثر من كونها اتفاقا، هي وثيقة، ونداء إلى الأخوة الدينية التي ترمز إليها تلك المدينة التي هي "ملكنا" بالكامل. كلنا مواطنو القدس، كل المؤمنين".

لقاء مع الإسلام المغربي

قبل الخامسة مساء ذهب البابا لمعهد محمد السادس للأئمة والخطباء والواعظين. تأسس المعهد، الذي افتتح في عام 2015، ليكون ساحة علم تهدف إلى الترويج لإسلام يتجه نحو الحداثة، وينفتح على الأديان الأخرى، وعلى العالم، على النقيض من الصيغ العنيفة والأصولية الإسلامية. بعد الهجوم الإرهابي على مدينة الدار البيضاء عام 2003، بدأ محمد السادس بقوة في تدعيم معاهد التدريب والمكاتب الدينية ومراكز الأبحاث الإسلامية، للتخفيف من حدة الاتجاهات المتطرفة. وعلاوة على ذلك، واجه فكر إقصاء الشباب وتهميشهم وشرع في تجريم الإرهاب والأفكار التي تثير العنف.

يستقبل المعهد المئات من الأئمة والدعاة والوعاظ (المرشدين والمرشحات)، القادمين من أفريقيا وأوروبا (مالي والسنغال وساحل العاج وغينيا ونيجيريا وفرنسا،

إلخ)، ويدعم الأبحاث والتعاون بين المؤسسات الإسلامية المعتدلة، ويستضيف المؤتمرات، والندوات، وورش العمل المحلية والدولية.

يعبر المعهد عن نموذج الإسلام المغربي، الذي يعتمد على المدرستين المالكية والأشعرية، في القانون والشريعة، ويتأثر بالروحانية الصوفية. فقد تطور في سياق تاريخي لم يعرف الخلافة العثمانية، التي لم تصل إلى المغرب.

كان في استقبال البابا الملك ووزير الشؤون الدينية ومدير المعهد ورئيس مجلس العلماء. وبعد عرض فيديو للمعهد وكلمة طالبين، أقيم حفل قصير ذو وقع رمزي قوي. عُزفت "سلام عليك، يا مريم" التي كتبها جوليو كاتشيني (1551-1618). والأوبرا، التي أخرجها جان كلود كاسادسوس وأداها كورس محبي الموسيقى المغربية وعازفة البيانو دينا بنساي، غناها ثلاثة مطربين من ثلاث ديانات مختلفة (كارولين كاسادسوس، مسيحية، وسماحي الحاراتي، مسلم، وفرانكويس اطلان، يهودي)

دور الكنيسة في المجتمع

في ختام اللقاء توجه البابا إلى مقر كاريتاس الرباط الإبراشي. تدعم الكاريتاس في المغرب أكثر من 8000 مهاجر سنوياً، وتقوم بعملها بشكل أساسي على جهتين: الجهة الأولى هي مساعدة السكان المحليين، من خلال برنامج دعم المجتمع المدني المغربي، الذي يشجع الإنتاج الزراعي الأسري ويحاول تقديم أفضل الظروف المعيشية للأشخاص ذوي الإعاقة؛ والجهة الثانية هي مساعدة المهاجرين، من خلال برنامج قنطرة، أي "جسر" (بين المهاجرين والمجتمع المغربي).

كان في استقبال البابا عند المدخل الرئيسي رئيس أساقفة طنجة ومدير المقر. بعد الاستماع إلى كلمة ومشاهدة استعراضات قصيرة قام بها بعض الأطفال المهاجرين، ألقى البابا خطاباً حول "جرح كبير وخطير لا زال يمزق بدايات هذا القرن الحادي والعشرين. جرح يصرخ إلى السماء". بعبارات قوية وحاسمة، على الرغم من نبرتها المتألّمة، ذكر البابا أن "تقدّم شعوبنا لا يُقاس فقط من خلال التطوّر التكنولوجي أو الاقتصادي. هو يتوقّف قبل كلّ شيء، على قدرتنا بالانفعال وبالتأثر بفعل من يقرع على

الباب ويفضح بنظره جميع الآلهة الزائفة التي ترهن الحياة وتستعبدتها". الأفعال الأربعة التي استخدمها فرنسيس هي: "الضيافة والحماية والتعزيز والإدماج". وهم يصفون المواقف التي تمنع المجتمع من أن يصبح "عقيماً".

وقد عبر البابا عن إدانتين واضحتين، الأولى، إدانة ضد "تجار الأجساد البشرية" الذين يستغلون أحلام واحتياجات المهاجرين. والثانية، إدانة "أشكال الترحيل الجماعية التي لا تسمح بإدارة صحيحة للحالات الخاصة". واختتم البابا أن لكل شخص "الحق في المستقبل"، وكل منا مدعو ليكون "مرفأً ضيافة" للآخرين.

في صباح اليوم التالي، في الساعة 9.00، انتقل فرنسيس إلى مركز الخدمات الريفية، في تمارة، التي تبعد حوالي 20 كيلو مترا. يقوم بإدارة المركز - الذي أقيم بفضل مبادرة من يسوعي وطبيب فرنسي، يُدعى جورج كوتورييه- أبناء الخير وهو يقدم خدمات متعددة للسكان المحليين، كمحو أمية للبالغين، والدعم المدرسي للصغار، وروضة للأطفال من سن اثنتين الى سبع سنوات، والدعم النفسي للمحتاجين، والرعاية الطبية للمرضى، وخاصة ضحايا الحروق، الذين يتلقون المتابعة الصحية اللازمة.

قام باستقبال البابا عند المدخل الراهبات العاملات في المركز، والممرضة المسلمة. تحت المطر المستمر، رحب عشرات الفتيان والفتيات بالبابا فرنسيس وهم يلوحون بالأعلام الملونة داخل إحدى الصالات. بعد تحية الجميع، ترك البابا هدية لتكون ذكرى للزيارة: أيقونة العائلة المقدسة نازارت. وفي المقابل، نال كهديّة أغنية وداع غناها المئة وخمسون طفلاً المقيمين في المركز بدون موسيقى، وهم ينتظرونه في الخارج.

من تمارة ذهب فرنسيس إلى كاتدرائية الرباط المكرسة للقديس بطرس والتي تقع في وسط المدينة. التقى فيها بالإخوة والأخوات، وممثلي المجلس الكنسي المسكوني. كما حضر أيضا ممثلو مؤتمر أساقفة شمال إفريقيا الإقليمي وأساقفة من جنوب صحراء أفريقيا، إلى جانب أساقفة ضيوف آخرين.

الكنيسة كمثّل الخميرة

وشهد الاجتماع كلمة وتحية للأخت إرسيليا، التي تبلغ 97 عامًا، وأيضًا حضور الأب جان بيير شوماخر، وهو راهب يبلغ من العمر خمسة وتسعين عامًا نجا بأعجوبة من مذبحة رهبان تبهيرين، في الجزائر، عام 1996، وهو الآن في مجتمع سيسترسيان في المغرب. تم تطويب أقرانه الذين قتلوا، يوم 8 ديسمبر الماضي. احتضنه البابا، ومتأثرًا قام بتقبيل يده.

ثم ألقى البابا خطابًا كثيفًا، اقترح فيه "رؤية" حقيقية لدور الكنيسة اليوم. يجب أن نتذكر أننا نتحدث عن كنيسة صغيرة تتكون من 0.07% من السكان (حوالي 23000 شخص من أكثر من 100 دولة)، 2 أساقفة، 46 كاهنًا و180 شخصًا مندينيًا. ينبغي، بالأولى، أن نتناول المقاطع الأساسية لهذا الخطاب مرة أخرى.

نقطة البداية هي وضع المسيحيين في المغرب، الذين ذكروا البابا فرنسيس بسؤال عيسى: "ماذا يُشبه ملكوتُ الله وبماذا أُشبهه؟" [...] مَثَلُهُ كَمَثَلِ خَمِيرَةٍ أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ، فَجَعَلَتْهَا فِي ثَلَاثَةِ مَكَابِيلٍ مِنَ الدَّقِيقِ حَتَّى اخْتَمَرَتْ كُلُّهَا (لوقا ١٣، ١٨، ٢١). وبالتالي، فإن وضع المسيحيين "يشبه كمية الخميرة الصغيرة تلك" التي تريد الكنيسة الأم مزجها بكمية كبيرة من الطحين، حتى تتخمر الكتلة كلها.

يقترح البابا رؤية بديلة لتلك الموهوسة بالأعداد الكبيرة، وبالتالي بالنجاح المعطى "من خلال العدد أو كمية المساحة التي نشغلها". يسوع - يقول فرنسيس - لم يخرتنا ولم يرسلنا لنصبح الأكثر عددًا! بل دعانا للقيام بمهمة. لقد وضعنا في المجتمع كمثال هذه الكمية الصغيرة من الخميرة: "خميرة التطويات والمحبة الأخوية التي يمكننا فيها كمسيحيين أن نلتقي لنجعل ملكوته حاضرًا".

من هذا الخطاب، تظهر الكنيسة كالخميرة التي تتميز "بالقدرة التي نملكها على خلق التغيير والدهشة والتعاطف؛ من خلال الأسلوب الذي نعيش فيه كتلاميذ ليسوع وسط الذين نشاركهم الحياة اليومية والأفراح والآلام والمعاناة والرجاء". وبالتالي، فإن المهمة لا تتم عن طريق "أنشطة التبشير، التي تقود دومًا إلى طريق مسدود، وإنما من خلال أسلوبنا في التعاطي مع يسوع ومع الآخرين". فإن "طريقتنا" في هذا اللقاء ليست "اتباع

عقيدة ما، أو هيكل ما، أو جماعة عرقية. أن نكون مسيحيين إنما هو لقاء، لقاء بيسوع المسيح".

اللقاء مع يسوع هو "أن نعرف أنه قد عُفِر لنا ونعرف أننا مدعوون للتصريف بالطريقة عينها التي تصريف بها الله معنا لأنه "إذا أَحَبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّكُمْ تَلَامِيذِي"

يأخذ الالتقاء مع الآخرين شكل خميرة: "الحياة تقوم على قدرتنا على" التخمير، التعايش" هناك أينما نكون ومع من نكون. وبالتالي، فالمشكلة ليست في كوننا "قليبي العدد"، بل مشكلة كوننا "غير مهمين": بدون نكهة، وبضوء منطفئ. الخميرة والملح والضوء: هذه هي الصور الثلاث التي استخدمها فرنسيس ليصف حياة المسيحيين كما جاءت في الانجيل.

يسترجع البابا في ذهنه كلام القديس بولس السادس، الذي كتب في الرسالة الجامعة إيكليزيام سوام: "واجب على الكنيسة أن تدخل في حوار مع العالم الذي تعيش فيه: إنها تجعل نفسها كلمة، تجعل ذاتها رسالة، الكنيسة تجعل نفسها محادثة" (عدد 67). علق فرنسيس: "إن كان على الكنيسة أن تدخل في حوار فذلك بسبب أمانتها لربها ومعلمها الذي ومنذ البداية، إذ تحركه المحبة، أراد أن يدخل في حوار كصديق وأن يدعونا للمشاركة في صداقته".

"إنه حوار يصبح صلاة ويمكننا أن نحققه يوميًا" باسم «الأخوة الإنسانية» التي تَجْمَعُ الْبَشَرَ جَمِيعًا، وتُوَجِّدُهُمْ وتُسَوِّي بَيْنَهُمْ. باسم تلك الأخوة التي أرفقتها سياسات التَّعَصُّبِ والتَّفْرِيقَةِ، التي تَعَبَثُ بِمَصَائِرِ الشُّعُوبِ ومُقَدَّرَاتِهِمْ؛ صلاة لا تميّز ولا تفصل ولا تهتمّش، بل تصبح صدى لحياة القريب؛ صلاة تشفع قادرة على أن تقول للأب: "ليأت ملكوتك". لا بالعنف ولا بالحق ولا بالهيمنة العرقية والدينية والاقتصادية وهلم جرا، وإنما بقوة التعاطف التي أفيضت على الصليب لجميع البشر".

بفضل هذه الصلاة- تابع فرنسيس- "كشفت عن جميع المحاولات لاستعمال الاختلافات والجهل لزرع الخوف والحق والنزاع، وسلطتم الضوء عليها. لأننا نعرف

أن الخوف والحقد، إذا تمّت تغذيتهما وتمّ التلاعب بهما، يُفقدان جماعاتنا الاستقرارَ ويضعفانها روحياً".

كما نرى، يعين فرنسيس للجماعة المسيحية، بالتحديد بحكم الالتزام الديني، مهمة بناء المجتمع الوطني. وهذا الالتزام ليس مجرد قصة يجب تذكرها، ولكن هي قبل كل شيء "تاريخ عظيم يجب بناؤه".

قبل تلاوة صلاة تجسد الأحد بوقت قليل، صعد أربعة أطفال إلى المذبح: ثم قال البابا بالفرنسية هذه الجملة "ها هو المستقبل! الحاضر والمستقبل!"، متوجها بها لجميع الحضور، وتركهم يقفون إلى جواره أثناء الصلاة. في نهاية الاجتماع، أثناء عزف أحد الأناشيد، قام فرنسيس بتحية قادة مجلس الكنائس المسكوني، الذي يجمع الطوائف المسيحية الخمس الموجودة في البلاد: الكاثوليكية، والأنجليكانية، والإنجيلية، والأرثوذكسية اليونانية والروسية الأرثوذكسية. وهي تشكل معا الموافقة ("أي التفاهم")، وهو معهد لاهوتي تأسس في أكتوبر 2014 في مقر مركز التوثيق القديم، مركز المصدر في الرباط: أنشئ من أجل الحركة المسكونية والحوار مع الثقافة والإسلام، ويقوم بالتدريس فيه أساتذة كاثوليكيون وبروتستانت.

بعد ذلك تناول البابا فرنسيس الغداء مع أساقفة المغرب وبعض أعضاء الوفد المرافق في مقر السفارة الرسولية، وبارك فيه الغرف التي تم توسيعها وتجديدها مؤخراً. في وقت مبكر من بعد الظهر ذهب إلى مجمع الأمير مولاي عبد الله الرياضي، الذي سمي على اسم الابن الثاني لمحمد الخامس وشقيق الحسن الثاني. هنا احتفل بالقداس باللغة الإسبانية، بينما كانت اللغات المستخدمة في الطقوس الدينية هي العربية والفرنسية والإنجليزية.

قامت بالأداء جوقة تتألف من 500 عضو. وأظهر الـ 10000 المشاركون في هذا الاحتفال الوجه العالمي للكنيسة المغربية، التي تتكون بشكل أساسي من الأجانب: معظمهم من الشباب القادمين من وسط غرب إفريقيا. وكان بصحبتهم 700 طالب من المدن الجامعية في المغرب.

استوحى فرنسيس من موقف والد الابن الضال: "عندما كان لا يزال بعيداً، رآه والده، كان في قلبه رحمة له، فركض نحوه، وألقى بنفسه حول عنقه وقبله" (15، 20). يتناقض استقبال الأب مع موقف الابن الأكبر، الذي قد فقد أخاه "في قلبه": "في عدم قدرته على المشاركة في الاحتفال، هو ليس فقط لا يعرف أخاه، بل هو أيضاً لا يعرف والده. إنه يفضل أن يعيش يتيماً على أن يعيش أخاً، ويفضل العزلة على اللقاء، والحزن عن الاحتفال. هو ليس فقط لا يحاول فهم شقيقه ومسامحته، بل لا يمكنه تقبل أن يكون له أب قادر على الصفح، وعلى استعداد للانتظار والترقب لأنه لا يوجد أحد يظل مستبعداً دائماً؛ باختصار أب قادر على الشعور بالتعاطف والرحمة.

الطريقة الوحيدة للخروج من عقدة الحقد هذه، هي "النظر الى قلب الأب والتأمل فيه" والاستماع إلى كلماته: "كل ما هو لي هو لك"، أي- يوضح البابا - "حتى قدرتي على الرحمة". ومن هنا تنشأ الأخوة. وبالتالي، هي لا تنشأ بالتأكيد من انتماء الأبناء الذي يعتبر "مسألة قوانين وحظر، وواجبات والتزامات"، ناتجة عن "التطوع أو القوانين أو النسبية أو التكاملية"، ولكن من اتخاذ العبرة من موقف تعاطف الأب.

"يجب أن نكون واقعيين مثاليين"

بعد القداس والتحيات، انتقل البابا إلى مطار الرباط -سلا حيث أقيم حفل الوداع. وكان في استقباله مندوب عن الملك عند مدخل الصالون الملكي حيث مكث لبضع دقائق. ثم في الساعة الخامسة والرابع أقلعت الطائرة البابوية إلى روما.

خلال المؤتمر الصحفي على متن الطائرة، قدم فرنسيس بعض المفاتيح لفهم الرحلة التي انتهت للتو. ورداً على الأسئلة، ذكر أيضاً الرحلة إلى أبو ظبي. وعبر عن وعيه بأن ضمير كل المؤمنين سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ينمو. من الواضح أن حرية الضمير والحرية الدينية هي حقوق خاصة بكل شخص. ولكن لم يكن الأمر دائماً هكذا. وأشار فرنسيس إلى الوعي المتزايد للكاثوليكين حول أهمية الحرية الدينية، وكذا الإدانة اللازمة لعقوبة الإعدام. وهكذا "الإخوة المسلمون ينمون هذا الوعي أيضاً" بحرية العبادة والحرية الدينية.

يدرك البابا أن خطابه ونهجه يشيران إلى مستقبل غير مكتمل بعد. وتحدث عن "الزهور" التي شوهدت بالفعل: "الثمار لا تُرى، ولكن تُرى العديد من الزهور التي ستؤتي ثمارها. دعونا نسير على هذا النحو".

إنه يعلم أنه ستكون هناك صعوبات كثيرة بسبب "الجماعات المتشددة". ولكن لأجل هذا قال: "يجب ألا نستسلم!". فقد انطلق البابا من الواقع وجمع البذور الإيجابية كي يروبها ويعتني بها. وتجاهل النهج المثالية التي، وإن كانت تعيد تأكيد المبادئ، إلا أنها لا تساعد على الاستمرار في المسار. إن موقفه هذا يطابق الذي دعا إليه محمد السادس في خطابه الترحيبي: "يجب أن نثبت المثالية والواقعية، يجب أن نكون واقعيين مثاليين".

وفي حديثه عن الجسور التي سيتم بناؤها والجدران التي ستهدم، حذر البابا فرنسيس قائلاً إن: "أولئك الذين يبنون الجدران سينتهي بهم المطاف ليكونوا سجناء الجدران التي بنوها، بينما أولئك الذين يبنون الجسور سوف يسيرون الى أبعد من ذلك بكثير". واقتبس عن الكاتب إيفو أندريو في روايته الجسر على درينا: "الجسر صنعه الله بأجنحة الملائكة حتى يتمكن البشر بين الجبال وضياف النهر من التواصل مع بعضهم، وحتى يتمكن البشر من التواصل مع بعضهم البعض. يقام الجسر لأجل التواصل البشري".

تأملات في وثيقة أبو ظبي*

فيلكس كورنر

وقع البابا فرنسيس والإمام أحمد الطيب في 4 فبراير 2019 على وثيقة تفاهم مشتركة في أبو ظبي. إن نص وثيقة الأخوة البشرية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك⁴⁶ يستحق التعليق من وجهة نظر اللاهوت الكاثوليكي ومن منظور الدراسات الإسلامية⁴⁷. مع ذلك يجب علينا أولاً إبداء بعض الملاحظات حول السياق. وقعت بالفعل نصوص مماثلة في الماضي. أبرزها الوثائق الختامية للندوات الأربع للمنتدى الكاثوليكي الإسلامي التي عُقدت في الأعوام 2008 و2011 و2014 و2017، ولكن هذه المرة، على عكس ما سبق، لم تكن الوفود هي التي قامت بالتوقيع على الإعلان، بل البابا نفسه وقائد ديني إسلامي. لذا فالأمر يتعلق بكلمات ذات ثقل من حيث محتواها وليس فقط من حيث الصياغة.

من وقّع من الجانب الإسلامي؟

منذ إلغاء الخلافة في عام 1924، لم يعد هناك ممثل للإسلام ذو صيت عالمي (على الأقل في العالم السني). الطيب إذن ليس كذلك. لكنه يتولى أحد أهم المهام في العالم الإسلامي: فهو شيخ الأزهر. وبعبارة أخرى، هو الإمام الأكبر للجامع-جامعة الأزهر، وهي مؤسسة ذات تأثير كبير دينياً وأكاديمياً، وتوجد في القاهرة وتقع في القلب من شبكة تعليمية دولية. منصب الإمام الأكبر، الذي تعينه الحكومة المصرية، هو منصب يمتد لمدى الحياة.

*العنوان الأصلي: "الأخوة الإنسانية. تأملات في وثيقة أبو ظبي".
⁴⁶ "الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك" أبو ظبي، 4 فبراير 2019، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2019، I، 391-399.
⁴⁷ منقول بتصرف عن أ. سبادارو، "حراس الأخوة في الليل". الرحلة الرعوية لبابا فرنسيس في أبو ظبي، نفس البيانات، (2019)، I، 467 - 477.

ولد الطيب عام 1946، وأكمل دراسته الكلاسيكية في الأزهر، وحصل على درجة دكتوراه أوروبية من جامعة السوربون بباريس. أصبح الإمام الأكبر في عام 2010. وقد دعا مرارا إلى تحديث الخطاب في الإسلام. ينبغي أن يُفهم إعلان معارضته للتنوير وعلنة الدولة في إطار كون هذين المصطلحين يعادلان بالنسبة له محاولة استبعاد الدين من الحياة العامة وقبول سيطرة الحكام على الحياة الدينية. الطيب يؤيد فكرا إسلاميا أكثر انفتاحا من حيث المضمون والشكل: في هذه المرحلة لا يمكن التشكيك في موقفه، لأنه أظهره بشجاعة مستضيفا المجددين الإسلاميين في القاهرة للتشاور، على الرغم من أن هذا وضعه موضع انتقاد. نشأت علاقة ود بين أحمد الطيب والبابا فرنسيس. وقد شوهد هذا بالفعل خلال زيارة الإمام الأكبر للفايتيكان (23 مايو 2016)، وزيارة البابا إلى القاهرة في (28 و29 إبريل 2018).

وثيقة "قيد التنفيذ"

قبل قراءة الوثيقة، دعونا نشير إلى بعض الملاحظات حول أصلها. توجد تصريحات أربعة للبابا فرنسيس على مر الأعوام دالة على أن هذه الوثيقة المشتركة لم تولد من فراغ. بعد فترة وجيزة من انتخابه، قال البابا إنه ينبغي أن تكون الكنيسة كـ "مستشفى ميداني"⁴⁸. بمعنى آخر، تتجه الأولوية اليوم إلى الجرحى الكثيرين. في وقت لاحق، نظر فرنسيس خلال إرشاد الرسولي فرح الإنجيل، نحو "المدينة". وقد كتب، أنه يراها كمكان يعيش فيه الله، يسكن بين المواطنين ويشجع على التضامن والأخوة بينهم (منقول بتصرف من فرح الإنجيل 71). خلال رحلته الرسولية إلى القدس عام 2014، في زيارة إلى المفتي الأكبر، وجه البابا نداء عاجلا في أربع نقاط: "دعونا نحترم ونحب بعضنا البعض كإخوة وأخوات! دعونا نتعلم تفهم ألم الآخر! لا يستغل أحد اسم الله في العنف! دعونا نعمل معا من أجل العدالة والسلام!"⁴⁹ بعد أيام قليلة، يوم الخميس، استقبل فرنسيس الزعيم الفلسطيني محمود عباس، ثم الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في

⁴⁸ نفس المؤلف، "مقابلة مع بابا فرنسيس"، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2013، III، 461.

⁴⁹ فرنسيس، زيارة إلى مفتي القدس الأكبر، 26 مايو 2014.

حدائق الفاتيكان، وتحت سماء صافية ومشرفة، ذكّر جميع السياسيين بالمسؤولية التي تقع على عاتقهم أمام الله. كسر دوامة الكراهية. قال: "يمكن فعل ذلك بكلمة واحدة: "أخي". ولكن لكي نقول هذه الكلمة، يجب علينا جميعاً أن ننظر إلى السماء وأن نعترف بأنفسنا كأبناء لأب واحد"⁵⁰. هذه هي الخلفية التي يجب وضعها في الاعتبار عند قراءة وثيقة 2019، وهي السنة التي تحل فيها ذكرى مرور 800 للاجتماع بين فرنسيس الأسيزي والسلطان الأيوبي الملك الكامل.

عنوان الوثيقة وموضوعها

عنوان الوثيقة يركز على "الأخوة البشرية". إن الحديث عن "الأخوة" يثير تساؤلاً لا هوتياً: هل يعتبر تسمية الناس من الديانات الأخرى "إخوة" و "أخوات" جزءاً من التقليد الكاثوليكي؟ يحذر يسوع صراحة من الاستخدام غير الصحيح الذي يهدف إلى المطالبة بالامتيازات: "لأن من يفعل مشيئة أبي الذي في السماوات، فهو أخي وأختي وأمي" (متى 12.50). تحت رسالة بطرس الأولى للمسيحيين على "أكرموا الجميع، أحبوا الإخوة" (1 بطرس، 2،17). قرب انتهائه من الرسالة العامة "على الأرض السلام"، توجه يوحنا الثالث والعشرون إلى المسيح بصلاة ملحّة لكي يعم السلام. وفيها يقول: "وهكذا يقوم بفضله بين شعوب الأرض كلها مجتمع أخوي حقيقي" (بطرس 91). أثنى المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، في الموضوع الأساسي للدستور الرعوي فرح ورجاء (GS) Gaudium et spes، على عمل المؤسسات الدولية كأداة للتنمية والمصالحة، موضحاً: "وإن الكنيسة لتسر لروح الأخوة الحق الذي يأخذ في الازدهار بين المسيحيين وغير المسيحيين في كل المجالات، ويدفعهم إلى مضاعفة الجهود المتواصلة بغية التخفيف من الشقاء الشاسع" (GS 84).

والدستور الرعوي نفسه، في عرضه لمخلص رؤيته في الخاتمة، يؤكد على أن الكنيسة تنوي "مساعدة البشر في عصرنا، حتى يدركوا إدراكاً واضحاً كمال دعوتهم، سواء آمنوا بالله أو لم يعترفوا به صراحة، فيجعلوا العالم أكثر مطابقة لكرامة الإنسان

⁵⁰ "دعوة للسلام" بابا فرنسيس والرئيس شيمون بيريز ومحمود عباس في حدائق الفاتيكان، 8 يونيو 2014.

السامية وينشدوا أخوة شاملة، تركز على أساسات أعمق، ويلبوا نداءات عصرنا الأشد إلحاحًا، مدفوعين بالحب والسخاء والجهود المشتركة". (GS91).

قبل ستة أسابيع بالفعل، في نهاية وثيقة في عصرنا (NA) حول علاقات الكنيسة مع الأديان غير المسيحية، كان المجلس قد صرح بعبارات مماثلة: "لا نستطيع أن ندعو الله أبا للجميع إذا رفضنا أن نسلك مسلكاً أخوياً تجاه الناس المخلوقين على صورة الله". (NA5).

منذ ذلك الحين، لعبت "الأخوة" دوراً إرشادياً في العقيدة الاجتماعية الكاثوليكية، إلى جانب "التضامن" غالباً، كمفهوم مكمل له، وأيسر في التفسير من وجهة النظر اللاهوتية.

قال يوحنا بولس الثاني في باريس إن الأخوة ليست بأي حال من الأحوال ثمرة حصريّة لحركة التنوير. وأكد على المكانة العالية التي تتمتع بها "الحرية والمساواة والأخوة" في الثقافة الفرنسية، وأضاف: " في الأساس هذه هي مبادئ المسيحية" Au fond, ce son – là dès idée chrètiennes⁵¹.

في الرسالة العامة المحبة في الحق Caritas in veritate (CV) ذكر البابا بينديكت السادس عشر تعاليم يوحنا السادس وكان محتواها "المثال المسيحي المنادي بعائلة تجمع شمل الشعوب وتجعلهم متضامنين في الأخوة" (CV13). كان تعبير الأخوة العالمية Fraternité universelle قد ظهر في كتاباته قبل أربع أعوام، بعد تطويب تشارلز دي فوكوولد مباشرة، الذي كرس حياته للخدمة بين المسلمين وأصبحت ترتبط به عبارة: "المسيح يدعونا إلى الأخوة غير المحدودة".⁵²

إن الحديث عن الأخوة، وخاصة تجاه المسلمين- "أخ للجميع" هو تعبير نموذجي خاص بالتعاليم الروحية للفرنسيسكان- هو بالتالي جزء لا يتجزأ من التقاليد الكاثوليكية منذ يوحنا الثالث والعشرين وما بعده. ولكن كيف ينظر المسلمون إلى ذلك؟ إنهم بدورهم

⁵¹ يوحنا بولس الثاني، القداس الإلهي في لو بورجي، باريس، 1 يونيو 1980.

⁵² بينديكت السادس عشر، كلمة التحية في نهاية الاحتفال، 13 نوفمبر 2005.

يستخدمون صيغا متشابهة، لكنهم لا يقومون بالتعبير عنها من منطلق أننا جميعا أبناء الله. في الواقع، هم لا يسمون الله "أب" لأن المصطلح يبدو بشريا للغاية بالنسبة لهم. في القرآن، يعطي آدم وحواء دليلا على ذلك: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (سورة الحجرات: 13). بما أن جميع البشر لهم نفس الأصل، فنستنتج من نفس الآية أن البشر جميعهم سواسية: الكرامة لا ترتبط بالنسب الأعلى، بل بحقيقة أنه "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

هيكل الوثيقة

بعد أن قمنا بتوضيح الدافع الأساسي للأخوة، الذي يظهر من العنوان، ننتقل الآن إلى النص. كيف يكون هيكله؟ تحدده المقدمة تحت ثلاثة أطر: اللاهوت والتحليل والإطار الشخصي.

الإطار اللاهوتي يقر أنه من خلال الإيمان بالله، يشعر الناس أن الآخرين إخوة وأخوات؛ بسبب الكرامة التي منحها الله لكل مخلوقاته، نحن مدعون لحماية ومساعدة من هم على شاكلتنا من الخلق. يُقرأ *حاضرنا* بوصفه عصر تقدم إيجابي، لكنه منكوب أيضا بخبرات لا إنسانية قوامها الفقر والحرب. لا يمكن تفسير هذا التباين إلا بإسناده إلى التدهور الاجتماعي، والأخلاقي، والسياسي الذي وصل إلى حد الإرهاب. يتسم السياق الذي تنشأ عنه الوثيقة بطابع شخصي: يأتي من الحوار بين الزعيمين. إنه دعوة موجهة إلى جميع المؤمنين كي يتعاونوا معا لدعم ثقافة الاحترام.

نصل بعد ذلك إلى النص الرئيسي، وهو مقسم إلى ثلاثة أجزاء، يمكننا تعريفها على هذا النحو "أفاق المسؤولية"، "الرسالة"، "التوصيات".

أفاق المسؤولية

كما هو حال القسمين الآخرين، يتكون هذا الجزء الموجه لفكرة "أفق المسؤولية" من عنصرين. تظهر عبارة "باسم الله..."، الموجودة في *البسملة* الإسلامية وفي العديد من الصيغ الكتابية والتقليدية المسيحية. كل من يتكلم بهذه الطريقة يستودع الله ما ينوي

قوله، ويطلب حمايته ويعبر عن رغبته في أن كل ما سيقوله يوافق إرادته. هنا يتم استدعاء الله باعتباره الشخص الذي خلق الإنسانية وأمر الإنسان ليكون صالحا. بعد هذا الاستهلال، تم استخدام عبارة "باسم..." عشر مرات أخرى. لا يعي المؤلفان أنهما يتحدثان أمام الله فقط، بل أرادا التواصل أيضا، من خلال الأفعال، مع البشر في معاناتهم، والبشر في قيمهم. تلخص العبارة الأخيرة كل هذا بشكل ممنهج في صورة التزام شخصي: ينبغي أن يكون "المسار" المشترك في المستقبل هو ثقافة الحوار. ينبغي أن يكون "السلوك" العام متسما بالتعاون المشترك؛ يجب أن تكون المعرفة المتبادلة هي "المنهج والمعيار".

بقراءة النص بهذه الطريقة، يتردد صدى دعوة فرنسيس، خلال زيارته إلى القدس، "إلى استيعاب آلام الآخرين"⁵³. أينما يدور الحوار عن "المعرفة المتبادلة"، نجد في النص العربي "التعارف"، وهو مصطلح أشير إليه في الآية القرآنية التي سبق ذكرها: بسبب الأصل المشترك يمكننا أو ينبغي علينا أن "نتعارف" (سورة الحجرات: 13).

الرسالة

عند هذه النقطة، تظهر جلية أفكار وثيقة الأخوة. ينبغي على جميع الأشخاص الذين يمكنهم التأثير على العالم أن يتذكروا أن الإنسانية عبارة عن عائلة واحدة. لذا ينبغي أن ينتهي الدمار الذي هو من صنع الإنسان في أقرب وقت ممكن: الدمار الناجم عن الحرب، والإضرار بالبيئة، والتدهور الثقافي والأخلاقي.

لكن هدف الرسالة لا يتلخص في قائمة المتطلبات هذه. نجد فيما بعد جزءا تحليليا ذا أهمية كبيرة. لا يتوقف المؤلفان عند التأمل فيما هو صالح فقط، ولكنهما يتساءلان أيضا عن أسباب وجود الشر. هنا لا نجد أية اتهامات سطحية معممة؛ بل على النقيض، يأخذ البابا فرنسيس والإمام الأكبر الطيب في الاعتبار الخطوات الإيجابية للتطورات الحالية. لكن نظرتهمما- في البحث عن مصادر المعاناة التي يتسبب فيها الإنسان لنفسه- قبل أن يمتد الحديث إلى الأزمات السياسية والتوزيع غير العادل للثروات، تتجه نحو

⁵³ فرنسيس، زيارة إلى مفتي القدس الأعلى، منقول سابقا.

العمق، أي نحو الضمير الإنساني: كثير من القرارات اليومية يمكن تفسيرها من خلال اختفاء "الشعور بالمسؤولية".

ألحق الزعيمان هذا التفسير بشرح عميق. أينما تكون الحياة الخاصة والعامّة وعمليات صنع القرار غير واعية بالمسؤولية الواقعة على عاتق الإنسان، يقع الناس فريسة لليأس. وهذا بدوره سيقودهم إلى طريقتين: إما فقدان الثقة في أي مرجع ديني (يتبادر إلى الذهن وحشية الشموليات الملحدة غير المحدودة)، أو تبني التطرف الديني الذي يمكنه أن يكون مدمراً أيضاً⁵⁴.

يتبع التشخيص اقتراح العلاج. الركيزتان اللتان يبني عليهما الطبيب وفرنسيي رؤيتهما للمستقبل هما الأسرة والدين. أعلننا هنا أن "الأديان لا تحرض أبداً" على العنف. قد يبدو البيان ساذجاً؛ في الواقع، يُظهر الزعيمان أنهما يعرفان جيداً كم من الدماء سُفكت باسم الدين، وبمنتهى البساطة. لكنهما يميزان بين "حقيقة" الدين و"استغلاله". وهما يدينان إساءة استخدام اسم الله لتبرير العنف، واستعانة بحجة لاهوتية قوية وذات مغزى: "الله- عز وجل- لا يَحْتاجُ لِمَنْ يُدَافِعُ عنه أو يُرْهَبُ الآخَرين باسمه".

التوصيات

وبعد التأكيد على هذه القناعات، ينتقل النص إلى خاتمته، وتتكون من سلسلتين من الشهادات الحية، أو ما نسميه بدقة "التوصيات". أولاً، تم تقديم 12 أطروحة قانونية-سياسية؛ ثم أشار الزعيمان إلى الكيفية التي يرغبان في استخدام الوثيقة بها. على أي شيء تنص الأطروحات الـ 12؟ هذا ما سنلخصه هنا بإيجاز، بتعليق إيجابي أولاً، ثم بقراءة نقدية ثانياً.

⁵⁴ في هذا السياق، بجانب مصطلح "الأصولية"، يستخدم مصطلح آخر أقل شيوعاً وهو "شمولية". وهي عبارة عن منظور ديني يمكن بموجبه للدين وحده أن يجيب على كافة التساؤلات، ويمكنه أن يحدد كل مجال من مجالات الوجود. بينما على الضفة المقابلة توجد مفاهيم مثل "الحوار" والاعتراف "باستقلال الحقائق الأرضية" استقلالاً الزمناً. فرجاء (GS) (36).

- 1- تعزز الأديان الأخوة. هنا يوظف المؤلفان تجانسا اصطلاحيا يطرح الاختيار بين الأنانية أو التضامن الذي تدعو إليه الأديان. وهما يستخدمان التباين بين "قانون القوة وقوة القانون" (قانون القوم/ قوم القانون).
- 2- حرية الدين والمعتقد مصونة لكل إنسان، وتجد تبريرا لها في الإيمان.
- 3- الدمج بين العدل والرحمة وحده يحقق ظروف حياة آدمية للإنسان.
- 4- لا يمكن حل مشاكل العالم إلا من خلال الحوار.
- 5- يجب أن يتم الحوار بين الأديان في إطار لقاء حول القيم المشتركة والحض على عمل الخير وتجنب "المناقشات غير البناءة".
- 6- ينبغي أن تتمتع جميع أماكن العبادة بالحماية القانونية والدينية. ولا يجوز بأي حال من الأحوال مهاجمتها لأسباب دينية واهية.
- 7- حتى على لسان الأديان، ينبغي إدانة الإرهاب دون تردد.
- 8- لكل فرد حقوق متساوية. لا يحظى الأفراد بالحقوق بسبب انتمائهم إلى فصيل بعينه، إلى دين ما أو مجموعة عرقية ما على سبيل المثال: يؤدي هذا عادة إلى ظهور مصطلح غير مرغوب فيه وهو فئة "أقلية". بدلا من ذلك، ينبغي الاعتراف بأن لديهم حقوقا لأنهم مواطنون.
- 9- يمكن للثقافات المختلفة، في الواقع، أن تثري بعضها البعض. ولكن يجب علينا أيضا أن نرفض ذلك الثقافة الذي، بسبب انطلاقه من تقاليد بعينها، يريد تبرير ما ينتهك بالفعل حقوق الإنسان. ومع ذلك، لا ينبغي حتى استخدام هذه الحقوق للكيل بمكيالين. ربما يشير المؤلفان هنا إلى إدانة الهجمات الفلسطينية التي أعلن عنها في نفس الوقت الذي تمت فيه الموافقة على المستوطنات الإسرائيلية.

12/11/10- الأطروحات الثلاث الأخيرة تصيغ حقوق فئات معينة من البشر،

وهي النساء والأطفال والمسنين والمعاقين.

يختتم الزعيمان نصهما بالتطلع إلى المستقبل. عبرا، في هذا الصدد، عن ثلاثة أشياء: أولاً وقبل كل شيء هناك ما "يعدان به"؛ و"ما يطالبان به"؛ وأخيراً ما "يأملانه". يعدان بالالتزام شخصياً بنشر الإعلان ومحتوياته؛ ويطالبان بأن يتم دمجهم ضمن برامج التعليم؛ ويأملان في أن يتم قبوله بشكل صحيح، أي كدعوة للمصالحة، ونداء لكل ضمير، ودليل على الإيمان بالله، وأخيراً كإيماءة تقارب ودود، أو كما يقال حرفياً، "عناق" بين الشعوب المختلفة.

وثيقة محط للهجوم

أثارت وثيقة أبو ظبي جدلاً منذ نشرها. فهناك من يشيد بها كإيماءة تفاهم مهمة للغاية، يتم التعبير عنها على أعلى مستوى، وهناك أيضاً من ينتقدها. قرأنا الوثيقة قراءة متفحصة برفقة الطلاب والخبراء المسلمين والمسيحيين في القدس وروما. نعرض الآن أكثر النقاط التي تعرضت للانتقاد، مجيبين على الاعتراضات التي أثيرت.

يقول البعض أن الوثيقة لا تدعم بنودها باقتباسات من الكتب المقدسة. ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن المسيحيين لا يعترفون بالقرآن كجزء من شرائعهم أو كنقطة انطلاق لتفسير لاهوتية. من ناحية أخرى، ينظر المسلمون إلى الكتاب المقدس بطريقة مماثلة: إنهم يدركون أن موسى وداود ويسوع قد أنزلت عليهم "كتب" موحى بها من الله، ولها فعليا نفس محتوى القرآن، ولكن ما يوجد في الكتاب المقدس المسيحي اليوم لا يتوافق عقائدياً مع ما أوحى به (راجع سورة البقرة 75). من المفترض أن تكون الوثيقة "إعلاناً مشتركاً عن إرادة حسنة وصادقة". كانت أية اقتباسات صريحة من الكتب المقدسة في دين أو آخر ستشكل عقبة أمام هذه الغاية. ومع ذلك، يظهر النص في انسجام تام مع الكتب المقدسة.

يقال إن الوثيقة تكتسب مغزى فقط حين يؤخذ في الاعتبار لاهوت الخلق. يأتي هذا الانتقاد من الخوف من أن يقوم الحوار بين الأديان على لاهوت طبيعي بحت، أو أن

يجد تعبيراً عنه فقط تأسيساً على ما يمكن استخلاصه من الطبيعة والمنطق. سيستبعد منه، إذن، الرؤية المستقبلية للجنس البشري، والفداء، والمستجدات التي دخلت إلى العالم من خلال عهد الله مع إسرائيل، وفي المسيح. وفي هذا الصدد، ينبغي إبداء ملاحظتين. بما أن المؤلفين أرادا كتابة نص يقبله المسلمون والمسيحيون على حد سواء، فلم تُذكر الاختلافات بين الديانتين. ومع ذلك، تشير الوثيقة بالتأكيد إلى المصير البشري بالمصطلح المناسب "نداء". وفيه يأتي تصرف الله الحر والشخصي والجديد دائماً في المقدمة، كما تفعل أيضاً استجابتنا الفردية والحرّة.

الاعتراض الآخر هو أن الوثيقة ستختصر، بتصرف تنويري، الأديان في قيم أخلاقية. تعتبر رسالة الأديان، بالنسبة لفرنسيس والطيب، توجهاً واضحاً لعمل الإنسان. لكن "هَدَفَ الأديانِ الأوَّلَ والأهمَّ هو حَتُّ جميعِ البَشَرِ على الإيمانِ بأنَّ هذا الكونَ له إلهٌ يَحْكُمُهُ". صحيح أن المؤلفين يستخدمان بعض المصطلحات التي تنتمي لفكر التنوير الأوروبي: هما يتحدثان عن "الأخوة" و "الكرامة الإنسانية" و "حقوق الإنسان" و "المواطنة". ومع ذلك، فإن "أخوة" جميع البشر ليست مجرد فكرة تنويرية، ويمكن أيضاً تفسيرها على أساس قرآني وتوراتي، كما أوضحنا سلفاً. يعتبر استخدام "حقوق الإنسان" بطريقة صحيحة في حد ذاته خطوة مهمة إلى الأمام. يظن المسلمون أحياناً أنه ينبغي عليهم رفض الطابع الملزم عالمياً لمفهوم حقوق الإنسان بسبب سوء فهم: هم يؤكدون أن الله لديه حقوق أكثر من البشر⁵⁵.

من وجهة نظر لاهوتية، يمكننا تأكيد أن الفكرة الأساسية لحقوق الإنسان تتوافق تماماً مع إرادة الله، لأنها تحمي البشر من ادعاءات سلطة بعضهم على بعض لأنهم جميعاً مخلوقات الله. من منظور إسلامي يمكن شرح مفهوم "كرامة" كل إنسان في ضوء الآية القرآنية التي يقول الله فيها: "لقد كرمنا بني آدم" (سورة الإسراء: 70). ولكن أولاً، ينبغي التأكيد على ذكر المواطنة، وهو أمر مهم للغاية في المناقشة القانونية الإسلامية القائمة.

⁵⁵ منقول بتصرف. ف، كونراد "الإسلام وحرية الدين. نقاط التماس والنصوص الرئيسية والحلول" في م. باوميشتر - م. بوهينكل - م. هيمان برانش شتاين، حقوق الإنسان في الكنيسة الكاثوليكية. المنظورات التاريخية والمنهجية والعملية، بادربورن، ف. شونينج، 2018، ص. 206.

كان إعلان مراكش (27 يناير 2016) أول وثيقة دولية وقعتها علماء المسلمين، واستخدموا فيها مصطلح "مواطنة". يتعلق الأمر بمصطلح مستحدث يحاكي المصطلح الفرنسي *citoyenneté*. تحدث أحمد الطيب عدة مرات مؤكداً على المواطنة، بما يتعارض مع التطبيق الحديث للحكم القرآني عن *النمة*. وينص هذا الأخير على أن أعضاء الديانات الأخرى مثل المسيحية يُمنحون الحماية شريطة دفع الجزية، ولكن الحقوق تبقى غير متساوية (انظر سورة التوبة: 29).

يدعم الإمام الأكبر فكرة أنه لا ينبغي تطبيق هذا الحكم اليوم، لأنه يأتي من سياق قانوني وسياسي عفا عليه الزمن. في الواقع، مصطلح "المواطنة" هو مصطلح حديث- يستخدم أيضاً بغض النظر عن سياق الثورة الفرنسية- يشير إلى أنه من الممكن للحياة الدينية أن تعاش دون التعارض مع المبادئ القانونية الحديثة، وفي سياق، يتوجب على كل دولة فيه أن تكفل لكل مواطنيها نفس الحقوق في الحرية، بدلاً من معاملة الناس وفقاً لانتمائهم إلى فصائل معينة.

قال أحدهم إن الوثيقة ستكون "وجودية"، مهاجماً الصيغ التي تضع "الدين" في جوهره في مواجهة تفسيره الخاطئ والاستغلال السيء لمفاهيمه. في الواقع، لا يوجد في أي مكان تعريف غير خاضع للجدال لجوهر "الدين" أو ماهية "تعاليمه الحقيقية"، كما تسميها الوثيقة. لكن المؤلفين هنا لا يريدان وصف المسيحية والإسلام من منظور تاريخي أو اجتماعي؛ بل يقدمهما فرنسيس والطيب، بالأحرى، من جانب الأحكام، بوصفهما عالمي لاهوت. يريد الزعيمان التحدث كمعلمين للإيمان، عندما يقولان أن من يمارس العنف باسم الله هو مخطئ⁵⁶. لا تريد وثيقة الأخوة أن تجادل باستخدام مصطلحات فلسفية: بل تحاول بوضوح منع استغلال الدين.

⁵⁶ كما تحدث البابا بينديكت السادس عشر في هذا الصدد في أسيزي، قائلاً: "إن انتقاد الدين، انطلاقاً من عصر التنوير، قد شدد دوماً على أن الدين هو سبب العنف، وبهذا الشكل أسهم في تعزيز العداوة نحو الأديان...". ليست هذه طبيعة الدين الحقيقية. بل هي تشويه يسهم في تدمير الدين. ولكن يتم الاعتراض على هذا الأمر: ولكن أنى لكم أن تعرفوا ما هي طبيعة الدين الحق؟ ولم يجيب البابا بينديكت على التساؤل، لكنه أشار إلى "الحوار بين الأديان". منقول بتصرف عن بينديكت السادس عشر، مداخلة في يوم التأمل والحوار والصلاة من أجل السلام والعدالة في العالم، أسيزي، 27 أكتوبر 2011.

وقيل أيضا إن الوثيقة موجهة إلى "النخب" وتتجاهل القاعدة الأعم. صحيح أن بداية الجزء الأساسي تتوجه إلى "القادة". ولكننا نجد لاحقا، عندما يتعهد المؤلفان بنشر الوثيقة، أن حديثهما يدور أيضا حول "القضايا الإقليمية" و"منظمات المجتمع المدني". وبخلاف ذلك، في نهاية الوثيقة، نجد أن الشباب يصبح أيضا محور اهتمام، وخاصة في المدارس.

تحت الوثيقة على التسامح. قال أحدهم إن هذا المفهوم مختزل للغاية، لأن ما نحتاجه هو الحرية الدينية. تقترح الوثيقة التي وقّعها البابا فرنسيس والإمام الطيب في الواقع مواقف ذات التزام له طابع وجودي يحث على التقارب بين الناس من مختلف الديانات: الاحترام والتبادل والحوار والتعاون، والأهم، الأخوة. تأتي حرية الدين في المقدمة على أنها "حرية الاعتقاد والفكر والتعبير والممارسة" وتليها "حرية الاختلاف"؛ عند هذه النقطة يبدو أن الأمر يحمل إشارة إلى حرية تغيير الدين، بما أنه قد تمت إدانة أي إكراه في الأمور الدينية. عندما خاطب فرنسيس الشعب المغربي بعد شهر من التوقيع على إعلان أبو ظبي، تحدث عن "حرية الضمير" و "الحرية الدينية"⁵⁷.

يقال إن الوثيقة وصفت البعد اللاهوتي للحوار بين الأديان بأنه "جدل عديم الفائدة". في الواقع، يبرز هذا التعبير في إطار معارضته لحوار يضع المجتمعات الروحية والأخلاقية في المقدمة. يحذر المؤلفين من تلك الصيغة من "الحوار" التي تُستفد في الجدل. يمكن للحوار القائم على أطروحات جدلية، خاصة بين محاورين متمرسين، أن يكون مثمرا بالتأكيد من الجانب اللاهوتي؛ ومن المفهوم أن الناس، إذ رأوا في إيمانهم مصدرا للسعادة الكبيرة، ستتولد داخلهم رغبة في أن يعيش أصدقائهم من الديانات الأخرى نفس السعادة. لكن من العسير أن يشكك صاحب العقيدة الأخرى ⁵⁸ l'autre croyant في دينه. لذا عندما تكون هناك اختلافات، يكون من المهم دائما أن ننظر إلى الأهداف والقيم والنوايا المشتركة.

⁵⁷ منقول بتصرف عن أ. سبادارو، "إقامة الكنيسة للحوار". الرحلة الرعوية لبابا فرنسيس في المغرب، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2019، I، ص. 159-169.

⁵⁸ بينديكت السادس عشر، الإرشاد الرسولي في الكنيسة في الشرق الأوسط، 2012، رقم 19.

وأخيراً، يُقال إن الوثيقة عبارة عن تأخٍ إسلامي مسيحي يُستبعد منه غير المؤمنين والمؤمنين بديانات أخرى. في الواقع، يتضح جلياً أن هذا الانطباع ينشأ عن سوء فهم. عندما يعلن النص أنه يجب حماية أماكن العبادة، فإنه لا يشير فقط إلى المساجد والكنائس، ولكن أيضاً إلى "المعابد" (ma'abid⁵⁹). علاوة على ذلك، يأمل المؤلفان أن تكون وثيقتهما "نداء لكل ضمير حي"، ويعربان عن أملهما في أن يُفهم النص على أنه دعوة للمصالحة أيضاً "جميع المؤمنين بالأديان، بل بين المؤمنين وغير المؤمنين، وكل الأشخاص ذوي الإرادة الصالحة". وهكذا يتلاقيان مع أفكار يوحنا الثالث والعشرين، الذي أهدى الرسالة العامة على الأرض السلام Pacem terries إلى صاحبي الإرادة الصالحة.

التنوع الديني في تاريخ الخلاص

توجد جملة في التوصية الثانية غالباً ما تلاقي نقداً من الجانب المسيحي، وأحياناً ما يكون نقداً لاذعاً. تريد الصياغة أن تبين أن حرية الدين لها تفسير من الناحية اللاهوتية. يقول النص: "التعددية والاختلاف في الدين واللون والجنس والعرق واللغة مشيئة إلهية، خلق الله البشر عليها". ينبغي أن نحلل هذه الفكرة من ثلاث وجهات نظر مختلفة: أ- كيف يقبلها الجانب الإسلامي؟ ب- ما هي الإشكالية التي تطرحها المسيحية اللاهوتية؟ ج- هل يمكن أن يفهم هذا على أنه إعلان لاهوتي كاثوليكي جلي؟

أ- من الجانب الإسلامي، لا تحمل هذه الفقرة أية إهانة؛ بل إنها تعبر عن فكرة قرآنية. لنفهم هذا الأمر، ينبغي علينا قراءة آيتين. يذكر القرآن صراحة الفرق بين "اللغات" و"الألوان" البشرية كما خلقها الله، في أي سياق؟ غالباً ما يتحدث القرآن عن "آيات الله": وبهذه العبارة يفسر للمنصتين إليه هذا العالم ويجعله قابلاً للفهم، من خلال صورتَي الخليفة والوحي. وفي إطار ما يحدث في العالم يمكن للمرء أن يتعرف على عمل الله القوي. "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" (سورة الروم: 22).

⁵⁹ الترجمة الإنجليزية تعبر عن المفهوم بهذا المصطلح synagogues.

لكن التفسير القرآني لتاريخ الوحي يتضمن أيضا حقيقة أن الكتب المختلفة المنزلة أوحى بها الله إلى رجال "أنبياء"، مثل موسى وداود وعيسى ومحمد، وأن كل كتاب يؤسس "منهجا" مختلفا، على الرغم من أنها تتطابق فيما بينها إلى حد كبير من حيث المحتوى. وهكذا، وفقا للسورة القرآنية، يخاطب الله محمد مشيرا إلى عقائد مختلفة مثل عقيدة اليهود والمسيحيين، في قوله: "أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب [...] لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما أتاكم، فاستبقوا الخيرات" (سورة المائدة: 48).

ب - حقيقة أنه يوجد بين الجنس البشري أناس ذو بشرة داكنة أو بشرة فاتحة، رجال ونساء، هو أمر مقدر له أن يستمر ربما حتى نهاية العالم. يمكننا أن نرى في هذا الأمر التنوع الثرى والمثمر في خلق الله، لكن فيما يتعلق بوجود مسلمين ومسيحيين بين البشر فلهذا أسباب وتبعات مختلفة. شعوب وأشخاص غيروا دياناتهم. حدث هذا لبعضهم طواعية، أما بالنسبة للبعض الآخر فلم يكن الأمر هكذا.

والآن، تنشأ توترات بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية، خاصة فيما يتعلق بشخص يسوع: هل مات حقا على الصليب وقام من بين الأموات؟ هل هو "الله له المجد" والذي نعترف به في صورة "الرب"، أو بالأحرى ننظر إليه كـ "رب وإله" (فيلبي 2:11؛ يوانان 20، 28)؟ لا يتفق المسيحيون والمسلمون على هذه النقطة. فإذا كانت هذه الاختلافات الجوهرية ناتجة ببساطة عن "إرادة إلهية حكيمة"، فهذا يتعارض مع إرادة الله في أن يعترف المسيحيون بإيمانهم أملا في أن يعترف الآخرون أيضا بالمسيح كمخلص.

ج- في وثيقة الأخوة الإنسانية، توظف هذه العبارة الجدلية لتبرير الحرية الدينية. يمكن تأييد تلك الحرية من الناحية اللاهوتية أيضا عبر سلوك طرق أخرى: بشرح الإيمان، على سبيل المثال، على أنه قبول واثق يظهر في هيئة "نعم" شخصية، وبالتالي

هي حرية شخصية⁶⁰. وبالمناسبة، لنتذكر أن القرآن ينص أيضا على أنه لا يمكن إكراه الناس في الأمور الدينية (سورة البقرة: 256).

بخلاف هذا، تعتبر صياغة الوثيقة مهمة من الناحية اللاهوتية. فهي في الحقيقة تستند إلى وثيقة في عصرنا التي تنص على: "الكنيسة تشجب إذا كمناف لروح المسيح، كل تفرقة أو جور يلحق بالبشر بسبب عرقهم أو لونهم، وبسبب وضعهم أو ديانتهم" (NA5). لذلك، عندما يتم ذكر الاختلافات الدينية والعرقية في نفس الجملة، فإن هذا لا يعني أنه يتم وضعها على نفس المستوى، ولكن يعنى هذا أنها قد تصبح بسهولة مصدرا للتمييز ويتوجب علينا منع هذا الخطر.

ولكن عندما نتحدث وثيقة الأخوة عن "إرادة إلهية حكيمة"، فإنها تطرح ما هو أكثر. في كثير من الأحيان يحملنا مسار التاريخ كما خطه الله إلى مواقف تبدو غير مفهومة لنا. لماذا تم بيع يوسف في مصر من قبل الإخوة الغيورين؟ لماذا صلب المسيح؟ لماذا لا يعترف الجميع بالخالص الكامل في المسيح؟ في النهاية، سيكشف يوسف لإخوته: "لأنه لاستباق حياة أرسلني الله قدامكم" (سفر التكوين 45.5). لقد ظهر عمل الله أيضا من خلال غيرة هؤلاء الإخوة.

وعن اختلاف الأديان، قال كل من بينديكت السادس عشر وفرنسيس عبارات مهمة: عندما يلتقي أناس من أديان مختلفة، يعنى هذا لكليهما "التطهير والإثراء"⁶¹. يرقى هذا إلى الاعتراف بأن التنوع الديني يلعب دورا محوريا في تاريخ الخلاص. وفي الرباط، أكد فرنسيس "أنها مسألة تتعلق باكتشاف الآخر وقبوله في خصوصية إيمانه، وأن نغتنى من بعضنا البعض عبر الاختلاف، في إطار علاقة مطبوعة بحسن النوايا وبالبحث عما يمكن أن نحققه سويا"⁶².

⁶⁰ منقول بتصرف من المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، إعلان الكرامة الإنسانية.

⁶¹ منقول بتصرف عن بابا بينديكت السادس عشر، الخطاب، 21 ديسمبر 2012؛ فرنسيس، صلاة التبشير الملائكي، رقم 250؛ منقول بتصرف عن سكرتارية الكنيسة لشؤون غير المسيحيين، موقف الكنيسة حيال معتنقي الديانات الأخرى (تأملات وتوجهات حول الحوار والدعوة)، 1984، رقم 21.

⁶² فرنسيس، خطاب في لقاء مع الشعب المغربي والسلطات والمجتمع المدني والسلوك الدبلوماسي، الرباط، 30 مارس

استقبال وثيقة الأخوة

لوران باسانيزي

"الحوار ليس صيغة سحرية"، هكذا أعلن البابا فرنسيس في الكلية اللاهوتية البابوية لجنوب إيطاليا، قسم القديس لويجي، في 21 يونيو 2019. هو، في الواقع، يتطلب جهودًا ولقاءات، و"صبرا جيولوجيا"، وفق تعبير دارس الإسلام الكبير جورج فنواي، وقبل كل شيء يتطلب أفعالاً ملموسة.

وبما أن "وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك" بتاريخ 4 فبراير 2019، التي وقعها البابا فرنسيس والإمام الأكبر للأزهر أحمد الطيب، قد دخلت حيز التنفيذ، فعلى أن نتذكر عنصرين مهمين.

أولاً، يعتبر نص أبو ظبي دعوة ينبغي تنفيذها، خاصة من قبل الأشخاص أو الهيئات التي يمكنها التأثير على المجتمع، أي "القيادات المؤثرة ورجال الدين في العالم، والمنظمات الإقليمية والدولية المعنية، ومنظمات المجتمع المدني، والمؤسسات الدينية وقادة الفكر والرأي". من الواضح أن ما يأمل فيه البابا فرنسيس والإمام الأكبر أحمد الطيب هو ألا تظل "وثيقة الأخوة الإنسانية" حبرا على ورق، بل أن تدرج كقوانين وإصلاحات حقيقية في الفكر والمجتمع.

ثانياً، لا يتعلق الأمر بتكرار تصريح إسلامي-مسيحي آخر للمرة الألف: الكلمات مثل "إسلام" و"مسيحية"، و"حوار إسلامي-مسيحي"، لا تظهر في هذه الوثيقة. الوثيقة موجهة للجميع، بما يتجاوز الانتماءات الدينية: "ننوجه للمفكرين والفلاسفة ورجال الدين والفنانيين والمبدعين في كل مكان ليعيدوا اكتشاف قيم السلام والعدل والخير والجمال والأخوة الإنسانية والعيش المشترك، وليؤكدوا أهميتها كطوق نجاة للجميع، وليسعوا في نشر هذه القيم بين الناس في الشرق والغرب".

بعض الثمار البارزة

إذا كانت "وثيقة الأخوة" تطمح في أن يكون لها نطاق عالمي يتجاوز الانقسامات المجتمعية، فإن لها جذورا تمتد في تفكير عميق سابق، مسلم ومسيحي في الوقت نفسه، حول مستقبل البشرية.

بعد الهجمات الإرهابية المزعومة باسم الإسلام، والتي وسمت بداية القرن الحادي والعشرين، مرورًا بالثورات العربية لعام 2011، وظهور داعش على الساحة الدولية في عام 2013، تزايدت، في الواقع، اجتماعات القادة المسلمين مع المسيحيين واليهود وممثلي الطوائف الأخرى، في جميع أنحاء العالم، في محاولة للرد على هذه الأزمات الدموية. قبل إدراك الثمار الملموسة لوثيقة أبو ظبي بوقت طويل، أُقرت اجتماعات أخرى رفيعة المستوى، مثل زيارة البابا فرنسيس للمغرب في 30 مارس 2019، حيث دعاه الملك محمد السادس بنفسه للحضور من أجل تجاوز الحوار الكلاسيكي بين الأديان، وتعزيز التربية للتصدي الى العنف والأصولية.

بالتركيز على نص الوثيقة المستلهم من آيات قرآنية، يستحق أحد مقاطع كلمة الترحيب أن تقرأ بعناية: "من الواضح أن الحوار بين الديانات الإبراهيمية غير كافٍ في واقع اليوم. في اللحظة التي تشهد فيها أنماط العيش تحولات كبرى في كل مكان، وفي كل المجالات، يجب أن يتغير أيضا الحوار بين الأديان. سيستمر الحوار المنصب على التسامح. سوف يستمر لوقت ليس باليسير، دون أن يحقق هدفه. لم توجد الديانات الإبراهيمية الثلاث لتتسامح فيما بينها، لا إجباريا لقدر محتوم ولا اختياريا من باب المجاملة. وإنما وجدت للانفتاح على بعضها البعض، والتعارف فيما بينها، في منافسة قيمة ومتبادلة بينها لفعل الخير".

قال محمد السادس: "الراديكاليون، سواء كانوا متدينين أم لا، يعتمدون على عدم معرفة الآخر، على جهل الآخر، على الجهل بشكل عام. إن "المعرفة المشتركة" هي إنكار لكل أشكال التطرف. وهذه المعرفة المشتركة هي التي ستسمح لنا بمواجهة تحديات حاضرنا المضطرب". وتابع: لمواجهة التطرف "الحل لن يكون عسكريا ولا ماديا، وإنما

يحمل اسما واحدا فقط: *التربوية*. فدفاعي عن التربية هو إدانة للجهل: إن المفاهيم الثنائية وعدم المعرفة هي التي تهدد حضاراتنا. وليس الدين أبداً".

وبذلك، تشكل وثيقة أبو ظبي علامة مهمة أيضاً في العلاقات بين الأديان. وتدعونا، إلى حد ما، لتجديد خطاب وأسلوب اللقاءات بين الأديان بطريقة ملموسة، ليس بالانتقال من الكلمات إلى الأفعال فقط، ولكن من "الصحيح سياسياً" إلى المقارنة الصحية والتعاون الحقيقي أيضاً، لنعيد التفكير معاً في الأخوة- أي مستقبل الإنسانية - "المؤمنون وغير المؤمنين، وجميع أصحاب الإرادة الصالحة"، كما يقول النص.

إثباتاً لجدية النية، في 25 فبراير، بعد عشرين يوماً من زيارة البابا إلى الإمارات العربية المتحدة، أعلم وفد من الدولة الخليجية بقيادة الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان، وزير الخارجية، البابا في الفاتيكان بالقرارات الأولى الناتجة عن الإعلان المشترك. ومن بين هذه القرارات، يمكننا أن نذكر إطلاق المؤسسة الدولية للتعايش، صندوق زايد الدولي للتعايش المشترك، المكلفة بتمويل برامج تعليمية تدعم التعددية والإخاء. أو تأسيس بيت عائلة إبراهيم، على جزيرة أبو ظبي السعديات، ومسجد وكنيسة ومعبد، ومركز تدريب لإحياء ذكرى الزيارة التاريخية للبابا فرنسيس والإمام الأكبر أحمد الطيب، وإضافة إلى ذلك سوف يتم بناء معبد هندوسي على قطعة أرض تزيد مساحتها على مئة ألف متر مربع على طول الطريق بين أبو ظبي ودبي.

وبنفس هذه الروح الجديدة للحوار الواقعي والأخوي بحثاً عن السلام والوئام، بعد بضعة أشهر، في 19 أغسطس، تشكلت اللجنة العليا للأخوة الإنسانية وهي تضم مجموعة من الزعماء الدينيين وعلماء التربية والقادة الثقافيين من جميع أنحاء العالم، وتهتم بدعم وتعزيز الإصلاحات المستوحاة من وثيقة أبو ظبي، بالتعاون مع السلطات الوطنية والدولية. اجتمعت هذه اللجنة لأول مرة في روما في 11 سبتمبر، وهو تاريخ دال للغاية، للمرة الثانية في نيويورك بعد بضعة أيام، في 20 سبتمبر، بمناسبة انعقاد اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والسبعين. وفي يوم 5 ديسمبر من العام الماضي، في نيويورك أيضاً، التقى أعضاء اللجنة مع الأمين العام للأمم

المتحدة، أنطونيو غوتيريش، وسلموه رسالة من البابا فرنسيس وإمام الأزهر الأكبر أحمد الطيب، يقترحان فيها أن يُعلن 4 فبراير "يوم الأخوة العالمي" ويطلبان من الأمم المتحدة أن تشارك، مع المقر المقدس والأزهر، في تنظيم القمة العالمية للأخوة الانسانية في المستقبل القريب.

وعلى الرغم من الانتقادات الحتمية، من بعض الدوائر الكاثوليكية والمسلمة على حد سواء، التي تلوم غموض بعض المصطلحات أو تبرز خطر النزعة العاطفية والسلامية، فإن وثيقة الأخوة تعتبر عموماً حدثاً مهماً جداً في تاريخ الحوار بين الشعوب والثقافات، كما كان بالضبط الاجتماع بين الأديان الذي اقيم في أسيزي عام 1986. من ناحية أخرى، من الجدير بالذكر أن توقيع هذه الوثيقة، بعد 800 عام- في أزهى عصور الحملات الصليبية عام 1219- من اجتماع القديس فرنسيس مع السلطان الكامل في دمياط، يعتبر حدثاً مهماً جداً.

يتم تناول الوثيقة، والتعليق عليها، ودمجها، بطريقة أو بأخرى، كمشاركة بارزة في الحوار بين الأديان، واعتبارها حجر أساس لمستقبل البشرية. وهكذا يعتبر إعلان "أخوة من أجل التعارف والتعاون"، الذي وقع عليه اثنان وعشرون من القادة والمتقنين المسلمين في 9 يوليو، نص أبو ظبي "حدثاً غير مسبوق، على المستوى المؤسسي، في تاريخ العلاقات بين المسيحيين والمسلمين".

وبالمثل، في مؤتمر "الأخوة الانسانية: انعكاس يهودي لوجود مشترك"، الذي عُقد في 8 نوفمبر، في الجامعة البابوية الجريجورية، قال رونالد لودر، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي، "باسم المجمع اليهودي العالمي، يمكنني أن أخبركم أن الوثيقة الدولية التي أعلنتها أبو ظبي ذات أهمية كبيرة، ونحن اليهود نحترمها كثيراً. نتشارك قيمها ونعتقد مبادئها الأساسية. اسمحوا لي أن أكرر ذلك. إننا نتشارك قيمها ونعتقد مبادئها الأساسية". كما نظمت الهيئة الدبلوماسية المعتمدة من المقر المقدس اجتماعات مهمة في روما لتبادل الآراء بين العاملين فيها وشبكة اتصالاتها، كسفارة اليابان وسفارة جمهورية

الأرجنتين، وبحضور الزعماء الدينيين والمسيحيين واليهود والمسلمين والهندوس، والبوذيين، والسيخ.

ويمكننا التأكيد أيضاً أن "روح" الوثيقة تحثنا وتدعونا في الوقت نفسه إلى أن نكون أكثر حذراً في استخدام المفردات عند التحدث عن "الأخر"، و"المختلف دينياً" واستغلالها سياسياً. دون أن يذكر صراحةً وثيقة أبو ظبي، يدين "تصريح مكة" الموقع في 31 مايو 2019، في نهاية الدورة العادية لمنظمة التعاون الإسلامي، السياسات التي تستخدم الدين لإثارة الصراعات؛ ويؤكد مجدداً على الاحترام الضروري للاختلافات الثقافية والدينية، ويشير أيضاً إلى الحوار بين الأديان كأحد الأدوات الضرورية لمواجهة أحاديث العنف.

بعد بضعة أشهر، في 17 سبتمبر، أقر محمد عيسى، الأمين العام لرابطة الجالية الإسلامية العالمية، في مؤتمر السلام الدولي في باريس، بأن "الإسلام السياسي قد يمثل تهديداً و (ومصدراً) للفرقة في المجتمع". وأخيراً، خلال الندوة الحادية عشر التي أقيمت في إيران بين المجلس الحبري للحوار بين الأديان ومنظمة الثقافة والعلاقات الإسلامية، يومي 11 و12 نوفمبر في طهران، حول موضوع "المسلمون والمسيحيون معا في خدمة الإنسانية" عبّر الكثير من الزعماء الشيعة عن رغبتهم في المشاركة في التأمل الذي أثارته وثيقة الاخوة.

ما وراء حرم "الديانات الإبراهيمية"

إن الدليل على أن الوثيقة لا يُراد لها أن تظل في حرم "الديانات الإبراهيمية" هو أن البابا فرنسيس نفسه روج لمضمونها بحملها إلى آسيا. فأتثناء زيارته لمدينة تايلاند، يوم 21 نوفمبر، قدم نسخة لبطريرك البوذية الأعلى، سومديت فرا أريافونغساغاتانانا التاسع. وخلال كلمته، شدد البابا على أهمية الأخوة الإنسانية من أجل السلام والتعايش، مشيراً إلى أول إرشاد رسولي له، فرح الإنجيل، ومؤكداً فكرته ذاتها: "عندما نتاح لنا الفرصة للتعرف ولتقدير بعضنا البعض، حتى في اختلافاتنا، فإننا نقدم للعالم كلمة أمل قادرة على تشجيع ودعم أولئك الذين يتضررون بشكل متزايد من التفرقة. إن مثل هذه

المناسبات تذكرنا بمدى أهمية أن تبدو الأديان أكثر فأكثر كمنارات أمل، مشجعة وضامنة للأخوة".

وقد عبر البابا عن الرسالة نفسها في اليوم التالي بعدة إحالات إلى "وثيقة الأخوة"- أمام المجتمع الأكاديمي، في جامعة شولالونغكورن في بانكوك، وبحضور ثمانية عشر من القادة الدينيين في البلد، ممثلين عن الديانات التايلاندية التقليدية، والبوذية، والإسلام، والهندوسية، والسيخية، ومختلف الطوائف المسيحية- قائلا: "فقد انتهى الزمن حيث يمكن أن يسود منطق العزلة في تصوّر الزمان والمكان، وأن يُفرض كآلية صالحة لحلّ النزاع. اليوم هو زمن الإقدام على تصوّر ثقافة الحوار كدرب، والتعاون المشترك كسلوك، والتعارف المتبادل كنهج ومعيار؛ فنقدّم بهذه الطريقة، نموذجًا جديدًا لحلّ الصراعات والإسهام في التفاهم بين الناس وحماية الخلق. أعتقد أن الأديان، في هذا المجال، وكذلك الجامعات، تملك الكثير مما تستطيع تقديمه والإسهام به، دون التخلي عن ميزاتها الأساسية ومواهبها الخاصة؛ كلّ ما نفعله في هذا الصدد هو خطوة مهمة لضمان حقّ الأجيال الصاعدة في المستقبل، وهو أيضًا خدمة للعدالة والسلام. وبهذه الطريقة فقط، سوف نوفر لهم الوسائل اللازمة حتى يلعبوا هم الدور الرئيسيّ في طريقة خلق أنماط حياة مستدامة وشاملة".

حدث الشيء نفسه بعد بضعة أيام، في 25 نوفمبر، في اليابان، خلال الاجتماع مع السلطات والهيئة الدبلوماسية في طوكيو. هناك أكد البابا أنه "يدفعنا اهتمامنا المشترك بمستقبل الأسرة البشرية إلى أخذ ثقافة الحوار كوسيلة؛ والتعاون المشترك كسلوك؛ والتعارف المتبادل كمنهج ومعيار" مشيرًا مرة أخرى وبشكل مباشر إلى وثيقة أبو ظبي.

إعادة التفكير في التربية بشكل أساسي

إذا كان هناك مجال يمكننا العمل فيه بشكل ملموس لتغيير العقليات، ورسم مستقبل جديد والسعي لبناء عالم يمكن للجميع العيش فيه بسلام مع احترام الاختلافات الثقافية، فهو "التربية". لأنه، إذا كانت الأخوة في الاختلاف هي جوهر الرسالة التي

تحملها الوثيقة، فإن تدريب وتربية الأجيال الشابة هو النفس والرئتين الذين سيسمحن لنا أخيراً بالعيش المشترك والتنفس بشكل مريح على الأرض.

وأبدى ملك المغرب اقتناعه بهذا: "لأن الله هو المحبة"، فإن الأديان والثقافات مدعوة للتفاعل والانفتاح على بعضها البعض. دلالة مهمة يحملها إطلاق صندوق زايد الدولي للتعايش المشترك، في دولة الإمارات العربية المتحدة، لتمويل البرامج التدريبية التي تعزز التعددية والإخاء؛ وتأسيس اللجنة العليا للأخوة الإنسانية، في أغسطس، والتي تضم خبراء في التربية، وأساتذة، ودبلوماسيين معنيين بالسلام والثقافات والتعاون بين الشعوب؛ وتأكيد البابا فرنسيس في بانكوك على الدور الأساسي للجامعات، التي يمكنها أن تقدم للعالم "نموذجاً جديداً لحل النزاعات".

في إطار هذا الجهد "لتخيل منطق اللقاء والحوار المتبادل بشجاعة" على المستوى الجامعي، يمكننا أن نذكر أيضاً، أنه في روما، بعد أسابيع قليلة من نشر الوثيقة، في 27 مارس، تم تكوين مجموعة بحثية مشتركة بين مركز الدراسات بين الأديان التابع للجامعة البابوية الجريجورية وبين المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية، حول موضوع: "وثيقة الأخوة الإنسانية: تأملات وتطورات لاهوتية وفلسفية واجتماعية".

يمكننا القول إن إصلاح الأنظمة التربوية في جميع أنحاء العالم هو هدف أساسي لـ "وثيقة الأخوة" في السنوات القادمة. الرابط بين الأخوة والتربية أقامه البابا بنفسه بمناسبة خطابه في نابولي، الذي سبق ذكره في 21 يونيو: "كيف يمكننا أن نصون بعضنا البعض داخل الأسرة البشرية الواحدة؟ كيف يمكننا تطبيق تعايش عادل وسلمي يترجم إلى أخوة حقيقية؟ كيف نعزز في مجتمعاتنا الترحيب بالآخر ومن يختلفون عنا لأنهم ينتمون إلى تقاليد دينية وثقافية مختلفة عن تقاليدنا؟ كيف يمكن أن تكون الأديان سبلاً للأخوة بدلاً من أن تصبح جدراناً فاصلة؟ [...] أحلم بكليات لاهوتية حيث يقام التعايش بين الاختلافات، حيث يمارس لاهوت الحوار والتقبل؛ حيث يتم تطبيق نموذج متعدد الأوجه للمعرفة اللاهوتية بدلاً من الإطار الثابت والمقيد. حيث يكون البحث اللاهوتي قادراً على تعزيز طريق ثقافي ملزم ولكنه دائم".

إلى حد ما، سيكون الإصلاح المتجدد والمتكامل والشامل هو الحل الذي ستقدمه الكنيسة الكاثوليكية لتنفيذ الوثيقة: نظام تربوي يحاور الجميع، لأجل بناء السلام العالمي وتحقيق خير المجتمعات التي تتمنى أن تكون أكثر عدالة وأخوة. ولحماية الخلق أيضاً. وأكثر من ذلك: سيكون التدريب الذي سيُعتبر فيه الحوار- بمجرد تحديثه- من الآن فصاعداً منهجاً ومعياراً حتمياً للتعلم، وستُعتبر فيه المسيحية واليهودية والإسلام والأديان الأخرى سبيلاً للتعارف المتبادل والتعايش السلمي في عالم سيصبح الغد فيه أكثر تعددية في الثقافات والأديان.

قبل كل شيء، تتمثل الخطوة الأولى الضرورية لتحقيق هذا الهدف الطموح في الانتقال من عقلية عدوانية، دفاعية، ذاتية وغازية إلى روح خيرة، واستباقية، ومنفتحة وشجاعة. ولن يكون للتبشير، باعتباره منهجاً وحيداً للتلاقي مع الآخر، معنى في عالم يتغير بشكل كبير ويصبح كقرية صغيرة مترابطة ومتفاعلة بشكل دائم.

فيما يتعلق بالمسيحية والتعليم، كما يُمارس في المدارس والجامعات الغربية، لا يزال هناك الكثير الذي ينبغي القيام به للربط بين المعرفة والعمل معاً بطريقة بينية، بعيداً عن المنطق الذاتي والتنافسي. ولأجل الحفاظ على اللاهوت والفكر من الانحطاط، لا يعتبر اللوذ بالماضي وعالمه اتجاهاً صحيحاً بالتأكيد: سيؤدي هذا التصرف إلى تجنب الحاضر وعدم مواجهة تحديات اليوم والغد.

أما بالنسبة لإصلاح المناهج الدراسية في الإسلام، فقد ذاعت مشكلة الكتب الدراسية قبل ظهور داعش بوقت طويل، ولا تزال مشكلة مركزية. تحتوي بعض النصوص، وخاصة تلك المتعلقة بالفقه، دائماً على صور كاريكاتورية للأديان الأخرى وبها تحريض على العنف وكرهية الآخر "المختلف". إنهم يدعون المراهقين إلى الجهاد ويزودونهم أيضاً برؤية أحادية البعد للواقع، وتشويه للتاريخ، وأكاذيب عن النساء أيضاً. حاولت دول مختلفة ذات أغلبية مسلمة في السنوات الأخيرة تغيير مناهجها الدراسية بجدية من خلال إدخال التفكير النقدي، وروح البحث، والتعددية والتسامح. لكن آثار العديد من هذه التغييرات معارضة قوية من جانب المحافظين والأحزاب الإسلامية،

الذين يعتبرون هذه التغييرات شكلاً من أشكال الخضوع لاحتياجات الغرب وانتهاكاً للهوية الإسلامية.

ونتيجة لذلك، باستثناء المغرب والأردن، كانت محاولات إصلاح المدارس في البلدان ذات الأغلبية المسلمة مترددة وسطحية. حتى الآن، فشلت المدارس في تدريب الأجيال الشابة على الابتعاد عن التطرف والإقصاء. اعترف لويس رافائيل الأول، بطريرك بابل الكلداني، بأن "وثيقة الأخوة" هي "نقطة مرجعية أساسية"، وكرر مؤخرًا أهمية إصلاح التعليم المدرسي في العراق، وبشكل عام في الشرق الأوسط، كي تصبح الكتب المدرسية خالية من "أي شكل من أشكال الكراهية"، إضافة إلى رفع الوعي العام بحقوق الإنسان ومبادئ المواطنة والمساواة.

ستكون استجابة الكنيسة لوثيقة أبو ظبي في الأساس تربية ومتعددة التخصصات: بناء تحالف جديد بين المدرسة والأسرة وأفضل مؤسسات المجتمعات، الدينية والمدنية على حد سواء، للتركيز على التنمية المتكاملة للفرد. وهذا هو - في الواقع - هدف الحدث العالمي الكبير الذي سيعقد في الفاتيكان في 14 مايو 2020 والذي سيكون موضوعه حول "إعادة بناء الميثاق التربوي العالمي". روج لهذه المبادرة البابا فرنسيس وأطلقها في رسالة، نشرت في 12 سبتمبر 2019، تشير بدورها إلى "وثيقة الأخوة". والرسالة تؤكد أيضاً أن التربية لا تقتصر على الفصول الدراسية في المدارس والجامعات. التربية، أو بالأحرى التدريب، هو بُعد عابر لمجاله يؤثر على جميع مجالات الحياة وجميع الأبعاد: الفن والرياضة والأدب والاقتصاد والسياسة. خلال هذا اليوم، الذي سيكون بالأحرى بداية مسار، سيقع ممثلو الأديان الرئيسية، وممثلو الهيئات الدولية، والأوساط الأكاديمية والاقتصادية والسياسية والثقافية على تحالف من أجل "الميثاق التربوي العالمي" بعد تحديثه، لمنح الأجيال الشابة منزلاً أخوياً مشتركاً.

ضرورة إعادة التفكير في الاختلافات (التنوع) في عالم التعددية

إذا كانت الأديان قادرة بالفعل على الإسهام في ميثاق تربوي عالمي وعلى تكوين جيل منفتح حقاً، ناضجاً ومحاوراً، فإن القضية التي تُركز عليها "وثيقة الأخوة الإنسانية"

تبدو في الواقع أكبر بكثير من كونها مجرد إصلاح بسيط للمناهج الدراسية: إنه إصلاح ثقافي وبين ثقافي.

يتزايد رفض الأخوة والتحرّيش على الكراهية والعنف ليس فقط في المدارس وفي الدورات الدينية، ولكن في الأسرة أيضًا، وفي التجمعات السياسية والسينما والعمل والسوق والشارع؛ من الشرق الأوسط إلى روما ومن آسيا إلى نيويورك. من هنا تأتي ضرورة إعادة التفكير في الآخر، "المختلف عنا"، وإعادة النظر أو ابتكار طريقة للعيش معًا بطريقة مختلفة.

إن الانتقال من الكراهية إلى مجرد التسامح والوصول إلى صيغة عيش صادق معًا، والقوانين البسيطة والإصلاحات الأحادية والتدابير القسرية، غير كافٍ. ينبغي، بالإضافة إلى هذه التغييرات، خلق مناخ وثقافة اللقاء الذي يعزز القبول المتبادل ويدعم المجتمعات السلمية والشاملة.

دروس الحوار الإسلامي المسيحي

داميان هوارد

مقدمة

في 4 فبراير 2019، خلال الرحلة الرعوية للبابا فرنسيس إلى الإمارات العربية المتحدة، وقع البابا والإمام الأكبر للجامع الأزهر على وثيقة بعنوان الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك. أشيد بهذه الوثيقة باعتبارها خطوة مهمة إلى الأمام في العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية والعالم الإسلامي، حيث إنها توصي بـ "المُصالحة والتَّأخي بين جميع المؤمنين بالأديان، بل بين المؤمنين وغير المؤمنين، وكلِّ الأشخاص ذوي الإرادة الصالحة"، وتوضح المبادئ التي ستؤدي إلى هذه تحقيق المصالحة.

من المفترض أن يكون لتعزيز الحوار بين الأديان إسهام مهم في دفع هذه العملية. وتنص الوثيقة على: "أنَّ الحوارَ والتفاهمَ ونشرَ ثقافةِ التسامحِ وقَبُولِ الآخرِ والتعايشِ بين الناسِ، من شأنه أن يُسهِمَ في احتواءِ كثيرٍ من المشكلاتِ الاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والبيئيَّةِ التي تُحاصِرُ جزءًا كبيرًا من عالمِ اليَومِ"⁶³.

هل تعتبر الثقة في فاعلية الحوار مجرد أمل مثالي أم أن هذا المسار قد يصبح نقطة تحول؟ تعتبر التأملات التالية نتاج خبرة "ميدانية" تتعلق بما يمكنه، في الواقع، تقديم مساعدة حقيقية من أجل دعم الحوار القائم في ظل العقبات التي يواجهها، ومن أجل إزالة العراقيل التي تعيق مساره. في الحقيقة، بالرغم من أنه ليس من الصواب الإقرار بأن الإطار الطبيعي لعلاقة المسلمين والمسيحيين في العالم الحديث هو الصراع، فإنه ليس بمقدورنا أيضا، بالطبع، أن نكون راضين عن طبيعة العلاقات بين الطرفين كما هي في الوقت الراهن. وبالرغم من أننا سنكون قادرين على تكوين جبهة مشتركة في

⁶³ وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش الإنساني، أبو ظبي، 4 فبراير 2019.

كل مكان في العالم لتعزيز السلام، والعدالة، وتقديم نموذجاً حياً لإيماننا بالله، فإننا غالباً ما نتجاهل أحدنا الآخر، وننغلق داخل الصور النمطية السلبية، ونتبنى، في بعض الحالات، أساليب غير عادلة تجاه بعضنا البعض.

تحدي الحوار

ليس كل ما يتم تقديمه على أنه حوار يكون هكذا حقاً. لا يمكن اعتبار حديثين فرديين ألقيا بطريق الصدفة في نفس الغرفة "حواراً". الحوار ليس الدعوة، وليس التبشير. من الواضح أن كلا من المسيحيين والمسلمين ينزعون نحو الدعوة، ويرغبون في تحويل العالم إلى مكان يتشارك فيه الجميع نفس الإيمان بالله الحقيقي. لكن هدف الحوار ليس تغيير معتقد الآخر. في ضوء الحوار، يجب أن أستمع إلى معتقدات الآخرين. أعلم أن عقيدتي تمنحني طريقة ليس فقط للتحديث مع أولئك الذين قرروا عدم الاعتراف بها، ولكن أيضاً للإصغاء باهتمام إلى ما يجب عليهم قوله هم أيضاً.

لا يتبع الحوار مسارا اعتذارياً من أولئك الذين يحاولون باستمرار إثبات أن موقفهم هو الصحيح أو حفظ ماء الوجه في جميع الأحوال. وبقدر ما هو طبيعي أن نحاول جميعاً تقديم معتقداتنا في كونها مبررة بعقلانية، بقدر ما كانت هناك، من ناحية أخرى، وفي ظل عالم معقد كعالمنا، العديد من الطرق لإثبات منطقتنا.

إن تقاليدنا حية وديناميكية وليست رجعية ثابتة. ينبغي علينا تكريس جهد مستمر لتجديدها وإحيائها. حتى الحوار، في أقوى صورته، يمكن أن يسهم في هذه العملية، بما يفتح أفق التجارب ووجهات النظر، ويسمح لنا أن نشمن ما نتعلمه من الآخرين، لكي نكون مخلصين بإبداع للوحي الذي تلقيناه.

الحوار هو التواصل. بناء على ذلك، كل ما يقوله أحد الأطراف يجب أن يفهمه الطرف الآخر، وإلا فشل كلاهما. وهذا يعني أن الحوار يتطلب مهارة وانتباهاً في مرحلة الإنصات وفي مرحلة العرض أيضاً. الإنصات التفاعلي هو أمر غير فطري فينا: ينبغي تعلمه بتأنٍ. الإنصات التفاعلي هو أمر شاق، لأنه يعني الاهتمام الكامل بما يحاول الآخر التعبير عنه، وفي الوقت ذاته، إرجاء أي محاولة للتعليق. يعني أن نتخلى عن ريبتنا أمام

مَن ننصت إليه، وأن نفترض صدق ومنطقية حديثه، وإن اتضح لنا بكل أسف فيما بعد انتفاء الصفتين عن حديثه. ويعنى أيضا أن نمكث للنصت إلى المتحدث بينما يقوم بعرض أفكاره- حول الدين والموضوعات الأخرى- التي نختلف عليها؛ ومع ذلك فإننا نصغي بصبر وهدوء، واثقين من أن الحقيقة ستنتصر في النهاية، لأنها قوية وقادرة في حد ذاتها، لأن الله هو الحق.

تتطلب هذه الطريقة في الإنصات القدرة على المحافظة على توازن دقيق. هذا يعني، من ناحية، أنه يجب أن أكون منفتحا على الآخرين بدرجة تجعلني أنصت إليهم دون محاولة تصحيحهم باستمرار (أو على الأقل أن أعارض آراءهم المختلفة عن رأيي)، ومن ناحية أخرى، ينبغي أن أتأكد من أن ما يقوله المحاور مفهوم بالنسبة لي. إذا وضعت نفسي، عند لحظة ما، في موقف نسبي ("ما يقولونه له معنى بالنسبة لهم، وليس بالنسبة لي")، فإنني سأتحلى عن الإنصات الحقيقي وسأقضي على غيرية الآخر. يجب أن أكون مسؤولا عن الحقيقة التي يدركها الآخرون.

نحن نعتقد أنه يمكننا الجزم بأن أي شخص يصلي لديه بالفعل القدرة على هذا النوع من الإنصات. إذا كنت شخصا مصليا، فأنا أصغي إلى الله بصبر (وإن لم يكن بنفس مقدار صبر الله تجاهي)، حتى وإن كانت كلمته غير مفهومة لي من الوهلة الأولى. إنني على يقين من أن ما يتسبب اليوم في حيرتي، سيفتح لي يوما ما فيضا من المعرفة الجلية.

أثناء الإنصات ينبغي أن نصل إلى مرحلة أخرى من التوازن، يتسق مع حريتنا الشخصية التي نحتاجها جميعا حيال هويتنا. يصعب تقبل الآخر كما هو، وليس كما نرغب نحن في أن يكون. عندما ننصت، يمكننا تمييز صوت رغبتين مضطربتين بداخلنا. من ناحية، قد نرغب في إقامة معارضة جانبية بيننا وبين الآخر، مع توضيح سبب اختلافنا معه؛ في هذه الحالة نحن نضع أنفسنا في بحث مستمر عما هو ضروري بالنسبة لنا، وغير موجود لديه. لذا ينتهي بنا الأمر بإطلاق عبارات اختزالية وتبسيطات عامة: "المشكلة مع الإسلام/ المسيحية هي...". من ناحية أخرى، قد نحاول جذب الآخر إلى

موضعنا، وعدم إعطائه مجالاً للتعبير عن شيء مختلف. وخوفاً من أن نقع بدورنا في اختزال مبالغ فيه، قد نود ربط الاتجاه الأول بالمسيحيين والثاني بالمسلمين.

إذا لم أكن قد فهمت بعد النموذج الذي يشير إليه متحدثي، فسأسيئُ فهمه، وربما سأصل إلى اتهامه باللاعقلانية. أحد الأمثلة المباشرة هو الافتراض، كما كان يفعل بعض المسيحيين في الماضي، أنه ينبغي على محمد أن يقوم، في الإسلام، بوظيفة مماثلة لتلك التي يؤديها يسوع المسيح في المسيحية. يشهد لقب "maomettano محمدي" على عدم صحة هذا النوع من المزاعم. ومثال آخر يسير في الاتجاه المعاكس، وينتمي إلى مستوى مفاهيمي أعلى قليلاً، هو النقد الذي طالما وجهه المسلمون للعقيدة المسيحية حول الثالوث. دعونا نتفق: نحن لا نقترح أن يفرض علينا الحوار الامتثال لمفاهيم ديانة أخرى، ولكننا بالأحرى نؤكد أن الإنصات الجاد يلزمنا بالتعمق في كيفية نجاح تلك المفاهيم في إقناع أشخاص أذكياء وحكماء. تحقيقاً لهذه الغاية، ينبغي علينا التدقيق بعمق في المنطق الكامن وراء منهج يختلف عن منهجنا. يجب ألا نصل إلى استنتاج لاعقلانية الآخر. وإذا تضح أنه لا مفر من ذلك، فعلينا أن نفعل ذلك على مريض، و فقط في حدود المقارنة.

تحدث نقطة التحول عندما يقول شخص ما شيئاً يجعلني أدرك على الفور أن خلف طريقة تفكيره يكمن نموذج يختلف كلياً عن النموذج الذي أتبعه، ولكنه، في الواقع، يكشف عن نقاط تماس عميقة مشتركة. طالما لم يحدث ذلك، نظل سجناء نموذجنا؛ وأفضل ما يمكننا فعله هو محاولة ملاءمة ما نسمعه مع بُنى تفكيرنا. عندما تحدث نقطة التحول، نجد أنفسنا بغتة أمام فيض من المعاني التي تفسر كل ما حاول الآخرون شرحه. دعونا نأخذ مثلاً حياً لهذه النماذج المختلفة. يجد العديد من المسيحيين المعاصرين أنه من المستحيل تقريباً فهم سبب إصرار المسلمين كثيراً على التأكيد على الأصل الإلهي للقرآن هو كلمة إلهية وأن المنهج الذي أنتجه ليس بشرياً على الإطلاق. يزعمون أن "هذه أصولية!" ومع ذلك، فقد عمل اللاهوت المسيحي بجدية في إطار مماثل حول فكرة النعمة التي تجلب الخلاص. في الواقع، من الهرطقة أن نؤكد أن البشر

يمكنهم تولى زمام الأمر فيما يتعلق بخلاصهم أمام الله: حتى الرغبة في الخلاص ترتبط، في الواقع، بالنعمة.

قد يكون للمسلمين والمسيحيين وجهة نظر مختلفة حول مصدر كتبهم المقدسة، وحول مفهوم تكاملية الطبيعة البشرية، لكن كلا منهما يمثل "حجرا صحيا" حول المكان الذي تعمل فيه يد الله على سد نقائص الطبيعة البشرية. بمجرد إدراك اختلاف النموذج، يتحقق تلاقٍ مفاجئ، يساعد بلا شك على تفاهم متبادل دقيق.

بهذه الروح، ربما يكون من المثير للاهتمام معرفة كيف يدخل "الحوار" إلى السياق الأكثر اتساعا لكل دين. إذا أردنا تفحص القضية في الكاثوليكية المعاصرة، سنأخذ في اعتبارنا أننا ندخل إلى عالم من الجدل المستعر، وسنكتشف بدهشة أن الحوار بالنسبة للكاثوليكين ليس أداة تماما، أو وسيلة للوصول إلى غاية (وإن كان الجدل له غاية)، بل إنه يُظهر شيئا مهما بخصوص علاقة البشر بالله، وبالطبيعة الثالوثية لله أيضا. إن الحوار حدث ديني وروحي، مدخل يصلنا بقوة كلمة الله التي لا مثيل لها، الحاضرة دائما من خلال الروح القدس في حياة الكنيسة وخارجها. يمكن أن يحدث الحوار عندما تكون هذه الروح التي تهب الحياة حاضرة وعاملة بالنسبة لكلا المتحدثين. هذا هو الدافع الحقيقي الذي يمكن لأجله أن يتعلم أي منا من الآخر. وهذا يفسر لماذا لا يعتبر "الحوار"، بالنسبة للكاثوليكين، عملا تبشيريا تحت مسمى آخر.

الإشكالية الأخرى تنشأ من واقع أنني لو أردت أن أكون فعالا في الحوار، فلا يكفي أن أكون على دراية بفن الإنصات: يجب أن أبذل جهدا في الطريقة التي أتواصل بها أيضا، وذلك من خلال وضع رسالتي داخل إطار يفهمه الآخر، الذي لم يدرك بعد، بينما أنا أتحدث، كيف لنموذج يختلف عن نموذجه أن يكون مؤثرا.

اتصالات حديثة

باتت العلاقات الجيدة بين المسلمين والمسيحيين مهددة بسبب التطور الذي شهدته وسائل التواصل الاجتماعي. تعتبر الطريقة التي تنجح بها الشخصيات الهدامة في استغلال قوة وسائل التواصل لأجل التحريض المتعمد على الكراهية ضارة بشكل خاص.

راعٍ مجهول يحرق نصا مقدسا في مكان ما وينشر مقطع فيديو لعمله الإجرامي على موقع إلكتروني. يسهل على أولئك الذين لا يعرفون شيئا عن السياق السياسي أو الديني الذي وقعت فيه الجريمة، أن يقتنعوا، فورا، بأن المسيحيين بشكل عام قد قاموا بازدراء ديني جلي.

مثال آخر: منذ وقت ليس ببعيد، شهدنا في شرق لندن تصرفات المتطرفين من أصحاب الفكر اليميني الذين كانوا يوجهون سبابا للمؤمنين المسلمين خارج مساجدهم، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم "الحراس المسيحيين". يتعلق الأمر هنا بنشوات فظيعة للواقع، تنتشر وتحدث أضرارا في جميع أنحاء العالم. إن تعزيز الحوار يعني أن نواجه جميعا استراتيجيات التضليل وأن نصح مسار أولئك الذين يتورطون، دون وعي حتى، في هذه الهستيريا المصنوعة.

هناك مشكلة أخرى تتعلق بالوضع الحالي للسلطة الدينية. لقد وجهت آليات التطور ضربة شديدة لمصادقية الهياكل التقليدية. واليوم، يعتبر الإنترنت هو الميناء الأول الذي يلجأ إليه عديد من الأشخاص الذين يرغبون في تعميق معرفتهم بالدين. وهو حافل بكثير من هؤلاء "الخبراء" الذين يمتلكون القدرة على إقناع الشباب بأنهم هم فقط من يمتلكون التفسير الصحيح للدين، حتى عندما يقدمون، في أحسن الأحوال، صورة مختزلة عنه، ومحرفة بعمق، في بعض الحالات، بفعل الأكاذيب والزيف الممتزجين فيها.

إذا حدث هذا للمسيحية وللإسلام أيضا، فهو يصبح أكثر واقعية فيما يخص الصورة التي تُكرس لعلاقتيها المتبادلة. ربما بسبب عدم وجود هوية واضحة لمنصات وسائل التواصل الاجتماعي، فإنها تميل لزرع بذور الاحتقار والتشويه والتشهير. ونجد صدى يسيرا لذلك في مجال العلاقات بين المسيحيين والمسلمين. بالإضافة إلى نشر الأكاذيب والأفكار النمطية، تعمل المحتويات المثيرة للجدل والتي تحركها الكراهية على التقليل دائما من أهمية الحوار بالنسبة للجميع. لقد حدث ذات مرة أن قدم لنا الطلاب أطروحات في المجال الأكاديمي يردون فيها على أحاديث جدلية لا قيمة لها. لقد كانت

آفاقهم الفكرية محدودة لدرجة جعلتهم يتقبلون نظريات المؤامرة، والأفكار المشوهة، والقراءات المغلوطة للتاريخ والنصوص.

فيما يتعلق بوسائل الإعلام، نطرح سؤالاً آخر جدياً وخطيراً للغاية: أي مصداقية ينالها المصدر. من يستطيع تقديم معلومات موثوقاً بها وذات محتوى جيد لمن يبحثون عنها؟ أين نجد، على سبيل المثال، شخصاً ملحداً صادق النية يرغب في أن يجد الحقيقة حول الكاثوليكية، والإسلام، وتعاليم الكنيسة حول الإسلام، وما إلى ذلك؟ لا يعدم الكاثوليكيون وثائق موثوقاً بها: الرسائل العامة البابوية، إعداد الخدام، وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، والمؤتمرات الأسقفية، وغيرها. إنها أدوات قيّمة بالطبع، لكنها ليست مثالية ولائقة لتعلم الدين. يواجه المسلمون المشكلة نفسها، في ظل صعوبة أخرى تتمثل في عدم وجود سلطة عالمية لهم يمكنها أن تكون المتحدث باسم جميع أتباع عقيدة الإسلام.

الطائفية والتنوع

لكي يكون الحوار مفيداً للجميع حقاً، يتطلب الأمر منا أن نكون صادقين بشأن مدى تمزق وتقسيم مجتمعاتنا الدينية. يجب أن نتخذ خطوة واحدة على الأقل نحو الرعوية. بالنسبة لكثير منا لا يحدث هذا تلقائياً. يمكن أن تؤدي الاختلافات الطائفية إلى اتخاذ مواقف حادة، تلك التي لا نجد لها أثراً في إطار العلاقات بين الأديان؛ لذا لا ينبغي الاستهانة بهذه الصعوبة. لا يرغب أحد في لفت الانتباه إلى الانقسامات، سواء بين الكاثوليكين والبروتستانت أو بين السنة والشيعة. نحن ننظر إليها بقلق، مستشعرين فيها علامات الفشل.

ربما نجد أنفسنا مؤيدين لوجهة النظر اللاهوتية التي نتمسك بها بقوة، على أساس أنها وجهة النظر الأساسية الوحيدة الأصلية، وفي الواقع كثيراً ما يفعل ذلك أولئك الذين يخرطون في الحوار. لكن لا يمكن أن نسمح لأنفسنا بأن نتكلم كما لو كنا نمثل مجتمعنا الديني بأكمله. هذا ليس مضملاً فحسب، لكنه يُعرض مصداقيتنا للخطر أيضاً.

من هم خارج هذا الإطار لهم الحق في معرفة أن هناك وجهات نظر مختلفة ومناهج تفسيرية مختلفة.

حتى داخل تقاليدنا، لا يكون هذا سهلاً بالضرورة دائماً. هناك بالتأكيد تنوع كبير داخل الإسلام السني، وكذا داخل الكنيسة الكاثوليكية. يبرز هذا التنوع أيضاً في تنوع الطرق التي نقيّم بها الديانات الأخرى: يراها بعض الكاثوليكين كأدوات يخاطب بها الله غير المسيحيين، في حين يعتبرها البعض الآخر، في أفضل الأحوال، تقاليد ليس لها صلة بخطة الله للخلاص. يعمل الكرسي الرسولي ضامناً لتعددية الكنيسة الشرعية، منشغلاً بتقديم التوضيح المباشر عندما تتجاوز موقفاً عقائدياً أو أخلاقياً الحدود المسموح بها. وفي هذه الحالة أيضاً، يمكن للتمييز اللاهوتي أن يكون دقيقاً للغاية.

لدينا سبب آخر مهم لنكون صادقين بشأن انقساماتنا: فهو يساعدنا على تجنب التعميمات غير اللائقة التي تضر بحوارنا، عندما تُنسب للجماعة كلها تهم ينبغي في الحقيقة أن يتم إصاقها بفصائل صغيرة أو حتى بفرد واحد. لن نستطيع أن نعبر أبداً بما فيه الكفاية عن مدى أهمية أن نُظهر للمسيحيين العالم الإسلامي بكل تنوعه، الشرعي وغير الشرعي. يُعتبر هذا عنصر أساسي لتغيير النظرة المغلوطة للإسلام كمرادف للعنف، والتي انتشرت بخبث بين جمهور غير واع. عندما يضطهدون المسيحيين في بعض البلدان- عادة ما يحدث نفس الشيء لبعض فئات المسلمين- فإنه من اليسير تفسير هذا الاحتقان بمقولة "يهاجم المسلمون المسيحيين"، وتعميم الصورة، كما لو كان الأمر يمثل عداً للمسلمين تجاه المسيحيين بشكل عام. في هذه الحالات، تلعب الصور والأخبار التي تُظهر تضامن المسلمين مع أشقائهم المسيحيين، دوراً فعالاً للغاية وتُكذب بدورها التعميمات الخاطئة.

إن الفلق الذي نتفهمه والذي يشعر به المسلمون بشأن تقديم عالمهم ككيان واحد قد أفرد مساحة تزداد اتساعاً لضرورة التغلب على التعميمات التبسيطية، وغير الصحيحة في كثير من الأحيان، التي نشرتها وسائل الإعلام واللوبي السياسي الحزبي. نحن نعتقد أن أحد أشكال التقدم الملموس الذي حققه الحوار خلال الأعوام العشرين الماضية في بلد

مثل المملكة المتحدة هو أن المسلمين اليوم يشعرون بارتياح أكبر بكثير في مناقشة خلافاتهم الداخلية نسبة لما كانوا عليه في السابق. والفضل في ذلك يعود، جزئياً، إلى زيادة الوعي من جانب الرأي العام، وبالتالي إلى فهم أكثر ومعرفة أعمق بالإسلام.

متطلبات السياق

لأي لقاء بين الأشخاص قيمة. ومن بين خصائصه تبرز ضرورة ألا يكون متأثراً دون داعٍ بأي عوامل سياقية ترد من مواقف أخرى. إنه، نكرر، تحدٍ في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، عصر يمكن فيه لخصائص سياق ما مختلف تماماً أن تُلصق بسياق آخر بطريقة مفرعة. يصعب التغلب على هذا الإغراء خاصة في الحالات التي تشهد ظلماً وقمعاً واضطهاداً. قد تملأ أصوات ملحة تنادى بأن "نحن" لا نستطيع أن نتعامل معهم بالعدل في سياقنا، إذا لم يعاملونا "هم" بشكل لائق في سياقهم. إن ربط هذا المبدأ بنتائج المنطقية سيكون له عواقب وخيمة: سيتم تبني أسوأ الممارسات على الإطلاق في العالم. يتطلب الحوار منا السهر على احترام الكرامة في أي سياق.

يترتب على ذلك أن الحوار الإسلامي- المسيحي في المملكة المتحدة سيكون مختلفاً عن الحوار الذي يجب أن يقوم في الأردن وباكستان ونيجيريا، أو حتى في سياقات أخرى قد تبدو متشابهة إلى حد ما، مثل الولايات المتحدة، على سبيل المثال. وهذا يعني أن من يشارك في هذا الحوار يجب أن يكون على دراية بخصائص واحتياجات واقع البيئة المحلية.

يجب أن يدفنا هذا الاهتمام بالسياق إلى تقدير تصرف الله في مكان معين. الله يعمل دائماً داخل الثقافات والمجتمعات. تثير كلمته أسئلة، وأجوبة، وتحديات، إنها تؤكد، وتحذر، وتسامح. يتحدث اللاهوت الكاثوليكي عن "الثقافة"، ويؤكد كيف أن الإنجيل هو واقع حي، يدخل في الثقافة البشرية ويغيرها من داخلها، وهو ينال ثمرة عمل الله الموجودة بالفعل ويصلح كل ما أتلفته الخطيئة. يمكن للمسلمين أيضاً أن يفكروا في الطريقة التي هذبت بها كلمة الله، التي وجدت تعبيراً عنها حتى فيما يسمونه بالآيات

المنسوخة، الثقافات في جميع أنحاء العالم، مما جعلهم اليوم يقدمون ضيافة روحية أيضا للعقيدة الإسلامية. حتى في البلدان التي كان وجودها فيها هامشيًا في الماضي⁶⁴.

يتطلب منا الاهتمام الصحيح بسياق ما أن نسأل أنفسنا ليس فقط حول ما نقوم به روح الله، ولكن أيضا حول الأغراض التي تسعى إليها الروح الشرير. هذا يتطلب الحكمة والفتنة: الانطباع الأول يمكن أن يكون مضللاً. فمثلاً، بالنسبة لشخص أجنبي- ولنا أيضا، في البلاد التي نحيا فيها - قد تبدو الثقافة الغربية المعاصرة فوضوية ولا تحترم أي قانون. يبدو الأمر كذلك لأن التجاوزات الأخلاقية المدوية تمارس تأثيراً قويا على خيالنا. ونتيجة لذلك، يُترجم وعظنا في هجوم كلي على شرور الرذيلة والتحرر. ومع ذلك، فإن المعرفة الأعمق والأكثر دقة للثقافة الغربية تكشف أنها بعيدة كل البعد عن كونها خارجة عن القانون، وأنها ترتبط بطريقة غير منتظمة بمفهوم معين لـ "القانون كقاعدة"⁶⁵.

لدى الغربيين المعاصرين اعتقاد خارق في فكرة أن هناك كياناً منظماً سيحيمهم من أي كارثة، سواء كانت طبية أو مالية أو زراعية. ويتضح ذلك من خلال ثقافة "تعدد الاختيارات" والإصلاح البيروقراطي المستمر. في هذا الصدد، لا ينبغي أن يركز الوعظ الفعال على الضرورة المزعومة لشرعية قائمة بقوة بالفعل، بل على حث الناس على التعطش للحقيقة والخير والإخلاص والأصالة، أي صوب الحقائق التي لا يمكن التحكم فيها أو إحصاؤها كميًا. وهذا دور الحوار.

بتجاوز ذلك، ينبغي أن يستند حوارنا على السؤال التالي: "ما الذي نحاول تحقيقه في حوارنا في هذه الحالة تحديداً؟". لا يمكن أن يكون الحوار عشوائياً، لا بد من وجود جدول أعمال. إذا نظرنا للأمر بشكل مختلف، فنحن نرفض التعرف على ماهية الأجندة. قد يقع بعض المسيحيين في فخ الاعتقاد بضرورة قبول الحوار كهدف في حد ذاته. ينبغي أن يتذكروا أن الحوار يتواجد باستمرار لأنه يرتبط بالرسالة الأشمل للكنيسة، التي تخدم

⁶⁴ منقول بتصرف عن ت.ج. وينتر، الهوية البريطانية المسلمة، الماضي، الإشكاليات، والأفاق، لندن، أكاديمية ترست المسلمة، 2003.

⁶⁵ راجع ش. تايلور، الحقبة العلمانية، لندن، بيلكناپ، 2007، ص. 738.

خطة الله في العالم. فقط عندما نفكر في هذا الأمر بصدق ووضوح، سنتمكن من الإجابة على الأسئلة المرتبطة بالمنهج الذي سيتم تبنيه، أو المرتبطة بالقضايا التي يجب تناولها، والأطراف التي سيتم دعوتها، أي أنها في المجمل قضايا كثيرا ما لا يتم طرحها تماما. يواجه الأكاديميون المنخرطون في الحوار تحديا محددا فيما يتعلق بدوافعهم. على الرغم من إنهم غالبا ما يجدون أنفسهم منخرطين في حوار لدوافع يفترض أن تكون ثانوية، لكنها غالبا ما تؤدي إلى الغموض إذا أسند إليها دور محوري. يجب أن يراجعوا أنفسهم: هل اشتركوا في الحوار لمنفعة شخصية أم لرفعة شأن المؤسسة التي يمثلونها؟ أم لجني الأموال؟ أم لخدمة الصالح العام؟ لا يستطيع الأكاديميون التهرب من هذه الاعتبارات المبهمة؛ ينبغي عليهم مواجهة الأمر بصدق كي لا يفسدوا جهودهم. قد تحتوي "الأجندات الخفية" الأخرى على دعم مصالح السلطة- دينية أو غيرها- أو قد تسعى لتحقيق أهداف صادقة وجديرة بالثناء، مثل تعزيز الترابط الاجتماعي.

من الضروري، إذن، أن نظهر نوايانا. شرع المسيحيون والمسلمون منذ فترة طويلة في تحليل متعمق لنية المؤمن، وينبغي عليهم أن يجعلوا منه ممارسة مكثفة بشكل خاص في العلاقات المتبادلة. يذكرنا معلمونا الروحيون أنه في قلب الإنسان، وراء المظهر النبيل، يكمن الكثير من الخداع. فليسأل المبشر أو الداعية نفسه عن ذلك، هو الذي يعمل بلا كلل من أجل تعريف الناس بإيمانهم: هل يدفعه إلى ذلك حقا حبه الصادق للآخرين أم حبه لذاته ولخلاص نفسه؟ أم إن الدافع كان، في الواقع، هو الخوف أو الرغبة في إلغاء أفضلية الآخر وجعله مساويا لنفسه؟ حتى في هذا المجال، نحتاج إلى تعاليم روحية صارمة.

نقل الحوار إلى عامة الشعب

بسبب مجال عملنا، وجدنا أنفسنا نعلم المسيحيين والمسلمين، في الساحة الجامعية، صفات بعضهم البعض ونحثهم على التأمل في العلاقات المشتركة بينهم في الواقع الأوروبي. من المفاجئ دائما أن هذا النوع من التعليم يأتي معظم ثماره- حتى في القطاع المؤسسي- في اللقاء الأول بين المجموعتين. يتفاجأ المسيحيون، الذين شُحنوا

بطاقة قلق حيال الإسلام، باكتشاف أن الغالبية العظمى من المسلمين ينبذون الإرهاب بشكل قاطع. ويتفاجأ المسلمون، الذين سمعوا في كثير من الأحيان ادعاءات مشينة حول التدهور الذي من المحتمل أن تسقط فيه المسيحية، لأنهم وجدوا الكنيسة حية للغاية ولا تزال قادرة على تقديم دور فعال في القضايا الاجتماعية والسياسية⁶⁶.

لذا، فإن أحد تحدياتنا اليوم هو كيفية نشر الحوار مع إسناد المسؤولية إلى الأشخاص لكي يعلموا ويغيروا من سلوكهم. في الواقع، لا ينبغي أن يكون الحوار مسألة نخبوية، حكرا على الطبقة الوسطى والمتعلمين، بل يجب أن يصل أيضا إلى القاعدة. ولكي ننجح في هذا، فإن الطريقة المثلى هي تقديم علم راسخ للبالغين. هناك بعض الأشخاص الذين يعملون على هذا المستوى، ويقدمون جهودا يمكن تسميتها "بالبطولية"؛ يعتقدون دورات حول الإسلام في الإبراشيات والمعابد اليهودية، ويؤثرون بهذه الطريقة على عملية التغيير الثقافي الحي. ويتضح من تجربتهم أن المسيحيين الذين يعلمون مسيحيين آخرين عن الإسلام يعتبرون وسيلة فعالة لتقديم هذه الرسالة، ولكن يشترط أن يمتلك المعلم المسيحي المسؤول معرفة كافية عن الأمر، وأن يكون صالحا، ويقود الجمع إلى لقاء حقيقي مع المسلمين.

يتعلق الأمر، بصفة عامة، بلقاء جزئي، لأن المسلم، في تقديم دينه، سيواجه دائما إشكالية طرح الاختلاف بين العرض والدعوة. ويبقى اللقاء جزئيا أيضا لأن المسيحي الكفاء غالبا ما يدير بشكل أفضل المشكلة التأويلية المعقدة للنماذج المتناقضة، التي تحدثنا عنها هنا سابقا. إن تعليم البالغين ليس مطلوباً بشكل كبير فحسب، ولكنه يأتي بثماره فورا فيما يتعلق بتعزيز الفهم المتبادل والتعاطف أيضا. على سبيل المثال، اتضح لنا عدة مرات أن التعليم الأساسي حول التنوع في الإسلام مع التركيز على الأصول التاريخية للجاليات المسلمة في المملكة المتحدة بداية من التجربة الاستعمارية في جنوب آسيا، قد أسهم بشكل جذري في تحسين صورتها.

⁶⁶ هذا لا يعني أن الديانتين تواجهان تحديات مماثلة: بالرغم مما شهدته أوروبا السفطانية الحديثة من نفور تجاه المسيحية، إلا أنها لن تساوى ذلك بنظرية الإسلاموفوبيا التي تعيق فهم الإسلام.

يعتبر الحوار وجها لوجه مهما. ولكنه قد يبدو مصطنعا وغير مثمر إذا ركز فقط على قضايا الإيمان والممارسات الدينية. فالحوار ليس ممارسة طبيعية، ولا أولوية متعارف عليها تاريخيا في أدياننا. لذلك لا يوجد سبب للدهشة إذا رأينا يتطور أكثر فأكثر في جميع أنحاء العالم من خلال العمل جنبا إلى جنب، لا سيما في المشروعات الاجتماعية على المستوى المحلي. يرتبط هذا ارتباطا وثيقا بمبدأ الاحترام: لا أحترم الآخر بسبب ما يؤمن به من معتقدات ولكن لكيفية قيادته لحياته، التي يعمرها إيمانه. إن العمل جنبا إلى جنب مع من يحركه حبه لله أمر يثير الإعجاب والتقدير. عندئذ يمكنني أن أصبح مهتما بالعلاقة بين إيمانه وحياته.

في هذا البناء المتبادل، يمكن أن يركز التقدير على الصداقة والثقة. عندئذ ندخل أرضا جديدة يصنعها الله بذاته. يجعلنا ضياء الحوار نتجاوز القوالب القديمة ونصنع من "أنفسنا" نماذج جديدة. ربما يكون هذا هو الحوار في أسمى صورته وأجملها. حوار يجعل نفسه حقا هبة لمن حصل عليها⁶⁷.

الختام

نحن ندرك أننا في كتابة هذه التأملات لجأنا إلى مصطلحي "التوازن" و "المنهج". قصدنا بهذا أن نعبر من جديد عن قناعتنا الراسخة بشدة، والتي وفقا لها لا ينبغي أن تهيمن الوكالات العلمانية على الحوار، مستغلة إياه في أمور محددة، بل ينبغي أن يكون الحوار في المقام الأول رسالة روحية ودينية، وفي النهاية لقاء بين البشر الراغبين في النضج بالإنصات لكلمة الله، محاولين فهم ما يطلبه الله منهم في ظل ظروف حياتهم.

سيوفر الحوار احتياجات ملموسة لجميع الأشخاص المعنيين، ولكنه سيعيدهم أيضا إلى صميم رحلتهم الدينية والروحية. وبنعمة الله سيكتشف هؤلاء بأنهم رفقاء في

⁶⁷ منقول بتصرف عن دراسة دقيقة لـ أ إيلجت، الإعاقة كمجال للحوار الإسلامي المسيحي، تراباني، البوتسو دي ياكوبو، 2018.

الدرب، وسيكونون قادرين على الصلاة لكي تصل روح الأخوة التي يتشاركونها للجميع،
وليسود عالمنا التعاون والمصالحة.

الأخوة في نهج البابا فرنسيس

دييجو فارس

في نهج البابا فرنسيس تُعتبر الأخوة، أن نكون إخوة، قيمة مركزية وذات طابع ممنهج. إذا "تجاوزناها"، معتبرين إياها أمرا مسلما به، أو إذا تعاملنا معها دون اهتمام، وكأننا نقول بأن كلمة "إخوة" تكفي لتقينا إغواء اللامبالاة والبيروقراطية والاستبداد، فسيعني هذا أننا لم نعمق بشكل كاف مدى ثرائها وقدرتها على إنتاج آليات إيجابية. نوظف هنا- قصدا- تعبيراً إنجيلياً ورد في مثل السامري الصالح، أي "تجاوز"، لأنه إذا كان مبرر الكاهن واللاوي في عدم الاقتراب من الجريح رسمياً- وهو ألا يتلوثا-، فإنه من الجيد أن نتذكر أن القانون، رغم حظره "المس" الجثث على سبيل المثال، كان يستثني أفراد الأسرة المقربين⁶⁸. إن الإصرار على أخوة تقوم على أفعال ملموسة، وتعميقها، يسمح بالتغلب على الانقسامات الزائفة⁶⁹.

الأخوة هي الموضوع الأول الذي أشار إليه البابا فرنسيس يوم انتخابه، عندما أحنى رأسه أمام الناس وأعرب، معرفا العلاقة بين الأسقف والشعب على أنها "مسيرة أخوة"، عن هذه الرغبة: "نحن نصلي دائما: كل منا من أجل الآخر. دعونا نصلي من أجل العالم كله، لكي نحظى بأخوة كبرى"⁷⁰.

ومنذ ذلك الحين، مرت مسيرة الأخوة هذه، التي بدأها هو بحسم، بمحطات عديدة مهمة. أحدثها وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك⁷¹. يوضح الإمام الأكبر والبابا في هذه الوثيقة الموقعة في أبو ظبي أن كل ما توصلنا إليه

*العنوان الأصلي: "الأخوة الإنسانية. قيمتها المركزية والممنهجة في نهج البابا فرنسيس".

⁶⁸ منقول بتصرف. ج جيرمياس، أمثال يسوع، بريشا، بايديا، 1973، ص. 248.

⁶⁹ منقول بتصرف، ف. كونر، "الأخوة الإنسانية. تأملات في وثيقة أبو ظبي"، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2019، II، ص. 313-327.

⁷⁰ فرنسيس، التحية الأولى لقداسة البابا، 13 مارس، w2.vatican.va

⁷¹ منقول بتصرف، فرنسيس وأحمد الطيب، وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك، أبو ظبي، 4 فبراير 2019.

كنتاج لعمل مشترك لأكثر من عام نشأ من هذا "المعنى المركزي": "يقود الإيمان المؤمن إلى أن يرى الآخر أخًا جديرا بالدعم والمحبة".⁷²

تعتبر الأخوة "نقطة انطلاق" حقيقية: في كل الكائنات الحية يوجد ما يدفعنا لأن ننظر إليهم على أساس كونهم "إخوة"، سواء باعتبار الأصل المشترك أو وجود إمكانية للتآخي بيننا. ولكونها نقطة انطلاق، تكتسب الأخوة قيمة ممنهجة كما أوضح كريستوفر ثيوبالد. يكشف اللاهوتي اليسوعي عن أن البابا عندما يتحدث عن "شركة كونية" (فرح الإنجيل *Evangelii gaudium*، 92) فإنه يفعل ذلك "بشكل ممنهج"، لأن الأمر لا يتعلق بمعطى صريح، ولكن بمسألة "محورية" بكل المقاييس، "مسألة أسلوب"⁷³. ونحن نعلم أن "الأسلوب المسيحي لا يقوم على صيغة وأذواق، بل على محتوى الإعلان الجمهوري كيرجيما، أي على الرعوية والمذهبية"⁷⁴.

إذا نظرنا إلى "حبرية" فرنسيس من حيث معنى هذا المصطلح، أي من حيث الجسور التي بناها البابا، فيمكننا أن نؤكد أن طلبه الأول للصلاة لم يكن مجرد تعبير عام عن رغبة شخصية، بل كان سؤالاً محددًا، أي نقطة انطلاق حقيقية، جعل البابا منها مسؤولية يحملها على عاتقه، ثم بدأ يحولها إلى حقيقة على أرض الواقع خطوة بخطوة. إن اختيار اسم "فرنسيس" والاجتماع مع إمام الأزهر الأكبر، في الذكرى السنوية 800 للقاء القديس فرنسيس مع سلطان مصر، هي حقائق لا تحتاج إلى شرح، بل تدعو إلى التأمل لتعميق معناها.

سننتقل إلى موضوع الأخوة من خلال أربع خطوات: أولاً سنتفكر في تجربة الأسرة؛ ثم نحلل رسالة الإنجيل في هذا الصدد؛ ثم سنقدم تأملًا أكثر عمقا لها من وجهة نظر فلسفية؛ وأخيرا، سنوضح كيف تساعد الأخوة في حل الانقسامات على المستوى الاقتصادي والاجتماعي.

قصص إخوة

⁷² الاستشهاد نفسه.

⁷³ ك. ثيوبالد، الأخوة. التوجه الجديد للكنيسة بالنسبة لبابا فرنسيس، مانيانو (بي)، كيكايون، 2016، ص. 60.

⁷⁴ إ. بيانكي، "المقدمة" في ك. ثيوبالد، الأخوة... نفس البيانات، اقتباس ص 8.

كنا نتحاور في روما، في مطرانية سان سابا- مركز استقبال اللاجئين الذي يديره سنترو أستالي⁷⁵- مع أخين، غير شقيقين، ولكنهما صديقان: مورو، من زامبيا، وشير، من باكستان. تحدثنا قليلا عن كل شيء: بلادنا، المناخ، 2 مليون نسمة هم سكان زامبيا ("لسنا دولة - قال مورو، ضاحكا - بل مقاطعة")، و 220 مليون نسمة في باكستان، و 46 مليون في الأرجنتين... وكالعادة، سألتهما عن عائلتيهما، وكم عدد إخوتهما. جعلهما السؤال يبتسمان وأخرجهما قليلا.

تحققت من الدرجة القصوى من "التهيئة الذهنية" أمام سؤال لا يتناسب مع مخططات المرء عندما سألت صديقا آخر، قبل بضع ليالٍ، وهو مصطفى، عن عدد أفراد عائلته. بدأ بالعد أولا في عقله، ثم على أطراف أصابعه: كان لوالده أربع زوجات، أنجب خمسة أطفال من أمه، ومن الأخرى.... لم نتمكن من حصرهم بدقة، لكن الرقم الإجمالي كان لا يقل عن 28 أبا شقيقا وغير شقيق. من الواضح أنه كان يعرف إخوته الأربعة من والدته جيدا، لكن الأمر ليس كذلك مع الآخرين. ويظهر الفرق في العمر في أن بعض الأبناء الذين ولدوا من الزواج الأول لوالده كانوا أكبر منه بحوالي ثلاثين عاما.

في ذلك المساء، أخبرني مورو عن نفسه، هم خمسة أبناء من والدته، وهناك أربعة آخرون. ابتسم شير وأخبرني بأنه كان يعتقد أنني لم أفهم أنه يمكن للمسلمين الزواج بأكثر من امرأة، وأن مورو كان يجد صعوبة في إخباري عن عدد إخوته لهذا السبب. قلت له إنني فهمت ذلك بالفعل. وبينما كنت أقول ذلك أدركت أن استيعابي للأمر كان غير كامل، لأنه عندما يكون لديك نفس الأب وإخوة غير أشقاء من أمهات أخريات هو أمر يكشف عن اختلاف وجودي عميق. ومع ذلك فإنه يقوم على المساواة!

يمكننا شرح ذلك في ضوء مثال: عندما نناقش القضايا اللاهوتية بين المسلمين والمسيحيين، بين اليهود والبوذيين، نجد أن التصور النهائي عن الله واحد، لكننا ندرك أن الصور- أو غيرها- والمشاعر التي يزدحم بها هذا المفهوم، تخلق نوعا من الشعور بالاختلاف والتباعد. عندما نتحدث عن "الإخوة"، على النقيض، تثير الصور والمشاعر

⁷⁵ مركز أستالي هو المقر الإيطالي لخدمات اليسوعيين والمهاجرين (JRS).

التي تستدعيها هذه الكلمة، والشعور بالاختلاف ذاته، تعاطفاً. نتفهم شعور البعض بالإحراج حيال وجود إخوة كثيرين غير أشقاء، في ظل مجتمع تغلب عليه فكرة الأبناء الأشقاء. إن الأصدقاء والتداعيات الشخصية والاجتماعية لا حصر لها. أن تكون طفلاً وحيداً يولد هذا بداخلك الرغبة في أن يكون لديك العديد من "الإخوة بالاختيار"، كما نعتبر أصدقاءنا، أو يدفعك هذا نحو العزلة الذاتية. يمكن أن يؤدي وجود عدد كبير من الأشقاء إلى انغلاق قلبي أو إلى شعور أعمق بالقرابة. تتيح ديناميكية الأخوة دائماً المجال أمام اتخاذ القرار، والاختيار الحر المتوافق، وعلى أساسه نكون إخوة بدرجة أكبر أو أقل.

الأسرة وراء وجود الأخوة في العالم

الأسرة هي "المكان حيث يتعلم المرء التعايش في الاختلاف، والانتماء إلى آخرين" (فرح الانجيل، 66). في الحياة الأسرية، الأخوة هي العلاقة التي تبدأ بوصول الطفل الثاني أي الأخ الأول. هي علاقة تلي العلاقات السابقة—علاقة زوجية، أبوة/أمومة وبنوة— لكنها عندما تحدث، تغير من العلاقات السابقة، ويمكننا القول إنها، تحملها على الاكتمال، تسمح لها بالتأثير على الروابط الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والدينية. يفتح الابن الثاني، مقيماً بمجيئه هذه العلاقة العائلية الجديدة، أبواب الأسرة على الحب والأخوة الاجتماعية. وهكذا مع الأخوة التاليين. ويؤكد البابا فرنسيس قائلاً: "إن الأسرة هي علاقة ترابط شخصي من الدرجة الأولى لأنها عبارة عن شركة بين أشخاص. الحياة الزوجية والأبوة والأمومة والبنوة والأخوة تجعل الفرد قادراً على الاندماج في العائلة البشرية"⁷⁶.

خلال الإرشاد الرسولي فرح الحب (Amoris laetitia) (AL) خصص البابا قسماً لـ "أن نكون إخوة"، وفيه يعلن "تتعمق العلاقة بين الإخوة مع مرور الوقت. ويتكون رباط الاخوة في العائلة بين الاخوة، إذا تم في جو من تعليم الانفتاح على الآخرين. فيكون

⁷⁶ فرنسيس، كلمة إلى المشاركين في اللقاء المنظم تحت رعاية المؤسسة الفيدرالية الأوروبية لمؤسسات الأسر الكاثوليكية (FAFCE)، 1 يونيو 2017.

هذا الرباط مدرسة كبيرة من الحرية والسلام. ففي العائلة، وبين الإخوة، يتم تعلم التعايش الإنساني [...]. ربما لا ننتبه غالباً بان العائلة هي بالتحديد التي تدخل الأخوة الى العالم! فمن خلال هذه التجربة الأولى من الأخوة، والتي تغذت بالعاطفة والتعليم العائلي وبنمط الأخوة، يسطع مثل وعد جميل على المجتمع بأكمله " (فرح الحب، 194).

كيف يفتح الحب الأخوي الطريق للعلاقات الاجتماعية التي تحترم التنوع؟ إليكم ما قالتها إحدى الأمهات بمناسبة ولادة طفلها الثاني: "الأمر الأكثر أهمية هو أن الطفل الثاني" يؤكد على ما كنا نشك فيه من قبل (رغم الفزع الشديد...)، أي أنه من الممكن أن نحب ابنا آخر بنفس الشغف والقوة التي منحناها للطفل الأول".

ما تعبر عنه هذه الأم هي تجربة عميقة من أن الحب لا يقل، كلما زاد توزيعه، ولكن يحدث النقيض. كما تؤكد هي نفسها، إنها ليست تجربة بسيطة، أي ليست خالية من المخاوف. مثلما ينقل الآباء هذا الحب المتحد بالاختلاف إلى الأطفال، فإن نفس الاختلاف هو أصل النزاعات بين الإخوة. ولكن، كما يشير البابا: "الوحدة التي يجب أن نطمح إليها ليست وحدة التطابق، بل هي "وحدة في التنوع" أو "تنوع متناسق". بفضل هذا النمط الغني من المشاركة الأخوية، يجتمع من هم مختلفون، ويحترمون بعضهم البعض، ويقدرهم بعضهم البعض، مع الحفاظ على الفروق والنبات الشخصية المختلفة التي تُغني الخير المشترك. هناك حاجة للتحرر من فكرة وجوب أن نكون جميعاً متطابقين" (فرح الحب، 139).

ينبغي التوقف عند هذه العبارة. فهي، في الواقع، تميز أعمال الخداع والعبودية الكامنة وراء عبارة "وجوب الاختلاف" الذي تعتبره كل الهويات أحد المسلمات. ولمعارضة هذا المفهوم، ترسي وثيقة أبو ظبي مفهوم الحرية موضحة أن: "التَّعَدُّبِيَّة والاختلاف في الذِّين واللون والجنس والعِرْق واللُّغَة مَشِيئَةٌ إلهِيَّةٌ، خَلَقَ اللهُ البَشَرَ عليها".⁷⁷

الطابع الوجودي للأخوة

⁷⁷ فرنسيس وأحمد الطيب، وثيقة الأخوة الإنسانية.

تتركز النقطة الفاصلة في الصفة الوجودية الأساسية التي تميز تجربة المساواة والاختلاف في الوقت ذاته التي تمنحها علاقة الأخوة. تتنوع صور المساواة والاختلاف بين الإخوة كما هو حال الإخوة أنفسهم. ولكن هناك يقينا يملؤنا بالدهشة حتماً، وهو أن كلا من الإخوة يفهم بالضبط ما يشعر به الآخر، ويظهر ذلك في عبارة: "نحن أبناء من نفس الوالدين ولكننا مختلفون". نحن نبدأ في فهم والدينا عندما نصبح نحن أبناء؛ لكن مع الإخوة، تنمو الأخوة بشكل ثابت ومتكافئ.

تكمن خصوصية ما نسميه بـ"الصفة الوجودية" في حقيقة أن آلية الأخوة تعمل من الداخل إلى الخارج، من الكل إلى الأجزاء. توحد الروابط العاطفية أولاً مركز كياناتنا الشخصي، وهو كوننا أبناء، ثم، وبآلية مختلفة، تنطلق نحو الأجزاء الأخرى. لهذا السبب، تكون الوحدة قوية للغاية وقادرة على إعادة إصلاح ما تحطم على مستوى الأفكار أو المشاعر أو الاختيارات، انطلاقاً من ذلك المركز الشخصي-العائلي.

مقارنة بإخواننا، يمكننا أن نفكر بشكل مختلف، ونحظى بمشاعر مختلفة، ونتخذ خيارات حياتية مختلفة، ولكن يبقى اليقين أنه إذا نشأ صراع في أحد هذه المستويات، فسيكون من الممكن حله- أو العمل على تداركه، على أقصى تقدير، إذا استحال إيجاد حل له- حتى لا تنكسر الرابطة الأخوية تماماً.

يمكننا رؤية مثال، يشرح آلية التجاوز، في الخلافات بين الإخوة، إذا انتقلت هذه الخلافات إلى الأطفال والأحفاد، وهذا لا يحدث من تلقاء ذاته، كما يمكن أن يحدث بين أولئك الذين لا تربطهم صلة دم. يعيد الرابط بناء نفسه بمرور الوقت أيضاً، حتى وإن كان هناك تباعد بين أفراد الأسرة. إنه مفهوم الترياق الذي يقضى على فيروسات الكراهية ذات الطابع الأيديولوجي، والمجرد. يسهم التواجد الفعلي للآخر وجهها لوجه في إذابة- بسبب الهشاشة البشرية- الغضب الذي تعززه، على النقيض، وسائل التواصل الافتراضية.

يسهم طابع الأخوة الوجودي، إذن، في إعادة تقارب الأفكار، على الأقل من حيث مبدأ عدم الاستجابة لفكرة أن الصراع الناشئ عن التفاوت في الآراء ووجهات النظر قد يتفوق بأي حال من الأحوال على الأخوة.

الامتداد في التجسد، ميثاق سيشهد علينا

في رسالة إلى الأستاذة أرتشر، رئيس الأكاديمية البابوية للعلوم الاجتماعية، يعرض البابا الأسباب الأساسية لأهمية الأخوة من خلال كلمات الرب: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبني فعلتم" (متى 25، 40). يستخلص فرنسيس نتيجتين أساسيتين من هذه الآية، التي أراد أن يشير إليها منذ بداية حبريته. النتيجة الأولى هي: "نجد في الأخ لكل منا الامتداد الدائم للتجسد" (فرح الإنجيل 179). والثانية هي: "الميثاق الذي سوف ندان به يدور حول الأخوة"⁷⁸.

لذلك يضع البابا الأخوة في وسط الجدل البناء بين التجسد والدينونة. يمكننا أن نقول إن الأخوة- أن ندنو من الآخرين كإخوة- تضعنا في الحاضر، من خلال امتداد تجسد الرب في الماضي، مستبقة يوم الحساب المستقبلي.

إن امتداد التجسد من خلال الأخوة يظهر على مستوى يتطلب فعلا قائما على إرادة حرة. السؤال ليس: "من هو (أخي) قريبي؟"، ولكن: "لمن أجعل نفسي (أخا) قريبا؟". في الواقع، لا تعتمد الأخوة الروحية على الجسد أو الدم، بل على الروح (راجع يونان 1، 13)، وتحدث في إطار حر، وهو إطار "التقارب/التأخي". تتبع الأخوة في المسيح من بنوة مشتركة، وهي ثمرة الروح، وليست من لحم ودم. إذا قبلنا المسيح كأخ، فإننا نمنح "سلطان أن يصيروا أولاد الله" (يونان 12، 1).

تعتبر الأخوة- وستظل هكذا- ميثاق الدينونة، الذي يمكننا "استباقه" كل يوم. يمكننا فهم هذا الحدث الأعظم من أبعاد مختلفة. الأول هو التفكير فيما نحتاج إلى القيام به لإنقاذ أنفسنا، أي مساعدة إخواننا من خلال تعلم التعرف على المسيح فيهم. وأن نجد

⁷⁸ فرنسيس، رسالة إلى الأستاذة الدكتورة مارجريت أرتشر، رئيسة الأكاديمية البابوية للعلوم الاجتماعية، خلال الجلسة الافتتاحية، 24 إبريل 2017.

في هذه الخدمة إمكانية تنفيذ أعمال متسامية، تلك الأعمال التي تمنح الاستحقاق الحقيقي، عملة المقايضة الوحيدة لكسب الفردوس، إذا جاز لنا التعبير عنها بهذه الطريقة، مقارنين بين هذا الموقف الأخوي والتحقق الذاتي المستقل لأنفسنا. لكي ندخل ملكوت السموات، علينا ألا نهتم بالأعمال التي تهدف إلى الكمال الذاتي، ولكن بالمحبة لإخواننا. وبما أن المسيح يربط ذاته بهم، لذا فإن ما نقوم به لأجلهم يكتسب قيمة مطلقة. لكن هذه القراءة تظل مرتكزة على استحقاقنا.

مفتاح آخر للقراءة ينطلق مما يقوله الرب لنا في مثل يوم الدينونة (راجع متى 25: 31-46). هنا يجب علينا أن نعمن النظر ليس في فكرة "الوصية بالقيام بأعمال جيدة تجاه الفقراء"، ولكن في نظر الرب للأشياء التي اعتاد الجميع فعلها بنسب متفاوتة: فإطعام الصغار، على سبيل المثال، هو أمر يتم بشكل طبيعي في كل الأسر، وكذا مساعدة المحتاجين. على الرغم من أن هذا الموقف مهدد اليوم- " فلنساعد المهاجرين في ديارهم"، كما يقال- لا يمكن لأحد التشكيك في فعل مساعدة الآخر الإنساني حتى الصميم. إذا تمكنا من استيعاب أن الرب يتمثل في الفقراء كي نتاح لنا الفرصة لنحبه بشكل ملموس، في جميع الأوقات، لكي نسمو بأفعالنا البشرية، سيتغير كل شيء. ابن الأب الوحيد الحبيب، في اللحظة التي دخل فيها التاريخ في صورة ابن الإنسان، دخله كأخ. الأخوة هي العلاقة الأسرية التي تتسامح فيها المساواة والاختلاف وتشير إلى اختيار الرب لأسلوب يمكن مشاركته بحرية. كأبناء، ينبغي أن يتولى أمرنا أبوان. أما كأخوة، فيعرض علينا التآخي، وتُقبل فيه. بهذه الطريقة، يقدم لنا الرب الأخوة بوصفها الواقع الذي يريدنا، من خلاله، أن نطيل تجسده، وأن ندخله في حياتنا وزماننا.

إن تحقيق التآخي فيما بيننا هو الأمر الذي يساعدنا أكثر من غيره، ويبين لنا الطريق لنلتقي الرب. لا ينصب الاهتمام فقط على "إطعام الآخر"، ولكن على التعامل معه كأخ، وبهذا يصبح تقديم الطعام له أمراً تلقائياً، كما هو الحال في الأسرة، يجد مقياسه الصحيح، الذي لا يجب أن يرتبط بأي معايير كمية خارجية.

بهذه الطريقة تظهر الأخوة كآخر علاقة عائلية بعد الزيجة والأبوة والأمومة والبنوة. وهي العلاقة التي، بالنظر إلى العلاقات السابقة، تغمرها جميعا بطاقة الحب الحقيقي (محبة وصداقة). يمكن لحب التملك والمحبة المثمرة أن يكونا مطلقين في الله فقط، فالأب الوحيد هو الأب في السماء، والزوج الوحيد هو يسوع، ولكن كإخوة، يمكننا جميعا أن نكون كذلك حقا. يتطلب ذلك حرية منا: أن نقبل بعضنا وأن نحب بعضنا كإخوة. وهي علاقة يمكننا أن ننمو فيها ونحتضن الجميع، كما يقول بولس: "ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب، إنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، [...] ليس يهوديا ولا يونانيا ليس عبدا ولا حرا ليس ذكرا وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلاطية 3. 25-28).

إلى جانب ذلك، فإن الله، غير المرئي، يمكن معاينته فقط من خلال إنكار الذات الواضح: "من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره" (يونان 1. 20، 4). لهذا السبب قدم لنا الرب طريقة "لنبصره" من خلال استعدادنا روحيا لكي نحب الإخوة الذين نبصرهم⁷⁹. الأخوة إذا هي وسيلة الملكوت، ومن خلال هذه الوسيلة يمكن أن يأتي الروح القدس ويعيش ويتصرف. إنه بحاجة إلى إطار الأخوة، التي تعادلنا بالمسيح، وهي اختيار حر يؤخذ عن طريق المفاضلة، ويتطور بمرور الوقت ويسمح بالاختلاف لمن هم سواسية.

الرغبة في الأخوة الحقيقية: مثل المائدة

كيف يوقظ الرب فينا الرغبة في الأخوة الحقيقية؟ نرى الصورة المعبرة عن ذلك بشكل أكبر في مشهد العرش، الموجود في العديد من الأمثال الكتابية. ترتبط هذه الصورة بالأخوة، لأنه، بشكل عام، يتم تقديم العلاقة بين الأخوة من خلال الجلوس سويا حول نفس الطاولة. تلك هي الدلالة. في مثل الأب الرحيم (لوقا 15: 11-32)، تتسبب المأدبة

⁷⁹ "محبة الناس قوة روحانية تسمح بلقاء الله الكامل إلى حد أن الذي لا يحب أخاه" في الظلمة يسلك" (يونان 1، 2-11)، و"يبقى في الموت" (يونان 1، 3-14) و"لم يعرف الله" (يونان 1، 4-8). قال بينديكت السادس عشر إن "غض النظر عن الآخر تعمي أيضا أمام الله"، وإن الحب هو مصدر النور الوحيد الذي "ينير بدون انقطاع من جديد عالما غارقا في الظلمة والذي يشجعنا على الحياة والعمل" (فرح الإنجيل، 271).

التي يقدمها الأب في إزالة القناع عن الأخوة التي تدهورت على مر الأعوام. غادر الأخ الأصغر المنزل دون أن يهتم لأمر الأخ الأكبر: لقد تحدث إلى والده فقط. وعندما تاب، فكر في الأجراء، وليس في الأخ، لأنه استشعر بالطبع صراعا معه. الأخ الأكبر لا يريد أن يشارك في الولايم، ولا يعتبر الآخر ابنا صالحا للأب. لا يشير أحدهما أبدا إلى العلاقة بينهما، بينما يصر الأب تحديدا على النقطة: "ابنك هذا"، يقول الأكبر؛ بينما يرد الأب بهدوء "أخاك". يؤكد الأب على الأخوة قبل معالجة أي مشاكل أخرى تتعلق بالمساواة أو الأفكار.

الجدير بالذكر أن الرب يروى هذا المثل إلى أولئك الذين يوبخونه على أنه "كان يأكل مع العشارين والخطاة"، موضحا أنه يأكل "مع الإخوة". إن الجلوس حول نفس المائدة هي إشارة عن "الأخوة الحقيقية". وعرقة هذا، لأي سبب من الأسباب، يعتبر تكرارا لموقف الابن الأكبر في المثل.

باختياره الاكتفاء بالخبز والنبيد، ينأى الرب هكذا عن أي شيء مادي ملموس قد يبعده عن المعنى العميق لتلك الأشياء: أن يُتناول على مائدة الأخوة. يختار الرب الخبز والنبيد، لأنهما يقيدا رباط الأخوة، التي هي الجلوس حول المائدة نفسها وتقاسم الطعام نفسه. وتحقيقا لهذه الغاية، غسل أقدام جميع التلاميذ، حتى يهوذا. إن المائدة هي الإطار الأكثر ملاءمة "لجدارة" المشاركين فيها: باعتبارهم أخوة رغم اختلافهم.

الصدائة، بين حب العائلة وحب الأصدقاء

اجتمع الرب حول المائدة المشتركة وأوصاهم: "أحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم أنا". تشير "كما" بشكل أساسي إلى أسلوب الرب الأخوي: نحب بعضنا البعض كإخوة. يؤكد البابا في الإرشاد الرسولي المسيح يحيا (Christus vivit) (CV): "إذا كانت المحبة الأخوية هي "الوصية الجديدة" (يونان 13:34)، إذا كانت "كمال الشريعة" (روم 10:13) إذا كان هذا هو أفضل ما يظهر حينا لله، فعليها أن تحتل مكانا مناسبا في جميع خطط تنشئة الشبيبة ونموهم" (المسيح يحيا، 215).

هذه الوصية توظف رغبة شديدة الخصوصية في التقليد، تلك التي تنشأ عندما نرى أبا يعامل أخاه بحب. إنها الرغبة في التقليد الأكثر قوة، وهي غير مشروطة، ويمكننا أن نرغب في امتلاكها دون قيود. من خلال ممارسة هذا الحب الأخوي، تنمو الأخوة بشكل متساوٍ وبالتالي تنمو الأسرة بأكملها.

تقدم الأخوة تعريفاً للصدقة أيضاً. يُقال إن الأصدقاء هم الإخوة الذين نخترهم بحرية. فإذا كان الرابط مع الوالدين هو نواة وحدة الدم، التي تعلو على جميع الخلافات من خلال احتوائها في إطار طبيعي، فإن رابطة الصداقة مع شخص ما، ليس فرداً من العائلة، يصف ويوضح طابع الحرية- الحسي- لتلك العلاقة. تتوسط الأخوة هكذا صورتين من صور الحب- إحداهما تقوم على أساس الدم والأخرى على أساس الحرية- محولة رابط الدم إلى رابط حر، ومجسدة الرابط الروحي.

هذه هي آلية عمل الحلقة الحميدة التي تنقل الأخوة وتمدها إلى كافة صور العلاقات الاجتماعية.

تسمح الأخوة بالاختلاف لمن هم سواسية

هذا هو السبب في أن "الأخوة" هي الكلمة المفتاحية، كما يشير قداسة البابا. من المؤكد أنه، إذا أردنا التغلب على الانقسام الحالي، على المستوى الاقتصادي، بين "نظرية الاكتفاء، التي ستكون وحدها كافية لتنظيم العلاقات بين البشر داخل مجال الاقتصاد، ونظرية التضامن، التي من شأنها أن تنظم العلاقات البينية داخل الإطار المجتمعي"⁸⁰. لا يكفي التحدث عن "التضامن" وحده، لأنه يمكن أن يكون هناك تضامن بدون أخوة. لكن، الأخوة تحتضن في داخلها التضامن، إنها مفهوم أكثر شمولية. "في حين أن التضامن هو مبدأ التخطيط الاجتماعي الذي يسمح للأشخاص غير المتساويين بأن ينالوا المساواة، فإن الأخوة تسمح للأشخاص بالاختلاف. تعطي الأخوة مجالاً للأشخاص المتساويين في جوهرهم وكرامتهم وحريتهم وحقوقهم الأساسية، بالمشاركة بشكل

80 فرنسيس، رسالة إلى الأستازة مارجريت أرتشر.

مختلف في الصالح العام وفقا لقدراتهم أو لخطة حياتهم أو لمهنتهم أو لاستجابتهم لخدمة الله". 81

إن "المساواة" التي تحترم التنوع وتقره حقا هي المساواة في الكرامة الفردية والشخصية، قبل أي شيء آخر. يعتبر احترام الآخر وإشعاره بأنه أخ أساسا لأي علاقة شخصية واجتماعية، لأنه يحقق الإنصاف والمساواة في الكرامة حتى قبل الفعل. لا توجد علاقة اجتماعية حقيقية خارج هذا الإطار الأخوي، الذي لا يمكنه أن يكون أحادي الجانب أبدا، لأنه يجب على جميع الإخوة الاتفاق على مفهوم ما هو "أخوي"، بدءا من تنوعهم المقبول والمحترم.

المفتاح لعدم تحريك المشاكل

في ظل الاستقطابات التي تمر بمجتمع اليوم، وبغض النظر عن الموضوع محل النزاع المحدد، فإن السبب الأساسي يكمن في تحريك المشاكل من الساحة الوجودية- التي هي مسألة حياة أو موت وغالبا ما يتم طمسها- إلى الساحة الأيديولوجية، التي تتجمد وتستمر إلى ما لا نهاية. في الكثير من خطابه وخاصة في الرسائل العامة والإرشادات الرسولية، يقدم البابا إسهامه للتمييز بين المشاكل الرئيسية والمشاكل الثانوية. تعتبر الأخوة أحد مفاتيح العلاقة مع الله ومع الآخرين: الأسرة، المجتمع، الكنيسة، السياسة.

توحي الأخوة بوجود أب واحد، إما أن يتم قبوله وفقا لأفكار لاهوت الخلق، أو أن يكون وجوده محسوسا بشكل تلقائي من خلال ما نحياه من حب أخوي مع الآخر: القريب. كتب البابا في الإرشاد الرسولي افرحوا وابتهجوا *Gaudete et exsultate* (GE): "وسط الغابة الكثيفة للمبادئ والشرائع، يفتح يسوع ثغرة تسمح بتمييز وجهين: وجه الأب ووجه الأخ. هو لا يسلمنا صيغتين أو وصيتين إضافيتين، بل يسلمنا وجهين، لا بل وجهها واحدا، هو وجه الله الذي ينعكس في وجوه عديدة. لأنه في كل أخ، لا سيما

في الصغير والضعيف والأعزل والمعوز تكون حاضرة صورة الله عينها" (افرحوا وابتهجوا، 61).

لا تسمح الأخوة بتحريك مشكلة الله إلى المجال "المثالي" أو "العقائدي": فهي تضعها في المجال الواقعي لعلاقات العدالة والرحمة والمحبة تجاه الأخوة الفعليين. لهذا السبب يحث البابا في الإرشاد الرسولي المسيح يحيا (CV) Christus vivit: "سوف أكون سعيدا برؤيتكم تركضون أسرع من أولئك البطيئين والخائفين. اركضوا "منجذبين بذاك الوجه الحبيب، الذي نعبد في القربان المقدس ونراه في جسد الأخ المعذب" (المسيح يحيا، 299).

تعتبر الأخوة هي النسيج الذي يسمح لعلاقتنا الاجتماعية أن تقوى عبر احترام التنوع. يذكرنا البابا في الإرشاد الرسولي فرح الحب Amorsī lāitate: "فالله قد عهد إلى العائلة بمشروع جعل العالم عالما عائليا، حتى يصل الجميع إلى الشعور بأن كل إنسان هو بمثابة أخ" (فرح الحب، 183).

لا تسمح الأخوة بالانفصال عن الإنجيل، فهي تناضل من أجل العدالة الاجتماعية وسلامة الكون. لذلك يتحدث الإرشاد الرسولي فرح الإنجيل عن "الحماس بأن نحيا في إنجيل المحبة والعدالة!" و("الأولوية المطلقة للخروج من الذات نحو الأخ") (فرح الإنجيل، 179).

كما يذكر الإرشاد الرسولي افرحوا وابتهجوا Gaudete et exsultate أن يسوع نفسه "قد جعل نفسه ضاحية (فيلبي 2، 6-8؛ يونا 1، 14). لذا، فإن تجربنا وذهبنا إلى الضواحي فسوف نجده هناك: هو يسبقنا إلى هناك. يسوع يسبقنا في قلب ذاك الأخ، وفي جسده الجريح، وفي حياته المظلومة، وفي نفسه المظلومة. هو هناك" (ابتهجوا وافرخوا، 135).

وتتحدث الرسالة العامة كن مسبحا 'Laudato si' (LS) عن: "أختنا وأمنا الأرض" (1) وعن: "أخوة كونية" (228)، على غرار القديس فرنسيس الأسيزي: "وقد روى أحد تلاميذه، القديس بونافينورا، أنه" انطلقا من اعتبار أن لجميع الأشياء

أصلا مشتركا، كان يشعر بأنه مغمور برأفة أكبر، وكان يدعو المخلوقات، مهما كانت صغيرة، أبا وأختا" (كن مسبحا، 11). تعتبر الأخوة معيارا يتجه نحو التمييز الذي هو ليس بتحليل ذاتي متعجرف، وليس استنبطانا أنانيا، بل خروج حقيقي من ذواتنا باتجاه سر الله، الذي يساعدنا على عيش الرسالة التي دعانا إليها لصالح خير الإخوة" (افرحوا وابتهجوا، 175).

وهكذا نرى، في نهج البابا فرنسيس، أن الأسلوب الأخوي وتصرفات الأخوة الواقعية تساعد على الوصول إلى أساس الصراعات ذاتها دون الاشتباك معها. الأخوة هي السلوك الذي يجعل إيجاد طرق للتغلب على أي عقبة ممكنا. لذا، ينبغي تعميق وتقوية هذه الرابطة غير القابلة للتحطم، ولا للاستغناء عنها.

اللاهوتية في سياق دول البحر الأبيض المتوسط*

بينو دي لوتشو- فرنسيسكو راميريز فويو

شارك البابا فرنسيس، 21 يونيو الماضي، في ندوة بعنوان "اللاهوت بعد فرح الحقيقة في سياق دول البحر المتوسط". كانت الندوة، التي نظمها قسم لويجي في كلية اللاهوت البابوية لجنوب إيطاليا في بوسيليبو (نابولي)، تتضمن تحليلاً للسياق المتوسطي (في 20 يونيو)- وبشكل خاص للتوترات والصراعات الناتجة عن الهجرة المستمرة إلى أوروبا من بلدان إفريقيا، وآسيا، والشرق الأوسط- واقتراحاً للحلول (في 21 يونيو). ألقى البابا فرنسيس، في 21 يونيو، خطاباً عن موضوعات المؤتمر، مقترحاً فكرة لاهوت الضيافة المتبادل القائم على الحوار كحل للتوترات. وعلاوة على ذلك، قدم بعض التطبيقات العملية لـ"فرح الحقيقة"، الدستور الرسولي الذي يجدد الدراسات الكنسية وطريقة دراسة وممارسة اللاهوت.

في الصفحات التالية، نربط بين موضوعات حديث البابا فرنسيس المتعلقة باللاهوت والدراسات الكنسية وتطور فكره. ونقدم بعض الأطروحات من الكتاب المقدس لفكرة لاهوت الضيافة. وأخيراً، نطرح بعض الاقتراحات حول تنفيذ إصلاح الدراسات الكنسية المنشود في "فرح الحقيقة"، كمثال لتجديد خطاب البابا فرنسيس⁸².

لاهوت الضيافة

في بداية "خطاب بوسيليبو"، أشار البابا فرنسيس إلى الوثيقة التي وقعها مع شيخ الأزهر، الإمام الأكبر، أحمد الطيب، 4 فبراير، في لقاء أبو ظبي. في هذا الاستشهاد، يبين البابا بعض الاسئلة التي كانت نواة تلك المقابلة وصياغة الوثيقة: "كيف يمكننا أن نصون بعضنا البعض داخل الأسرة البشرية الواحدة؟ كيف يمكننا تطبيق تعايش عادل

*العنوان الأصلي: "اللاهوت وتجديد الدراسات الكنسية. إشارات فرنسيس في حديث بوسيليبو".
82 حول نفس الدستور الرسولي، انظر ب. دي لوتشو- ج.ل. نارفايا، "فرح الحقيقة وتجديد الدراسات الكنسية"، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2019، ص. 272-283.

وسلمي يترجم إلى أخوة حقيقة؟ كيف نعزز في مجتمعاتنا الترحيب بالآخر ومن يختلفون عنا لأنهم ينتمون إلى تقاليد دينية وثقافية مختلفة عن تقاليدنا؟"

بالإشارة إلى وثيقة أبو ظبي، يُقدم اللاهوت الذي يقترحه البابا فرنسيس في خطاب بوسيليو كلاهوت قبول الغريب. بالنسبة إلى البابا، لا ينبغي أن يتم فصل اللاهوت في سياق البحر المتوسط عن التبشير ويجب أن تتم ممارسته عن طريق الحوار.

إن غاية اللاهوت العملية- فيما يخص التبشير- هي عنصر أساسي في فكر البابا فرنسيس. سرعان ما تتجلى ثقافة اللقاء الحوارية كسمة اقتراح بيرجوليو اللاهوتي في تطور فكره. في مقال يعود إلى عام 1989، بعنوان "ضرورة الأنثروبولوجيا السياسية: مشكلة رعية"، حدد كهدف أول للرعية "الدعوة إلى التوافق أو الصداقة السياسية، التي [...] تستجيب [...] لطموح لقاء الخير الأعظم الذي يوحد البشر فيما بينهم". لتشجيع اللقاء يجب تحفيز القدرة على الحوار، وهذا يفترض ليس فقط "أن نسمع"، ولكن "أن ننتصت". حتى لو كان الآخر يقف على الجانب المقابل، أيديولوجيا، سياسيا، دينيا أو حتى اجتماعيا، فيجب دائما الترحيب به: إن لديه شيئا جيدا ليقدمه لي، وأنا لدى شيء جيد لأعطيه له.

الحوار والتميز الروحي

لفهم ممارسة الحوار كسمة للاهوت الضيافة ينبغي أن نتذكر الكلمات الختامية لحديث البابا فرنسيس الموجه للسلطات في البرازيل، أثناء فعاليات اليوم العالمي للشباب، 21 يوليو 2013، في ريو دي جانيرو: "عندما يطلب قادة القطاعات المختلفة نصيحة مني، تكون إجابتي هي نفسها دائما: الحوار، ثم الحوار، ثم الحوار. السبيل الوحيد لنمو شخص، وعائلة، ومجتمع، والسبيل الوحيد لارتقاء حياة الشعوب هي ثقافة اللقاء، ثقافة يمتلك فيها الجميع شيئا جيدا لإعطائه، ويمكن للجميع فيها الحصول على شيء جيد في المقابل. يمتلك الآخر دائما شيئا ليمنحه لي، إذا استطعنا أن نقرب منه بسلوك منفتح ومناسب، ودون أحكام مسبقة. هذا السلوك المنفتح، المناسب، والبعيد عن الأحكام المسبقة، قد أعرفه بـ"التواضع الاجتماعي"، وهو ما يعزز الحوار. حينها فقط يمكن أن يزداد التفاهم الجيد بين الثقافات والأديان، والتقدير المتبادل دون مفاهيم مسبقة ليس لها أساس، وفي مناخ

يحترم حقوق كل فرد. اليوم، إما أن نراهن على الحوار، وإما أن نراهن على ثقافة التلاقي، أو نخسر جميعًا، نخسر جميعًا".

أدرج الحوار بين المعايير المقترحة في مطلع فرح الحقيقة بهدف تجديد الدراسات الكنسية واللاهوتية، وكذا ذكر بوضوح في وثيقة أبو ظبي. في هذه الوثيقة تم تعزيز الأخوة الإنسانية بتبني "ثقافة الحوار دَرَبًا، والتعاونَ المُشتركَ سبيلًا، والتعارُفَ المُتبادلَ نَهْجًا وطَرِيقًا". في خطاب بوسيليو، شرح البابا فرنسيس في أولى تأملاته أن الحوار- الذي نمارس به لاهوت الضيافة- ما هو إلا طريقة للتبشير (حتى لا يختلط الأمر مع الاعتناق) التي تتطلب ممارسة التمييز الروحي.

لا ينبغي التقليل من الإصرار على التمييز الروحي في هذا الخطاب. بالنسبة للبابا فرنسيس، المتأثر بشدة بالتقاليد الإغناطية للتمييز، يعلن اللاهوتيون أولاً محبة الرب الممنوحة لكل إنسان، من كل لغة، وكل شعب، وكل أمة، وكل دين. يهدف التمييز الروحي في الحوار الذي تُعلن به كلمة المحبة الظاهرة في حياة المسيح إلى إدراك "الإشارات" وتلقي ثمار هذه المحبة، التي هي هبة رائعة وباذخة من الروح القدس.

بالنسبة للبابا، يقوم اللاهوت السياقي على استقبال الإنسانية التي يقطنها حب الثالوث، الموحى من أعلى صليب المسيح والحاضر في طيات التاريخ، خاصة في أحداث حياة كثير من الفقراء المُهمَلين والمهمشين المؤلمة. يتضمن الوحي بمحبة الله الأب، في التاريخ الإنساني، من خلال حياة المسيح، وبهبة الروح القدس، القدرة التي يمتلكها كل شخص، من كل شعب، ولغة، وعرق، ودين، على التصرف وفق إنجيل الخلاص. يعتبر تمييز هبة محبة الله في الخلق والمخلوقات- بواسطة الحوار- ومن خلال عمل الروح القدس، هو "منهج" يُمارس كعملية لاهوتية، للتبشير واستقبال إنجيل المسيح، أي إلهام رحمة الأب، في هبة الروح القدس لكل منا.

وُصف نهج الحوار الذي يتسم بالتمييز الروحي في مقال "خدمة الإيمان وتطبيق العدل"، حيث حُددت ثلاث لحظات في صياغة المرسوم الرابع للمجمع العام الثاني والثلاثين لجمعية يسوع: التقابل، تجارب التعايش السلمي، والتكامل. يُنظر إلى هذا

التطور كنموذج لاغتنام فهم التغييرات في الكنيسة والمستجدات التي أتى بها الروح القدس: أولاً، الإلهام من السماء؛ في مرحلة ثانية- من الحماس- يتم تجريب وتحليل بعض المفاهيم التي ستوضع فيما بعد، في مرحلة ثالثة، موضع المناقشة والصياغة بدقة وتوازن أكبر، في حوار متصل سواء مع الحقيقة أو مع الإلهام الفطري.

إن ممارسة لاهوت الضيافة بهذه الطريقة، أي مع الحوار المنسوج بالتمييز الروحي، تهدف إلى استقبال مملكة الله وتسهيل بناء مجتمع أخوي، يقوم على المبادئ الإنجيلية الخاصة بالسلام وعدالة الكتاب المقدس.

أمثلة الحوار

أوضح البابا فرنسيس عن طريق بعض الأمثلة أن تجديد اللاهوت يبدأ من المعرفة "العميقة" للمواقف والأشخاص، "حيث تصاغ النماذج، وطرق الاستماع، والرموز، وتمثيل الأشخاص والشعوب". بالنسبة للبابا، "رموز" الشعوب هي أحداث وشخصيات تاريخية تتذكرها الجماعات الإنسانية والمجتمعات كنماذج حياتية. إنها شخصيات وأماكن تاريخية تغذي الإيمان والرحمة؛ آثار تشير إلى التاريخ وأفعال الآباء البطولية؛ أمثال وشخصيات تنتمي إلى الكتاب المقدس وعادت دينية أخرى تشتغل على معرفة روحية غنية وعميقة؛ أعمال نبيلة ومبادرات نهضت بالتطور والرفاهية للأمة.. إلخ.

يمتلك الرمز، أو النموذج، وظيفة أولية في عملية التمييز الحوارية، وهو حاسم في استنباط "كل شيء" بدءاً من الواقع، العام من الخاص، والجماعي من الفردي. تتطلق هذه الطريقة في النظر إلى الحقيقة من العمل الديناميكي للروح الفردية التي، في الحوار، تنتظر إلى الكل بينما تُكشف لها الحقيقة الحية لا عن طريق مفاهيم بسيطة، وإنما عبر الرموز. تُبرز النظرة إلى الكل في حد ذاتها وجهة نظر مميزة، وتمضي قُدماً صوب الكلية، ولكن تحت منظور معين.

وفي هذا الصدد، تحدث فرنسيس عن الحوار 1- كطريقة للدراسة والتعليم، كطريقة لممارسة قراءة بعض النصوص وفهم صياغتها؛ 2- كهرمينوطيقا لاهوتية؛ في

كلتي الحاليتين، من أجل "أن نصل هناك، ك"إثنوغرافيين روحيين "الروح الشعوب". لا يُراد بالدراسة "الحوارية" لنصوص التقاليد التوحيدية العظيمة اكتساب معارف نظرية(فقط)، بل الوصول "كإثنوغرافيين روحيين" إلى روح الشعوب "كي نستطيع التحوار بعمق". إذن، يدعم الحوار نوعاً من الهرمينوطيقا اللاهوتية التاريخية التي تهدف إلى بدء عمليات المصالحة والسلام.

الإنصات، وتداخل حقول الدراسة والعمل في شبكة اتصال

تحدث البابا فرنسيس، بعدما أعطي أمثلة عن الحوار من أجل لاهوت ضيافة عملي، عن الواجب التبشيري للاهوت، مُفسراً، من ناحية، المعرفة الدقيقة بالأشخاص والمواقف "حيث تُصاغ النماذج"، ومستأنفاً من ناحية أخرى، موضوع الإنصات الذي أشار إليه في بداية الخطاب. الإنصات، فيما يخص ممارسة لاهوت الضيافة والتبشير، هو مطلب أولي أساسي، كما إنه مكمل للحوار ومهم للتمييز الروحي؛ الإنصات هو منهج (للدراسة وللتجربة) يهدف إلى خلق روايات جديدة.

هذا يعني أيضاً "الإنصات إلى التاريخ وإلى حياة الشعوب [...] كي نتمكن من فك رموز الأحداث التي تربط الماضي بالحاضر وكي نكون قادرين على فهم الجراح بالتزامن مع مواطن القدرات. يستمر الاهتمام بمفهوم الشعب-المؤمن- في فكر البابا بيرجوليو مع المسار اللاهوتي الذي دعمه هو في بوببلا، ومنطقتي القديس دومينغو وأباراسيدا. يُمارس التمييز الروحي الذي يتطلب الإنصات، بين أفراد الشعب، منطلقاً من حياتهم، ومن إيمانهم البسيط غالباً، آخذين في الاعتبار أوجه احتياجاتهم وثرانهم. تتكلم الروح القدس في حياة شعب الإيمان.

يشمل "الإنصات إلى تاريخ وحياة الشعوب" "الإنصات" للسياقات الأصلية للتبشير بالإنجيل. يسمح الإنصات الذي يسم عملية إكساب وحي رحمة الأب سميت الحالية بتمييز مناسبة كلمة الله للحال. من ناحية أخرى، حين ننصت إلى خبرة وثقافة شعب، ونبحث عن طرق لتجسيد كلمة المسيح في ذلك الشعب، فنحن نُعطي حالية للعملية نفسها التي أدت، للمرة الأولى، إلى تبشير ثقافات شعوب القرن الأول الميلادي.

تحدث البابا فرنسيس، في خطاب بوسيليو، عن الإنصات الضروري من أجل التمييز الروحي، مشيراً إلى معايير فرح الحقيقة، التي تجدد الدراسات الكنسية واللاهوتية، عبر الدخول الروحي، والفكري والتجريبي في قلب الكرازة (وهي البشارة)، وبالحوار. هذه المعايير هي العمل متداخلاً التخصصات والعمل في شبكة اتصال.

يتطلب الحوار بوصفه تمييزاً روحياً وإعلاناً للإنجيل "الإنصات إلى الآخر" والإنصات إلى الجذور وإلى الحاضر، عبر عمل متداخلاً التخصصات وفي شبكة اتصال. ويُقدم تداخل حقول الدراسة كمنهج لاستنطاق التاريخ والحاضر، من أجل إنصات أفضل، بهدف الفهم العميق، من أكثر من منظور، وباستدعاء قدرات متنوعة، والجذور والحاضر. ومن جانب آخر، يُمارس العمل في شبكة اتصال، كبنية حقول الدراسة، بالحوار ويتطلب الإنصات للروح وتمييز هبة التناول الثالوثي في التاريخ وفي الحاضر.

ركائز لاهوت الضيافة من الكتب المقدسة

في إشارات تمهيد فرح الحقيقة، تظهر اللاهوتية في سياق البحر المتوسط كمثل لاهوت يكتشف جذوره التوراتية خاصة في هذا السياق. تشمل هذه الجذور الحوار، الارتباط والتضامن، والضيافة والترحيب. في الوحي المقدس، تعتبر الاستضافة جزءاً من الإدراك التاريخي لشعب إسرائيل، الذي تسمه تجربة الهجرة والوعي بأنه كان غريباً. إضافة إلى ذلك، غالباً ما يجسد الضيف، في الوحي المقدس، الوجود الإلهي. يقدم المسيح السامري (وهو غريب)، في إنجيل لوقا، كمثال على التمسك بالتوراة، وحب الله والآخر. أخيراً، يُعبر الإنجيل في صيغته اليونانية عن اللقاء واستقبال ثقافات صارت وسيطاً للتبشير ليس من وجهة نظر لغوية فقط، بل من منظور إعلان الكرازة أيضاً.

يستمر الإنجيل في لقاء الثقافات وتبشيرها بالمسيحية، يستمر في تعميق الكرازة في اللقاء والحوار مع الثقافات، وفي رؤيته في الغرباء الأمثلة "المألوفة" للتبشير، شهود المحبة التي وضعها الله الأب في شخص وحياة المسيح الناصري، وجُعلت حية وحالية بفضل هبة الروح القدس الخلاقة ومتنوعة الأوجه.

لا ينبغي على لاهوت الضيافة الذي ينصت إلى السياقات التي "أولتها" بالأساس كلمة الله، والتي أولت فيه بالأساس كلمة الله في حالتها وعصرنتها، دراسة الجوانب "الثقافية" الخاصة بضيافة البحر المتوسط والتعمق فيها فحسب، بل ينبغي أن يطور البعد اللاهوتي للضيافة. في هذا الصدد، حدد بطريرك القسطنطينية المسكوني، في رسالته لمؤتمر بوسيليو، أن المسيحية تعبير عظيم لمفهوم ضيافة الغريب، "وفق تعاليم معلمنا ومخلصنا".

أسبقية الإنجيل والتاريخ

المقتضى الأول لممارسة لاهوت الضيافة ولإعادة صياغة الدراسات الكنسية هو إدراك أسبقية إنجيل الرحمة: "قبل كل شيء، ينبغي الانطلاق من إنجيل الرحمة، من الإعلان الذي صاغه المسيح بنفسه ومن السياقات الأصلية للتبشير. نشأ اللاهوت وسط البشر، الذين التقاهم الله ببصره وقلبه، ويذهب باحثاً عنهم بمحبة ورحمة".

يعني هذا بالتأكيد أن الدارسين في مجالات الدراسات اللاهوتية لديهم إمكانية قضاء فترات مناسبة في بيئات يستطيعون فيها عمل تجارب ملموسة، مثل مراكز ضيافة اللاجئين، ويمكنهم أن يحصلوا على مساعدة في تنفيذ هرمنيوطيقا لاهوتية لتلك التجارب، بإعداد أطروحات يُعترف بها باعتماد مناسب للنظام الأوروبي التراكمي للساعات المعتمدة.

والمقتضى الثاني للاهوت الضيافة الذي عرفه البابا فرنسيس "كمحفل لاهوتي"، هو "توظيف جاد للتاريخ داخل اللاهوت، كساحة مفتوحة للقاء مع الرب". يعني هذا الإنصات للتاريخ بوصفه تفسيراً للجذور والحاضر، ومقتضى للتمييز الروحي لحالية كلمة الله في الحاضر. لن يتحقق، بالضرورة، هذا المقتضى بتضاعف ساعات دورات التاريخ الدراسية في مسار الدراسات اللاهوتية، بل، على سبيل المثال، بتقديم (أو بتوضيح) منهج تاريخي في الدورات العقائدية، والأخلاقية، والروحية وبتشجيع دراسة النصوص التاريخية، والأدبية، واللاهوتية الخاصة بالوحي المقدس، عبر فترات إقامة مطولة في إسرائيل، والأراضي الفلسطينية، والأردن، وتركيا، واليونان، ومصر.

حرية وبُنيان يسيران ومرنان

مقتضى آخر لتجديد الدراسات الكنسية ولتطبيق لاهوت الضيافة هو الحرية اللاهوتية: "بدون إمكانية اختبار طرق جديدة، لن يُخلق أي شيء جديد، ولن يُفتح المجال لمستجدات روح المسيح القائم من الموت".

في هذا الصدد، ذكر البابا فرنسيس أولاً "ثراء الإنجيل الدائم"، مستشهداً بالإرشاد الرسولي فرح الحقيقة ومن ثم أوضح أنه "بين الدارسين، ينبغي المضي قُدماً بحرية؛ ثم، في النهاية، ستكون التعاليم هي من تتحدث، ولكن لا يمكن تسويغ لاهوت دون هذه الحرية".

يعني اختبار مسارات جديدة مراجعة خطط الدراسة، والساعات المعتمدة في المجالات المتنوعة، والقطاعات والدورات الدراسية، ومراجعة حقول الدراسة والمواد التعليمية. تعني الحرية اللاهوتية، للاهوت بعد فرح الحقيقة، أكثر من مجرد التفكير بحرية واللجوء بحرية لاختيارات تُجدد من خطط الدراسة، أن "بين روح المسيح القائم من الموت، وحرية في السير في العالم وبلوغ الضواحي، الحرية الفكرية أيضاً". عملياً، تكتسب الحرية اللاهوتية صبغة حالية بالإدراك الجيد وتنمية الحرية الداخلية.

لا يمكن أن يكون هناك حادثة ولا تجديد طالما يدافع الأستاذ عن دوراته الدراسية، وكأنها ملكية خاصة، وحصن لمعرفته، وفرصة للتعبير عن بطولته، يمكن تطبيق المقتضيات التي تحدث عنها البابا فرنسيس لإعادة صياغة الدراسات الكنسية عملياً في كلية اللاهوت، إذا تحققت فيها أو حُفزت مقتضيات الاستعداد للتغيير، مع إقرار أن المهمة المشتركة أسمى من النزعات الفردية والشخصانية؛ ليكن الاستعداد للتعاون صادقاً، لا يقوده منطق المصالح والمنافع الشخصية، ولا الانتماءات؛ ليت البطولة لا تعلق على خدمة الطلاب التي تُمارس بالتعلم، والحوار، ومشاركة نتائج أبحاث الأساتذة. في النهاية، كان المقتضى الأخير الذي ذكره البابا من أجل "محفل لاهوتي" ومن أجل تجديد الدراسات الكنسية هو "مؤلفات يسيرة ومرنة تُظهر الأولوية الممنوحة للضيافة والحوار، والعمل في إطار الحقول المتداخلة والعبرمنهاجية وفي شبكة اتصال.

ينبغي أن تعكس القواعد، والتنظيم الداخلي، ومنهج التعليم ونظام الدراسة هيئة الكنيسة "من الخارج". كان البابا فرنسيس واضحًا بشأن هذا المقتضى: "كل شيء يجب أن يكون موجّهًا في مواعيده وسبله لدعم مشاركة أولئك الذين يرغبون بدراسة اللاهوت قدر الإمكان: إلى طلاب المعاهد اللاهوتية، ورجال الدين، وإلى العلمانيين والنساء سواء كن علمانيات أو متديّيات أيضًا".

فيما يخص الحرية والهياكل، اليسيرة والمرنة، لتعلم يبني المعرفة، وفي شبكة اتصال، قد يكون مفيدًا دعم ومضاعفة التبادل، عبر برامج إيراسموس أو ما شابهها، بين طلاب اللاهوت، وليس بين طلاب الجامعات الأوروبية فحسب، بل ومع طلاب الأمريكيتين، وإفريقيا وآسيا. إضافة إلى ذلك، يمكن لتشجيع التبادل بين الطلاب وأساتذة الجامعات الكنسية والكليات اللاهوتية الكاثوليكية، وطلاب وأساتذة الجامعات والكليات اللاهوتية الأرثوذكسية والبروتستانتية وجامعات الطوائف الدينية الأخرى، أن يُثري الحوار الذي تتجدد به، وبقا/فرح/الحقيقة، الدراسات الكنسية ويُمارس لاهوت الضيافة. يعكس التبادل من هذا النوع "هيئة الكنيسة (من الخارج)"; ويسهم في صياغة الحوار عبر التمييز الروحي، ويروج لـ"الأولوية التي مُنحت للضيافة، والعمل في إطار الحقول المتداخلة والعبرمنهاجية وفي شبكة اتصال".

الخاتمة

جاء خطاب البابا فرنسيس في بوسيليو موجزًا. يقدم الحديث "أثرًا" لأجل صياغة لاهوت ضيافة سياقي ولاهوت ضيافة في سياق دول البحر المتوسط. التعمق في الأثر وتطويره هو واجب دارسي الوحي المقدس، ورجال التاريخ، واللاهوتيين، بالتعاون مع أساتذة العلوم الأخرى، كالفلسفة، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، وخلافه. إن لاهوت الضيافة، الذي اقترحه البابا فرنسيس في خطاب بوسيليو كلاهوت سياقي وكلاهوت مناسب خاصة في سياق دول البحر المتوسط، هو لاهوت الحوار الذي نمارسه بواسطة التمييز الروحي من أجل أن نتعرف بعمق على المواقف، والشعوب، والأشخاص ومن

أجل أن نتعرف فيهم على تصرف الروح القدس، كي نستقبل نعمة السلام ونعلن عن مجيء مملكة الرب.

في هذا الصدد، بالنسبة إلى البابا فرنسيس، لن تتجدد الدراسات اللاهوتية إلا إذا استندنا إلى فئات وبنى فكرية تستبدل الأنظمة المدرسية المتدهورة. يتجدد اللاهوت انطلاقاً "من أسفل"، من المعرفة العميقة للتقاليد الدينية الكبرى، والصداقة الحقيقية مع رجال ونساء ذوي إرادة صالحة، ينتمون إلى ثقافات مختلفة، ومشاركة حياة الفقراء التي تحيا فيها روح من قام من الموت، والتميز الروحي للحقيقة، وتميز وجود الروح القدس في الواقع- في موقف حقيقي وفي سياق خاص- مما يجعل إنجيل الرحمة حاضرًا. في هذا الواقع، يلتقي اللاهوت والدراسات اللاهوتية ويتحاوران، في شبكة اتصال، وبالعامل بين حقول معرفية متداخلة لرجال ونساء يحبون العدل والسلام وينتمون لشعوب، وثقافات، وأديان مختلفة.

في النهاية، بالنسبة للبابا فرنسيس، يعتبر لاهوت الضيافة- الذي ينبغي أن ينعكس على تجديد الدراسات الكنسية- هو لاهوت السياق الذي يبدأ من الإنصات والتميز الروحي لسياق خاص؛ إنه لاهوت السياق، أي لاهوت اللقاء والحوار مع القوى التي تحض على الخير في سياق محدد؛ إنه لاهوت من أجل السياق، أي اللاهوت الذي يبني مجتمعًا متسامحًا ويهتم بعناية وحماية الأشخاص والخلق الذين يحيطون بهم.

"حرية، مساواة، أخوة"*

خوسيه لويس نارفايا

مؤخراً، اقترح المجلس الأعلى للمساواة بين المرأة والرجل، في فرنسا، في ضوء التنقيح المعن للدستور، استبدال كلمة *fraternité* بكلمة *adelphité* في النشيد الوطني للجمهورية، وهي كلمة مشتقة من اليونانية وتعني "التأخي"، لكنها تخلو من الدلالة الذكورية، الخاصة بالمصطلح السابق. اقترح آخرون، لتجنب اللجوء إلى مصطلح ذي أصل أجنبي، ببساطة *solidarité* "التضامن". وسرعان ما اشتعل الجدل بين من يؤيد ومن يعارض كلا الاقتراحين.

نريد أن نتأمل، وقد حفزنا الجدل الذي أثارته هذه الكلمة، في معناها انطلاقاً من حقيقة أن البابا فرنسيس أشار في رسالة حديثة للأستاذة "مارجريت آرثر" ، رئيس الأكاديمية البابوية للعلوم الاجتماعية، إلى الثلاثة مبادئ التي قادت الثورة الفرنسية: حرية، مساواة، أخوة⁸³. يتعلق الأمر بثلاثة مُثل، سعى إليهم الجنس البشري طويلاً، طُرحوا معاً حتى ولو لم يتحققوا معاً. بإمكاننا أن نقول إنه بنهاية القرن الثامن عشر بدأ مسار ذو أهمية عظيمة في التاريخ الغربي. في هذا المسار نحو بيان وتحقيق الثلاثة مُثل، كانت الأخوة- مما لا شك فيه- هي الأقل تطوراً، وفقاً لفرنسيس، وانتهى الأمر بحذفها من معجم المصطلحات السياسية-الاقتصادية. مع ذلك، ينبغي أن تكون الأخوة هي المبدأ الذي يُنظم مجموع أطروحات الثورة. يمكننا القول، مستعدين تعبيراً لطيفاً لـ"هنري بيرجسون"، أن الحرية والمساواة "هما أختان تتشاجران"⁸⁴ وأنهما في النهاية يحتاجان لأحد ليصلح بينهما. هذه هي وظيفة الأخوة. تلك المُثل، التي تطلع الناس إليها طويلاً وتحققت بعد عناء طويل، أنتجت في الحقيقة

*العنوان الأصلي: "حرية، مساواة، أخوة". بديل الليبرالية الجديدة والمركزية الجديدة.

⁸³ انظر، فرنسيس، رسالة إلى الأستاذة مارجريت آرثر، رئيس الأكاديمية البابوية للعلوم الاجتماعية، 24 أبريل 2017، في w2.vatican.va.

⁸⁴ ج. جاليانسي، "فكر بابا فرنسيس"، في دفاتر مجلس ماركي الإقليمي، رقم 215، 2016، ص. 302.

أشكالا جديدة من عدم المساواة والعبودية، بسبب غياب وظيفة الأخوة التنظيمية، والتي أهملت لوقت طويل. المشكلة المركزية هي أن صيغ الأخوة الأصلية تنشأ "من أسفل"، من أولئك الذين يشعرون بأنهم إخوة ويعبرون عن هذه العلاقة في مساواة وحرية مع مراعاة اختلافات واحتياجات الآخر.

الإنسانية هي عائلة

على أساس هذا الوعي بالأخوة يوجد يقين واحد: هو أن يكون هناك أب، على اعتبار أنه يمكننا الاعتراف بأننا إخوة فقط إذا اعترفنا بأب يجعلنا كذلك. تصدر محاولات أخذ مكان الأب لإجبار البشر على عيش الأخوة، على النقيض، "من أعلى". كانت نتيجة هذه المحاولات إنتاج صيغ متعددة غير شرعية للأخوة في منحنى واسع يبدأ من الشيوعية وحتى الليبرالية.

يوضح البابا فرنسيس أنه في هذا المسار، الذي استغرق أكثر من قرنين ليتطور، حانت لحظة إفساح المجال لمثال الأخوة، الذي يتجاوز كونه مجرد أحد مُثل الثورة الفرنسية، إلى كونه توقا إنسانيا، يتجلى في رغبات عميقة في حياة سلمية: "في الواقع، تشكل الأخوة بعدا أساسيا للإنسان، الذي هو عبارة عن كائن علائقي. واليقين الحي لهذه العلائقية يحملنا لنرى ونعامل كل شخص كأخت حقيقية وأخ حقيقي، وبدون هذه العلائقية يصبح من المستحيل بناء مجتمع عادل وسلام صلب ودائم. من الأهمية بمكان أن نذكر فوراً بأننا نبدأ عادة بتعلم الأخوة في كنف العائلة، وخصوصاً بفضل أدوار أفرادها المسؤولة والمتكاملة، ولاسيما أدوار الأب والأم. فالعائلة هي مصدر كل أخوة ولذلك فهي أيضاً الأساس والطريق الأولي للسلام، إذ أنها، وبحسب دعوتها، عليها أن تُعدي العالم بمحبتها⁸⁵.

الأخوة ليست نظرية، ولا يمكن أن تكون كذلك: هي تحتاج لأن تُجسد، لأن الحب فن، وكل فن، هو قائم على التفاصيل. من المهم أن نترجم هذه القناعة في أفعال ملموسة. في وثيقة أباريسيدا، التي كان لبيرجوليو دور مركزي في صياغتها، نجد طرقا ملموسة لتجسيد الأخوة وكيف نتعلم صناعتها بدءا من أصغر التصرفات: "من الضروري أن نهذب

⁸⁵ فرنسيس، رسالة يوم السلام العالمي السابع والأربعين، 2014.

ونشجع في شعبنا كل تصرفات وأعمال ومسارات المصالحة والصدقة الاجتماعية، والتعاون والتكامل. تناول جسد المسيح المصلح يمنحنا القوة كي نكون بُناة للجسور، ومبشرين بالحقيقة، ودواء للجروح. المصالحة هي محور الحياة المسيحية. وهي مبادرة الرب بحثا عن صداقتنا، التي تتطلب مصالحة ضرورية مع الأخ⁸⁶.

مجتمع أبناء وحيدين؟

تكتسب هذه التصرفات أهمية، لأنها تخلق فينا سلوكا إنسانيا ينتمي لثقافة الأخوة: النظر في العيون، تذكر أحد الوجوه، مداعبة أحد المرضى، الإنصات لأولئك الذين يعانون، كل هذه الأعمال تتضمن لقاء، نسياننا لأنفسنا، وهما ما يعبران عن الأساس الوجودي لتلك الثقافة. يقوم اقتراح خلق مجتمع أخوي، وهو عنصر أساسي في حياة الإنسان، على العلاقة التي أسسها الرب مع البشر. محبة الرب هي التي تدعونا لرؤية البشر بعينه، عيني الأب، رؤية الإخوة فيهم، وليس الأعداء: "وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدواب التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم" (سفر التكوين 1، 26-27) بل والأكثر، أن نكون أبناء الرب؛ كل إنسان هو ابن الرب⁸⁷.

"في الأخ يوجد امتداد تجسد كل منا الخالد" (فرح الانجيل: 179). في هذا الخط، يتجاوز اقتراح فرنسيس مستوى الفضائل الاجتماعية: إنه يصل للجزر، ولجوهر الإنسان، ومن هنا يدعونا لبناء حياة اجتماعية. يظهر هذا بوضوح عندما ربط البابا التضامن بالأخوة: "بينما يعتبر التضامن كمبدأ للتخطيط الاجتماعي الذي يسمح لغير المتساويين أن يصبحوا متساويين، تسمح الأخوة للمتساويين بأن يصبحوا أشخاصا مختلفة. تسمح الأخوة للأشخاص الذين هم

⁸⁶ المؤتمر العام الخامس لأسقفية أميركا اللاتينية وجزر الكاريبي، وثيقة أباريسيدا (29 يونيو 2007)، رقم 55. حول أباريسيدا ودور بيرجوليو، انظر، د. فاريس، "بعد 10 أعوام من أباريسيدا. في مصادر بابوية فرنسيس"، الحضارة الكاثوليكية *Civiltà cattolica*، 2017، ص. 338-352.

⁸⁷ فرنسيس، رسالة يوم اللاجئين العالمي، 5 أغسطس 2013.

متساوون في جوهرهم، وكرامتهم، وحريتهم، وفي حقوقهم الأساسية، بالمشاركة بشكل مختلف في الخير العام وفقا لقدرتهم، وخطتهم الحياتية، وميولهم، وعملهم أو جاذبيتهم للخدمة"⁸⁸.

الأخوة التي تنمو في القلب لا تتحقق تحت تهديد العقاب، ولكن بإدراك أن سعادة الفرد تعتمد على سعادة الأخ وأن القلق على الآخر وعلى احتياجاته ينبع فينا تلقائيا. "المجتمع الذي تتفكك فيه الأخوة الحقة لن يكون له مستقبل؛ أي أنه لن يكون قادرا على تطوير ذلك المجتمع الذي يوجد فيه فقط "العطاء من أجل الأخذ" أو "العطاء من أجل الواجب". لذلك السبب، لا تعتبر الرؤية الليبرالية الفردية للعالم التي يقوم فيها كل شيء (أو الأغلب) على التبادل، ولا الرؤية المركزية للمجتمع التي يعتمد فيها كل شيء فيها (أو الأغلب) على الواجب، مرشدين أكيدتين تحملنا على تجاوز عدم المساواة، والظلم، والإقصاء الذين تغرق فيهم مجتمعاتنا"⁸⁹.

يعتبر اقتراح بناء مجتمع أخوي إنن "بديلا لاقتراحات ليبرالية جديدة ومركزية جديدة، تسترشد بالأناثية، والجشع، والمادية، والمنافسة غير العادلة". بهذه الطريقة "ستكون عقلية سياسية واقتصادية جديدة تسهم في تحويل الازدواجية المطلقة بين المجال الاقتصادي والمجال الاجتماعي إلى تعايش صحي"⁹⁰.

تمتد جذور دعوة البابا للسير في هذا الاتجاه إلى جوهر الإنسان، والتاريخ، والثقافة، لكنها بشكل أساسي دعوة الإنجيل، الذي يذكرنا به فرنسيس، مستعيدا كلمات سلفه⁹¹. "لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تُزاد لكم" (متى 6،33) كانت تلك الدعوة ومازالت طاقة جديدة في التاريخ الذي يميل إلى خلق الحرية، والعدل، والسلام والكرامة للجميع. بالطريقة التي سيتمكن

⁸⁸ مصدر سابق، رسالة إلى الأستازة مارجريت أرتشر.

⁸⁹ نفس المصدر.

⁹⁰ المؤلف ذاته، حديث إلى السفراء الجدد المعتمدين لدى المقر المقدس، 16 مايو 2013.

⁹¹ انظر بينديكت السادس عشر، المحبة في الحق، رقم 5.

الرب بها من أن يسود فينا وبيننا، سنستطيع المشاركة في الحياة الإلهية وسنكون لبعضنا البعض "أدوات نعمته، من أجل إفاضة رحمة الله ونسج شباك الإحسان والأخوة"⁹².

أخوة "من الأعلى" أم "من الأسفل"

في "مارتن فييرو"، الشعر الملحمي الأرجنتيني والتعبير الأسطوري الوطني، نجد تعليماً يقوم على أساس هذا الاقتراح الخاص بالبابا. في نهاية الجزء الثاني من القصيدة، قبل فترة وجيزة من توديعه لأبنائه، غنى غاوتشو مارتن فييرو: "لتكن مشيئتك يا الله/ أن يتحسن هذا البلد؛/ لكن لا أحد يجب أن ينسى/ لأجل أن يكون للعمل المدرك قيمة/ وأن اللهب، إذا كنت بحاجة للتأجج،/ فعليه أن يبقى دائماً في الأسفل"⁹³. النار، كي تتأجج، يجب أن تصعد دائماً من أسفل. وصيغ الأخوة التي تفرض من أعلى، كما يبين التاريخ، تفشل. فقط تلك الصيغ التي تنشأ من أسفل يمكنها بناء شعب. فقط عندما يتم الاعتراف بمساواة حقيقية وحرية حقيقية، يمكننا بناء شعب⁹⁴. سندرك هذا من خلال الاعتراف بالأخوة.

نريد أن نختم هذا التأمل بوصف قدمه كاتب أرجنتيني آخر، ليوبولدو ماريشال الذي يقدره البابا كثيراً، لـ "مدينة الأخوة، فيلاديلفيا": "سترفع فيلاديلفيا قبابها وأجراسها تحت سماء رائعة كوجه طفل. كالوردة بين الزهور، كطائر الحسون بين الطيور، كالذهب بين المعادن، هكذا ستحكم فيلاديلفيا، مدينة الأخوة، بين عواصم العالم. تجوب الجموع السلمية والسعيدة شوارعها: سيرى الأعمى النور، من أنكر سيؤكد ما أنكره، وسيطأ المنفي بقدمه أرضه الأم، وسينال المنكوب خلاصه أخيراً. في فيلاديلفيا سيمد سائقو عربات الخيول يد المساعدة للسيدات، وسيساعدون العجائز، وسيداعبون وجنات الأطفال. البشر لن يطنوا بعضهم البعض، ولن يتركوا باب المصعد مفتوحاً، ولن يسرقوا زجاجة الحليب، ولن يرفعوا صوت الراديو لأعلى درجة. رجال الشرطة سيقولون "صباح الخير، أيها السيد! كيف حالك، سيدي؟". ولن يكون هناك مخبرون ولا مرابون، ولا قواد أو عاهرات، ولا صرافون، ولا

⁹² مصدر سابق، رسالة إلى الأستاذة مارجريت أرتشر.

⁹³ ج. هيرنانديز، مارتن فييرو، ميلانو، الحضارة الكاثوليكية، كوربيري ديلا سيريا، 2014، ص. 729-731.

⁹⁴ انظر ج.م. بيرجوليو، "مقدمة"، ج. هيرنانديز، مارتن فييرو، V-XXX.

حتى جزار واحد. لأن فيلاديلفيا ستصبح مدينة الأخوة، وستعرف دروب السماء والأرض،
مثل الحمام الوردية التي ستعشش يوماً ما فوق قمم أجراسها العالية، وفوق مآذنها الأنيقة"⁹⁵.
لا يتعلق الأمر بفعل أشياء مستحيلة، بل، بالأحرى، بفعل الأشياء اليومية بقلب
مفتوح، حتى يصبح هذا القلب جسراً بين السماء والأرض.
في النهاية، قد نجد عوناً في تذكر ما كان يعظ به القديس أغوستينو: "حب وافعل ما
تريد؛ إن صمت، فلتصمت من أجل الحب؛ وإن تحدثت، فلتتحدث من أجل الحب؛ وإن
تشجعت، فلتتشجع من أجل الحب؛ وإن سامحت، فلتسامح من أجل الحب؛ فلتغرس فيك
جنور الحب، لأنه من هذه الجنور لا ينمو سوى الخير"⁹⁶. بالتأكيد، إذا أحببت، يمكنك أن
تفعل ما تريد؛ الشيء الوحيد الذي لا يمكنك فعله هو ألا تحب.

⁹⁵ ل. ماريكاي، عدن بونس أيرس، فلورنسا، فاليكي، 2010، 342.
⁹⁶ أغوستينو دي إيبونا، تعليق على خطاب القديس يوحنا، أوميليا، ص. 7-8.

رسالة في عيد ميلاد المسيح للبابا بولس السادس

عن الأخوة بين البشر

22 ديسمبر 1964

إن عودة عيد الميلاد، العزيزة والمؤثرة في نفوسنا دائماً، الإنسانية والمقدسة على حد سواء، والتي يعقبها على الفور بداية السنة الميلادية الجديدة، تضع في قلوبنا، أكثر مما هو على شفاهنا، أمنيات، أمنيات وفيرة، أمنيات رائعة، لكم جميعاً أنتم يا من تمتلكون كرم الإنصات لأصواتنا؛ لكم، أيها الأبناء والإخوة الأعزاء، الذين يجمعنا بهم نفس الإيمان ونفس الإحسان في فرح مشترك، يجعل منا شركاء في موجة هائلة من المشاعر والأفكار التي تنطلق من سر عيد ميلاد المسيح؛ لكم، لجميع البشر، من جميع الأعمار، من كل بلد، ومن كل عقيدة، الذين نشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى أننا مدينون لهم باحترامنا ومحبتنا وتضامننا.

حقاً، يجعلنا عيد الميلاد نختر جوهر مهمتنا الكونية، وهو أن نعلن لجميع البشر الخبر السار، الخبر السار الذي يكشف للبشر قدرتهم على السعادة والسلام والخلاص؛ وبالتالي لم نشعر أبداً أكثر مما هو في هذا اليوم، بأننا ملزمون، أكثر مما نحن متلهفون، ببيت رسالة تهنئتنا إلى العالم.

إن رسالتنا هذا العام، أمنيتنا، هي رسالة أخوة. أخوة، أيها البشر الذين تنصتون إلينا؛ أخوة أكثر صدقاً، أكثر فاعلية، وأكثر عالمية من تلك التي توحد بالفعل البشر مع بعضهم البعض. أخوة!

لا يزال حياً في نفوسنا الانطباع الذي تركته رحلتنا الأخيرة إلى بومباي. رحلة غرضها ديني، كما تعلمون؛ ولكنها اكتسبت في الوقت ذاته، بالنسبة لنا، قيمة بشرية لا يضاهيها شيء. ذهبنا إلى الغرباء والحجاج في بلد بعيد، ومجهول لنا؛ كان من الممكن أن نبقى غرباء ومعزولين، يحيط بنا فقط إخواننا في الإيمان. وبدلاً من ذلك، التقينا بشعب.

شعب لا يحصى عدده؛ شعب مبهج؛ بدا لنا أنه يمثل شعب الهند الهائل، ومعه شعوب آسيا جميعها؛ شعب ليس كاثوليكيًا، كما تعلمون، ولكنه مهذب، منفتح، متعطر لنظرة أو كلمة من الزائر الروماني الغريب، الذي كنا نحن. حسنا، كانت هناك لحظة من التفاهم، من انصهار الأرواح. ما الذي رأته هذه الحشود المبهجة فينا، لا نعرف. أما نحن فقد رأينا فيها إنسانية جديرة للغاية، بتقاليدنا الثقافية الأزلية، ليست كلها مسيحية، لا، ولكنها روحية بعمق، وفي كثير من النواحي جيدة ومهذبة، عتيقة وشابة في الآن ذاته، وهي اليوم متيقظة وتتجه صوب شيء ما، لا يستطيع أن يمنحه التقدم الحديث ذاته، بل ربما يحول بيننا وبينه.

ثم أكد لنا شعور بالتعاطف العميق ما تقوله المسيحية منذ قرون، وما يعترف به تطور الحضارة ويعلنه ببطء وتدرجياً: البشر إخوة. العلاقات بين البشر تصبح يسيرة ومتعددة لدرجة أنها تفضي بالضرورة إلى الحب. تُختصر المسافات بشدة وتكاد تتلاشى حتى أن الحب يصبح بالضرورة عالمياً؛ إن مفهوم الآخر، الذي يمده الإنجيل السامري بالفعل إلى ما وراء الحدود التقليدية، يشمل البشرية جمعاء: فالجميع إخوتنا. يبرز الدليل على احتياجات الآخرين جلياً، مناشداً، من جانب، بينما تزيد اليوم، من جانب آخر، إمكانية مساعدتهم، بنسب وفيرة للغاية تلقي الضوء بوضوح على الهدف الذي ينبغي أن يتجه له اليوم بناء الحضارة: تنسيق التضامن بين البشر، لكيلا يفتقر أحد إلى الخبز والكرامة، ولكي ينال الجميع الخير العام كمنفعة عظمى. يكتشف التطور الحضاري الآن كاحتياج، وإنجاز، ما علمنا إياه المسيح، في صورته البشرية مثلنا، وكمعلم لنا، على صفحات إنجيله التي لم تستوعب كاملة أبداً، ولم تطبق بعد بشكل عالمي: "أنتم جميعاً إخوة" (متى 23،8)؛ أي نحن متساوون، ومتضامنون، أي ملزمون بالتعرف على انعكاس صورة الأب السماوي ذاته في كل واحد فيكم، وعلى التشجيع المتبادل لإدراك المصائر ذاتها: الامتلاء البشري والبنوة الإلهية من أجل النعمة في هذه الحياة، والسعادة الأبدية في الحياة المستقبلية.

تفرض الأخوة اليوم نفسها؛ الصداقة هي مبدأ كل تعايش إنساني حديث. بدلاً من أن نرى في وجوه أقراننا قناعات الغريب، والغريم، والكريم، والخصم، والعدو، يجب أن نعتاد على رؤية الإنسان، المخلوق المساوي لنا، الجدير بالاحترام، والتقدير، والمساعدة، والحب، كما نرى أنفسنا. تعود لتدوي في أرواحنا العبارة الرائعة للطبيب الإفريقي القديس: *dilatentur spatia caritatis* لتنتسح حدود الحب. يجب أن تسقط حواجز الأنانية؛ وألا يُستهزأ بتأكيد الآخرين لمصالحهم الخاصة المشروعة وألا يُرفض التواصل الاجتماعي المعتدل. يجب أن تنفتح الديمقراطية، التي يحتكم إليها اليوم التعايش الإنساني، على مفهوم عالمي يتجاوز الحدود والعقبات لأجل الوصول إلى أخوة فعلية.

نحن نعلم أن هذه المفاهيم تجد اليوم صدى واسعاً في قلب الإنسانية؛ نحن نعتقد أن الشباب بشكل خاص يدرك أن هذه المفاهيم هي حقائق المستقبل، ولها ركيزة في مسار الحضارة الذي انطلق بلا عودة؛ مفاهيم مثالية، لكنها ليست خيالية؛ عسيرة، لكنها جديرة بالدراسة والتنفيذ. نحن في صفها؛ نحن إلى جوار الشباب، الذي يطمح في أن يجعل من العالم منزلاً يتسع للجميع، وليس شبكة خنادق تصلح لخلاف لا يهدأ وصراع لا يتوقف. لكننا نعلم أيضاً أن هذه المفاهيم الجميلة سريعة الزوال. تيزغ في ساعات محددة من التاريخ، وتختفي سريعاً عند ظهور الغيوم المعاكسة. إن طريق التقدم الحقيقي شاق ومبهم. يختبر الإصرار البشري في بحثه عن الأسمى منحدرات محبطة. الإنسان غير مستقر. الوصول إلى الحقيقة شاق. الخير صعب. الكره أسهل من الحب.

لهذا نرغب في أن نوفر للعالم إرثاً لا ينفد ولا يغيب من التعاليم الإلهية والبشرية، والطاقة الأخلاقية، إرثاً كاثوليكياً، لدعم جهود البشر ذوي النوايا الطيبة نحو الرخاء المشترك، والسلام العالمي، والأخوة لجميع البشر. عرضنا صادق. لا تزال الكنيسة تفكر فيه خلال المجمع المسكوني؛ تخرجه من قلبها المليء بالحب الجديد، الذي أضاعه المسيح في العالم؛ وتقدمه في إيماءة صداقة متواضعة إلى إرادة العالم الحديث الحرة، الذي لا يستطيع رفضه إذا أحب خلاصه بشكل حقيقي.

نحن لا نجهل العقبات التي تعارض باستمرار الأخوة الإنسانية، ونحذر بألم من أنها الآن في مرحلة جدلية تبلورها بشكل أكثر وضوحاً، وفي بعض الأحيان بفاعلية أكثر خطورة. أمام عذوبة عيد الميلاد الساحرة لا يمكننا أن نسهب في الكلام عن هذه العقبات، التي تُظهر الناحية الدرامية والمخيفة لحقيقة التاريخ المعاصر؛ لكنه ليس من المقبول أن نصمت عن وجودها المهدد، في رسالة صادقة كهذه.

أرجو أن يُسمح لي بأن أشير بشكل عابر لبعض الصيغ الواقعية، من بين أخرى عديدة موجودة ومحتملة، التي تظهر فيها معارضة الأخوة بين البشر. سأشير إليها بالكاد، وعلى سبيل المثال تقريبا.

أولاً: النزعة القومية، التي تفرق الشعوب واضعة كلا منهم في مواجهة الآخر، ورافعة بينهم حواجز الأيديولوجيات المتعارضة، والنفسيات الموصدة، والمصالح الخاصة، وطموحات الاكتفاء الذاتي، متى لا يتعلق الأمر بسياسات استعمارية جسعة وباطشة. هذا العدو للأخوة الإنسانية يستعيد اليوم قوته. إنه يبدو منتمياً إلى الماضي، على الأقل افتراضياً، بعد تجربة الحرب العالمية الأخيرة المأساوية؛ لكنه ينهض. نحن ندعو حكوماتنا وشعوبنا إلى الانتباه، والتحكم في هذه الغريزة البسيطة التي تسعى إلى تعزيز المكانة والتنافس؛ يمكنها أن تصبح مميتة مجدداً. نحن ندعو إلى مساندة ودعم مهمة الكيانات التي نشأت لأجل توحيد الأمم في تعاون صادق ومتبادل، ومنع الحروب وتدارك الصراعات، وحل الخلافات من خلال مفاوضات صبورة واتفاقات مناسبة، وتطوير وعي وصياغة القانون الدولي، وإعطاء السلام أخيراً أمانه الراسخ واتزانه الديناميكي.

عائق آخر، يولد هو أيضاً من جديد، هو العنصرية، التي تفرق وتضع موضع التعارض الأعراق المختلفة التي تكون العائلة البشرية الكبيرة، منتجة مواطن الافتخار، والريبة، والاقْتصار، والتمييز، وأحياناً الاضطهاد على حساب الاحترام المتبادل والتقدير اللازم، اللذين يجب أن يصنعا من المسميات العرقية المختلفة سيمفونية سلمية من الشعوب الأشقاء.

هكذا لا يمكننا إلا أن نشاهد بفرع نزعة عسكرية، تتجه لا إلى الدفاع الشرعي بالفعل عن البلاد المعنية وحفظ السلام العالمي، إنما بالأحرى إلى أنشطة التسليح الأكثر قوة وفتكاً، التي توظف طاقات هائلة من البشر والمعدات، وتغذى منطق الهيمنة والحرب النفسية، وتحمل على إقامة السلام على أساس غير جدير بالثقة وغير إنساني من الخوف المتبادل. بخصوص هذا الشأن أيضاً، نأمل في أن يتمكن قادة الشعوب من المضي قدماً بقلب حكيم ونبيل على طريق نزع السلاح، ونرغب بشدة في أن نشاهد توجيهه، ولو بشكل جزئي وتدرجي، النفقات العسكرية لأهداف إنسانية، وليس لصالح الدول ذاتها فقط، لكن لمنفعة الدول النامية والمحتاجة أيضاً: لا يزال الجوع واليؤس، المرض والجهل يلتمسون المساعدة؛ ونحن لا نتردد، في يوم الصلاح والأخوة هذا، في تبني أنين الحشود المتضرع، تلك الحشود الغفيرة اليوم من الفقراء، والمتألمين، والمحتاجين لمساعدة عاجلة وجوهرية. أيها البشر الطيبون والكرماء، يا من تستطيعون مساعدة من يقاسي الجوع، والمعاناة، ومن يقبع في العوز والاهمال، فلتسمعوا في صوتنا ذلك الصوت الإلهي والبشري للمسيح، شقيقنا في كل إنسان معوز.

هل يمكننا أن ننسى في هذه القائمة الحزينة التي تضم معوقات الأخوة، الطبقيّة التي لا تزال حادة وقوية في المجتمع المعاصر؛ وروح الحزب والفصيل، التي تعارض الأيديولوجيات، والمناهج، والمصالح، والمنظمات في نسيج المجتمعات المتعددة الكامل ذاته؟ من جانب، تضم هذه الظواهر الاجتماعية المركبة والشاسعة فيما بينها البشر الذين تجمعهم مصالح مشتركة، ولكنها، من جانب آخر تحفر هوات لا يمكن رأبها بين فئات البشر، وتجعل من معارضتها النظامية منطق حياة، مانحين لمجتمعنا، الذ بلغ أقصى تطور في الإحكام التقني والاقتصادي، وجه الشقاق والكرهية الحزين والكره. المجتمع ليس سعيداً؛ لأنه ليس متأخراً. نعرف الصعاب الهائلة التي يبدو أنها تجعل مشكلات التعايش الاجتماعي الحر غير قابلة للحل. لكن بالنسبة لنا لن نكل من إعلان حب الآخر، كمبدأ أساسي لمجتمع إنساني حقيقي، ولن نكل من تمنّي أن تؤدي استقامة الفكر والخبرة التاريخية إلى مراجعة المبادئ، التي ينشأ عنها كثير من الانقسامات الاجتماعية، وإلى

تحري قواعد الحياة الاجتماعية في صيغ أكثر إنسانية وأكثر صدقا. حتى في إعادة بناء المجتمع الحديث تلك وفقاً للاحتياجات الملحة للتعايش السلمي، والتعاون المتبادل بين الطبقات الاجتماعية المتعددة وبين مختلف الأمم، وسعادة العيش معا، يحمل إنجيلنا القديم، الذي نفتحه اليوم على صفحة السلام على الأرض للبشر ذوي المشيئة الحسنة، كلمات جديدة وحية يقدمها للأخوة الإنسانية.

منصتا إلى هذه الرسالة الجديدة، ربما يتساءل أحدنا: أليس الدين سببا في الفرقة بين البشر؟ ألا يعوق الدين الكاثوليكي، المتشدد بشدة، والمتطلب بشدة، والناهض بشدة، حوارا يسيرا وتفاهما تلقائيا بين الناس؟ أوه، أجل. الدين، الكاثوليكي كأبي دين آخر، يعتبر عاملا للفرقة. صحيح أن المسيحية، بسبب التجديد الحياتي الذي تحمله إلى العالم، يمكن أن تكون سبباً للفرقة والتناقضات، التي تنشأ من الخير الذي تهيه للبشرية؛ النور يسطع في الظلمات؛ وينوع من مناطق المحيط الإنساني. لكن ليس من ديدنها محاربة البشر؛ وهم في حال الدفاع عما هو مقدس ولا يمكن قمعهم فيهم: التطلع الأساسي إلى الرب، وحق التعبير عنه في صيغ العبادة المناسبة. ومع ذلك، لا يمكن للكنيسة ألا تعبر علانية عن ألمها عندما يتم منع، وعرقله، وقمع هذه الرغبة الجامحة؛ والتي تقع حتى تحت طائلة عقاب قوة السلطة العامة، الساعية في هذه الحالة إلى اقتحام مجال، يخرج عن إطار صلاحياتها. وفي هذا الصدد، الذي يتطلب إجابة أكثر شمولاً وتقنياداً، يمكننا أن نكرر بكل طريقة ما تبشر به الكنيسة اليوم: الحرية الدينية الصحيحة والواعية؛ حظر إخضاع معتقدات الآخرين للجدل، عندما لا تتعارض مع الصالح العام، رغبة في فرض إيمان لا يلاقي قبولا حرا، أو إقامة تمييز كراهه أو ظلم متعسف؛ احترام كل ما هو صادق وأمين في كل دين وكل رأي إنساني، بقصد تشجيع التوافق المدني والتعاون في كل نوع من الأنشطة الخيرة.

الحقيقة تبقى ثابتة، والإحسان يشع بضوئها النافع. هذا هو برنامجنا اليوم أكثر من أي وقت مضى، ونحن على قناعة بأن العالم يحتاج إلى المحبة، وتجاوز قيود الأنانية داخله، والانفتاح الصادق على التطور، والتآخي العالمي.

وهي الأمنية التي نتمناها لكم، أيها البشر المستقيمون والصالحون الذين تنصتون إلينا؛ ونحن نفعل هذا بانسراح وبأمل في اسم من هو "بكر وسط أخوة كثيرين" (روم 8،29)، المسيح الرب!

في هذه الأمنية، تتسع قلوبنا في عناق عالمي من الإحسان الأبوي لكل البشر، الذين نرنو لخلاصهم "المنقذ الإلهي". ونتوجه، بشكل خاص، لإخواننا المبجلين وأبنائنا الأحباء، لأولئك الذين لا يمكن أن يكتسب عيد الميلاد لديهم تعبير فرح واطمئنان ظاهر حتى، بسبب القيود المؤلمة التي يخضعون لها. ثم نتوجه إلى القساوسة، والإخوة والأخوات، وإلى المبشرين الأحباء في المقام الأول، الذين نخبر مخاوفهم ومشكلاتهم. نتوجه أيضا إلى كل العائلات المسيحية، والشباب الكريم والواعد، والأطفال الأبرياء والمراهقين المتحمسين. ونضم إلى عناقنا العمال وأصحاب المهن، في أعمالهم اليومية الشاقة والرتيبة أحيانا؛ والمرضى والمعذبين، بكل الآلامهم، التي يعلمها الله، الذي يدرك ويكافئ كل شيء؛ ونوجه فكرنا، بشكل خاص للغاية، إلى الفقراء في كل العالم؛ يثير قلقهم ومتاعبهم صدى مؤلم عميق في نفوسنا. فليجلب يسوع الوليد لهم عزاء حبه وعذوبة الثقة المتجددة؛ وليحث هو أيضاً كل أولئك، الذين يملكون القدرة والسبل- الرجال المسئولون عن الصالح العام في المقام الأول- كي يتحدوا في جهود بناءة، وتضامن ملموس، ليوажهوا بوسائل جديدة، وحلول عاجلة، وبرامج مناسبة للاحتياجات الهائلة للفقراء في العالم، وآمالهم، التي لا يمكن أن تترك محبطة.

بهذه المشاعر المفعمة نجدد تمنياتنا، ونبعث، بمودة كبيرة، لكم جميعا يا من تنصتون إلينا، وللعائلة البشرية جمعاء، مباركتنا الرسولية المطمئنة، إيماءة وانعكاسا لرضا وليد بيت لحم المقدس.

كلمة قداسة البابا فرنسيس للمشاركين في المؤتمر الدولي للسلام

بالأزهر

القاهرة

28 أبريل 2017

السلام عليكم!

إنها لهبةٌ كبيرةٌ أن أكونَ هنا وأن أبدأَ زيارتي لمصرَ من هذا المكان، مخاطبًا إياكم ضمنَ هذا المؤتمرِ الدوليِّ للسلام. أشكرُ أخي، الإمامَ الأكبرَ، على عقد هذا المؤتمر وتنظيمه، وعلى دَعْوَتِهِ الكريمةِ لي. أودُّ أن أتقدمَ إليكم ببعضِ الخواطر، وقد استلهمتها من تاريخ هذه الأرضِ المجيد، هذه الأرضِ التي تجلّت عبرَ التاريخ للعالم كأرضِ حضارةٍ وأرضِ عهود.

أرضُ حضارة. لقد كان التحضر الذي نشأ على ضفافِ النيل، منذُ القَدَم، مُرادفًا للحضارة: فقد تآلق نورُ المعرفة، وأنبتَ تراثًا حضاريًا لا يُقدَّرُ بثمن، مجبولًا بالحكمةِ والذكاء، ومكتسباتٍ في علمِ الرياضياتِ وعلمِ الفلك، وبأشكالٍ بدعيةٍ في الهندسةِ وفنِّ الرسم. وقد شكّلَ البحثُ عن المعرفةِ وقيمةِ التعليمِ خيارَي تنمِيَةٍ مثمريْن، اعتمدهما سكانُ هذه الأرضِ القُدّامي. هما أيضًا خياران ضروريان للمستقبل، خياران ينبعان من السلام ويهدفان إلى السلام، لأنّه ما من سلامٍ دون تربيةٍ مناسبةٍ للأجيالِ الصاعدة. وما من تربيةٍ مناسبةٍ لشبابِ اليوم، إن لم يستجِبِ التعليمُ الذي يوقَّرُ لهم، لطبيعةِ الإنسان، الكائنِ المنفتحِ والعلائقيِّ.

فالتربيةُ تتحوّلُ في الواقعِ إلى حكمةٍ حياةٍ عندما تكونُ قادرةً على أن تدفعَ الانسانَ، بتواصلٍ مع الذي يجعلُهُ يسمو ومع ما يحيطُ به، لإعطاءِ أفضلِ ما عنده، فتكوّنَ هويّاتٍ غيرِ منظويةٍ على ذاتها. الحكمةُ تبحثُ عن الآخر، فتتخطّى خطرَ التشدّدِ والانغلاقِ؛ كونها منفتحةٌ وفي حركةٍ دائمة، ووديعَةٌ ومجتهدَةٌ في الوقتِ عينه، فهي تعرفُ كيفَ تقيّمُ الماضي وتضعُهُ في حوارٍ مع الحاضر، ولا تستغني عن إيجادِ تفسيرٍ مناسبٍ له. وتحضّرُ الحكمةُ هذه لمستقبلٍ، الهدفُ فيه ليس لسيادةِ الجانبِ الشخصيِّ، إنما

الأخر، كجزء لا يتجزأ من الذات؛ ولا تتعب، في الحاضر، من انتقاء فرص التلاقي والمشاركة؛ وتتعلم من الماضي أنه لا ينبع من الشر إلا الشر، ولا ينبع من العنف إلا العنف، في دوامة تتحوّل في نهاية المطاف إلى سجن. هذه الحكمة، إذ ترفض شهوة التعدي، تُركّز على كرامة الإنسان، الثمين في عيني الله، وعلى أخلاقيات تليق بالإنسان، رافضة الخوف من الآخر ومن المعرفة بواسطة الوسائل التي وهبها الخالق للإنسان.⁹⁷

إننا مدعوون دومًا، في مجال الحوار بالتحديد، ولا سيما الديني منه، إلى السير معًا، مؤمنين أن مستقبل الجميع يتعلّق أيضًا باللقاء ما بين الأديان والثقافات. ومن هذا المنطلق، يقدّم لنا عمل اللجنة المشتركة للحوار بين المجلس الحبري للحوار بين الأديان ولجنة الأزهر للحوار مثلًا ملموسًا ومشجعًا. وباستطاعة ثلاثة توجّهات أساسية، إذا ما تمّ تنسيقها بطريقة جيّدة، أن تساعد في الحوار: ضرورة الهوية، وشجاعة الاختلاف، وصدق النوايا. ضرورة الهوية، لأنه لا يمكن تأسيس حوار حقيقي على الغموض أو على التضحية بما هو صالح، من أجل إرضاء الآخر؛ شجاعة الاختلاف، لأنه لا ينبغي أن أعمل من هو مختلف عني، ثقافيًا أو دينيًا، كعدو، بل أن أقبله كرفيق درب، باقتناع حقيقي أن خير كلّ فرد يكمن في خير الجميع؛ صدق النوايا، لأن الحوار، كونه تعبيرًا أصيلًا للإنسان، ليس استراتيجيًّا لتحقيق غايات ثانوية، إنما مسيرة حقّ تستحق أن نتبناها بصبر كي تحوّل المنافسة إلى تعاون.

إن التربية على الانفتاح باحترام، وعلى الحوار الصادق مع الآخر، مع الاعتراف بحقوقه وبالحرّيات الأساسية، ولا سيما الحرية الدينية منها، تشكّل الطريق الأفضل لبناء المستقبل معًا، لتكون بناء حضارة. لأن البديل الآخر الوحيد لثقافة اللقاء هو ثقافة الصدام، ما من بديل آخر. لأنه من الضروري، كي نواجه فعلاً بربرية من يحرض على الكراهية والعنف، أن نرافق ونقود إلى النضوج أجيالًا تجيب على منطق الشر المحرض بنمو صبور للخير: شبابًا، مثل الأشجار الراسخة، يكونون متجذرين في

⁹⁷ من جهة أخرى لا يمكن لأخلاقيات الأخوة والتعايش السلمي بين الأشخاص والشعوب أن يقوموا على منطق الخوف والعنف والانغلاق، وإنما على المسؤولية والاحترام والحوار الصادق، اللاعنّف: أسلوب سياسة من أجل السلام، رسالة قداسة البابا بمناسبة اليوم العالمي للسلام 2017، عدد 5.

أرض التاريخ، ويحوّلون يومياً، فيما ينمون صوب العلي وجنباً إلى جنب مع الآخرين، جو الكره الملوّث إلى أكسيجين الأخوة.

إننا مدعوّون، في هذا التحدي الحضاريّ المُلحّ والمشوّق، مسيحيّين ومسلمين، والمؤمنين جميعاً، إلى تقديم مساهمتنا: "نعيش تحت شمس إله واحد رحيم [...] ويمكننا، من هذا المنطلق، أن ندعو بعضنا بعضاً إخوة وأخوات [...]، لأنّ حياة الإنسان دون الله تكون مثل السماء دون الشمس"⁹⁸. لتشرق شمسُ أخوة متجدّدة باسم الله وليبرُغ من هذه الأرض، التي تعانقها الشمس، فجرُ ثقافة السلام واللقاء، بتضرعات القديس فرنسيس الأسيزي، الذي أتى مصر قبل ثمانية عقود وقابل السلطان مالك الكامل.

أرضُ عهود. لم تشرق في مصر شمس الحكمة وحسب؛ بل شعّ أيضاً على هذه الأرض نورُ الأديان المتعدّد الألوان: وهنا شكّلت اختلافات الأديان "شكلا من أشكال الغنى المتبادل في خدمة المجتمع الوطنيّ الأوحد"⁹⁹. أديانٌ متنوّعةٌ تلاقت، وحضاراتٌ مختلفةٌ اختلطت، دون أن تتداخل ببعضها البعض، إنما مدركة أهميّة التحالف من أجل الصالح العام. إن عهوداً من هذا النوع هي مُلحة اليوم أكثر من أيّ وقت مضى. وأودّ أن أستخدم كرمز، وأنا أتكلّم عنها، "جبل العهد" الذي ينتصب شامخاً في هذه الأرض. يذكّرنا جبل سيناء قبل كلّ شيء، أنّه لا يمكن لعهد في الأرض أن يصرف النظر عن السماء، وأنّه لا يمكن للإنسانيّة أن تصمّم على التلاقي بسلام، وهي تستبعد الله من الأفق، ولا حتى أن تصعد إلى الجبل كي تستحوذ على الله (را. خر 19، 12).

إنها مسألة رسالة حيّية، إزاء الاستمرار الراهن لمفارقة خطيرة، بحيث أن البعض يميل من جهة إلى وضع الدين في خانة الشؤون الخاصة، دون الاعتراف بأنّه عنصرٌ أساسيٌّ في تكوين الكائن البشريّ والمجتمع؛ ويخطئ البعض من جهة أخرى دون تمييز ملائم، بين الحقل الدينيّ والحقل السياسيّ. وثمة خطر بأن يطغى تدبيرُ الشؤون الزمنيّة على الدين، وأن يقع هذا الأخير، أي الدين، في شرك إغراءات السلطة الدنيوية

⁹⁸ القديس يوحنا بولس الثاني، كلمة البابا إلى السلطات الإسلاميّة، كادونا (نيجيريا)، 14 فبراير / شباط 1982.

⁹⁹ نفس الكاتب، كلمة البابا خلال حفل الوصول، 24 فبراير / شباط 2000.

التي، في الواقع، تستخدمه. في عالم قد عوِّلمَ العديدُ من الأدوات التقنية المفيدة، ولكن في الوقت عينه عوِّلمَ الكثيرُ من اللامبالاة والاهمال، والذي يتقدّم بسرعة محمومة، من الصعب تحمّلها، نشعرُ بالحنين إلى الأسئلة الكبرى، التي تبرزها الأديان، والتي توظف ذاكرة الجذور الشخصية: دعوة الإنسان، الذي لم يُخلق لينتهي في وهن الشؤون الدنيوية، إنما كي يسير نحو المطلق الأوحد الذي يتوق إليه. لهذه الأسباب، ولا سيّما اليوم، فإن الدين ليس بمشكلة إنما هو جزءٌ من الحلّ: لمحاربة الميل إلى الاسترخاء في حياةٍ دنيوية، حيث يولد كلّ شيء وينتهي ههنا، يذكّرنا الدينُ أنّه من الضروري أن نرتفع بروحنا إلى العلى كي نتعلّم كيف نبني مدينة البشر.

أودّ أن أشير، بهذا المعنى، وأنا شاخص بنظري مجدداً إلى جبل سيناء، إلى تلك الوصايا التي أعطيت هناك، قبل أن تُكتَبَ على الحجر¹⁰⁰. ففي وسط "الوصايا العشر" - الموجهة إلى البشر وإلى شعوب كلّ العصور - يعود صدى وصيّة "لا تقتل" (خر 20، 13). إن الله، محبّ الحياة، لا يكفّ عن محبّة الإنسان، لذا فهو يحثّه على مواجهة طريق العنف، كشرطٍ أساسيٍّ لأيّ عهدٍ على الأرض. إن المدعوّين إلى تفعيل هذه الوصيّة، هم قبل أيّ شيء، واليوم على وجه الخصوص، الأديان، لأنّه من الأساسي، بينما نحن بحاجة ملحة إلى المطلق، استبعاد اعتبار أيّ أمرٍ مُطلقٍ يبرّر أيّ شكلٍ من أشكال العنف. فالعنف في الواقع هو النفي بحدّ ذاته لأيّ تدينٍ أصيل.

نحن مدعوّون بالتالي، كمسؤولين دينيين، إلى فضح العنف الذي ينتكّر بزيّ القدسيّة المزعومة، ويستغلّ أشكال الأناثيّة التي تحولت إلى مُطلق، بدل الانفتاح الصادق على المُطلق الأوحد. فمن المتوجّب علينا شجب الانتهاكات ضدّ كرامة الإنسان وضد حقوق الإنسان، وكشف كلّ محاولة لتبرير أيّ شكلٍ من أشكال الكراهية باسم الدين،

4 "كُتبت في قلب الإنسان كشرية أخلاقية عالمية، صالحة في كلّ زمن وفي كلّ مكان". وهي توفّر "أساساً صحيحاً لحياة الأفراد والمجتمعات والأمم. [...] وهي المستقبل الوحيد للأسرة البشرية. تتفدّ الانسان من القوّة التدميرية للأناثيّة والحدق والكذب. وهي تفضح كلّ الألهة المزيفة التي تستعيد الانسان: حبّ الذات حتى استبعاد الله، الطمع في السلطة والاستمتاع الذي يقلب نظام العدالة ويحطّ بكرامة الإنسان، وبكرامة القريب": نفس الكاتب، *ليتورجيا الكلمة على جبل سيناء*، دير القديسة كاترينا، 26 فبراير / شباط 2000 .

وإدانتها على أنها تزييفٌ وثنيٌّ لله: لأن اسمه قدوس، وهو إله السلام¹⁰¹. لذا فالسلام وحده مُقدَّس، وما من عنفٍ يمكن أن يُرتكب باسم الله، لأنه إن ارتكبَ يدنِّسه.

لنكرّر معاً، من هذه الأرض، أرض اللقاء بين السماء والأرض، وأرض العهود بين البشر وبين المؤمنين، لنكرر "لا" قويّة وواضحة لأيّ شكلٍ من أشكال العنف، والثأر والكرهية يرتكب باسم الدين أو باسم الله. ولنؤكد سويًا استحالة الخلط بين العنف والإيمان، بين الإيمان والكرهية. ولنعلن معاً قُدسيّة كلّ حياةٍ بشريّة ضدّ أيّ شكلٍ من أشكال العنف الجسديّ، أو الاجتماعيّ، أو التربويّ أو النفسيّ. إن الإيمان الذي لا يولد من قلب صادق ومن محبة أصيلة لله الرحيم، هو شكلٌ من أشكال العضوية التعودية أو الاجتماعية التي لا تُحرّر الإنسان إنما تُسحقه! لنقل معاً: كلما نمو في الإيمان بالله، كلما نمو في محبة القريب!

لكن الإيمان ليس بالطبع دعوة إلى فضح الشرّ وحسب؛ فهو يتضمّن الدعوة إلى تعزيز السلام، اليوم ربّما أكثر من أيّ وقت مضى¹⁰². ومهمّتنا، دون الاستسلام إلى توفيقية تصالحيّة¹⁰³، هي أن نصلي بعضنا لبعض سائلين الله نعمة السلام، وأن نتلاقى، ونتحاور ونوطد الانسجام بروح من التعاون والصدقة. ونحن كمسيحيين –وأنا مسيحي- "لا نستطيع أن ندعو الله أبا لجميع البشر إذا رفضنا أن نسلك كإخوة تجاه أولئك المخلوقين على صورة الله"¹⁰⁴. إخوة للجميع. ونعرف فضلاً عن ذلك، ونحن منغمسون في صراع مستمرّ ضدّ الشرّ الذي يهدّد العالم حتى لا يبقى هذا العالم "موضعاً لأخوة حقيقية"، "أن [الله] يحمل الذين يؤمنون بالمحبة الإلهية على اليقين، بأن طريق المحبة مفتوحة أمام

¹⁰¹ كلمة قداسة البابا فرنسيس في مسجد كودوكو المركزي، بانغي (جمهورية أفريقيا الوسطى)، 30 نوفمبر / تشرين الثاني 2015.

¹⁰² في الواقع، "أصبح من الواضح للجميع، أكثر من أيّ وقت مضى في تاريخ البشرية ربما، أن هناك صلة جوهرية بين الموقف الدينيّ الأصيل والخير الأعظم الذي هو السلام": القديس يوحنا بولس الثاني، كلمة قداسة البابا إلى ممثلي الكنائس المسيحية والجماعات الكنسية والأديان العالمية التي اجتمعت في أسيزي، في الساحة السفلى لكنيسة القديس فرنسيس، 27 أكتوبر / تشرين الأول 1986. تعاليم IX، 2.

1268.

¹⁰³ الارشاد الرسولي فرح الإنجيل، 251.

¹⁰⁴ المجمع الفاتيكاني الثاني، في عصرنا 5.

البشر أجمعين وأن الجهود لتوطيد أخوة شاملة ليست باطلة¹⁰⁵. بل هي أساسية: فعند أبسط الأمور، في الواقع، تظهر الحاجة إلى رفع الأصوات، وإلى الإسراع في إعادة التسلح من أجل الدفاع عن النفس: إننا بحاجة اليوم إلى بناء سلام، لا إلى الأسلحة؛ إننا بحاجة اليوم إلى بناء سلام، لا إلى محرّضين على الصراعات؛ إننا بحاجة إلى "رجال إطفاء"، لا إلى مُشعلي النيران؛ إننا بحاجة إلى الدعاة إلى المصالحة، لا إلى المهذّدين بالدمار.

إننا نشهد مع الأسف، من جهة، ابتعادًا عن واقع الشعوب باسم أهدافٍ لا تأخذُ أحدًا بعين الاعتبار، ومن جهة أخرى، كردّة فعل، برزت شعبيّات غوغائية، لا تساعد بالطبع في تعزيز السلام والاستقرار: ما من تحريضٍ على العنف يضمنُ السلام؛ وأيّ عملٍ أحاديّ، لا يولّد عمليّات بناءٍ مشتركة، إنما هو في الواقع هديّة لدعاة التطرّف والعنف.

من أجل تفادي الصراعات وبناء السلام، من الأساسيّ العمل على استئصال أوضاع الفقر والاستغلال، حيث يتأصل المتطرّفون بسهولة أكبر؛ وعلى ردع تدفق الأموال والأسلحة نحو الذين يثيرون العنف. وإن عدنا للسبب الأساسي، من الضروري وقف انتشار الأسلحة التي، إن تمّ تصنيعها وتسويقها، سوف يتمّ استخدامها عاجلاً أو آجلاً. لا يمكن منع الأسباب الحقيقيّة لسرطان الحرب، إلّا إذا استطعنا كشف المناورات الخفية والملتوية التي تغذّيه. ويضع هذا العمل الملحّ والخطير للغاية الجمل على كاهل مسؤولي الأمم، وعلى المؤسسات، والتعليم، كما يقع على كاهلنا نحن المسؤولين تجاه الحضارة، والمدعوّين من الله، ومن التاريخ، ومن المستقبل، إلى بدء عمليّات سلام، كلٌّ في مجاله، دون التهرّب من وضع أسس تحالف صلبة بين الشعوب والدول. أرجو أن تتمكن، أرض مصر العريقة والعزيزة، بمعونة الله، أن تجيب على دعوتها، دعوة الحضارة والعهد، وتساهم بنموّ عمليّات سلام لهذا الشعب الحبيب ولمنطقة الشرق الأوسط بأسرها.

¹⁰⁵ المجمع الفاتيكاني الثاني، فرح ورجاء 38.

السلام عليكم!

كلمة شيخ الأزهر ضمن لقاء الأخوة الإنسانية وحوار الأديان

المنعقد

في الرابع من شهر فبراير 2019

أبدأ كلمتي بتوجيه الشكر الجزيل لدولة الإمارات العربية المتحدة: قيادةً وشعباً، لاستضافة هذا الحدث التاريخي، الذي يجمع قادة الأديان، وعُلماءها ورجال الكنائس، ورجال السياسة والفكر والأدب والإعلام.. هذه الكوكبة العالمية التي تجتمع اليوم على أرض "أبوظبي" الطيبة، ليشهدوا مع العالم كله إطلاق «وثيقة الأخوة الإنسانية»، وما تتضمنه من دعوة لنشر ثقافة السلام واحترام الغير وتحقيق الرفاهية للبشرية جمعاء، بديلاً من ثقافة الكراهية والظلم والعنف والدماء، ولتطالب قادة العالم وصنّاع السياسات، ومن بأيديهم مصائر الشعوب وموازين القوى العسكرية والاقتصادية – تطالبهم بالتدخل الفوري لوقف نزيف الدماء، وإزهاق الأرواح البريئة، ووضع نهاية فورية لما تشهده من صراعات وفتن وحروب عبثية أوشكت أن تعود بنا إلى تراجع حضاري بائس ينذر باندلاع حرب عالمية ثالثة.

.. ..

الحفل الكريم!

إنني أنتمي إلى جيل يُمكن أن يُسمّى بجيل الحروب، بكل ما تحمله هذه الكلمة من خوف ورُعب ومُعاناة، فلازلت أذكر حديث النَّاس –عقب الحرب العالميّة الثانية- عن أهوال الحرب وما خلّفته من دمار وخراب، وما كادت أبلغ العاشرة من عُمرِي حتى دهمتنا حرب العدوان الثلاثي في أكتوبر 1956م، ورأيت بعيني قصف الطائرات لمطار مدينتي مدينة الأقصر، وكيف عشنا ليالي في ظلامٍ دامس لا يغمض لنا فيها جفن حتى الصباح، وكيف كنا نُهرع إلى المغارات لنحتمي بها في جنح الظلام، ولا تزال الذاكرة تخترن من هذه الذكريات الأليمة ما يعيدها جَدْعاً كأن لم يَمُرَّ عليها أكثر من ستين عامًا.. ولم يمض على هذه الحرب سنوات عشر حتى اندلعت حرب 1967م، وكانت أشد وأقسى من سابقتها، عشناها بكل مأسيتها، وعشنا بعدها ست سنوات فيما يُسمّى باقتصاد الحروب،

ولم نتنفس الصعداء إلا مع انتصار 73 في حرب التحرير التي أعادت للعرب جميعاً كرامتهم، وبعثت فيهم مكامن العزّة والإباء، والقُدرة على دحر الظلم وأهله، وكسر شوكة العدوان والمعتدين.. وظننا وقتها أننا ودعنا عهد الحروب، وبدأنا عصر السّلام والأمان والإنتاج.

لكن الأمر سرعان ما تبدّل بعد ذلك حين واجهتنا موجة جديدة من حرب خبيثة تُسمّى «الإرهاب» بدأت في التسعينات، ثم استفحل أمرها بعد ذلك حتى أصبحت اليوم تقض مضاجع العالم شرقاً وغرباً.

وكان الأمل أن تطل علينا الأفية الثالثة، وقد انحسرت موجات العنف والإرهاب وقتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، ولكن خاب الأمل مرة ثالثة حين دهمتنا حادثة تفجير برجى التجارة في نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر من مطلع القرن الحادي والعشرين، والتي دفع الإسلام والمسلمون ثمنها غالياً، وأخذ فيها مليار ونصف المليار مسلم بجريرة أفراد لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليدين، فقد استُغلت هذه الحادثة استغلالاً سلبياً في إغراء «الإعلام» الدولي بإظهار الإسلام في صورة الدين المتعطش لسفك الدماء، وتصوير المسلمين في صورة برابرة متوحشين أصبحوا خطراً داهماً على الحضارات والمجتمعات المتحضرة، وقد نجح هذا الإعلام في بعث مشاعر الكراهية والخوف في نفوس الغربيين من الإسلام والمسلمين، وسيطرت عليهم حالة من الرعب ليس من الإرهابيين فقط، بل من كل ما هو إسلامي جُملةً وتفصيلاً..

السّيّداتُ والسّادة!

إنّ «وثيقة الأخوة» التي نحتفل بإطلاقها اليوم من هذه الأرض الطيّبة وُلدت على مائدة كريمة كنت فيها ضيفاً على أخي وصديقي العزيز فرنسيس بمنزله العامر، حين ألقى بها أحد الشّباب الحاضرين على هذه المائدة المباركة، ولقيت ترحيباً واستحساناً كريماً من قداسته، ودعماً وتأييداً منّي، وذلك بعد حوارات عدّة تأملنا فيها أوضاع العالم وأحواله، ومآسي القتلى والفقراء والبؤساء والأرامل واليتامى والمظلومين والخائفين، والفارين من ديارهم وأوطانهم وأهليهم، وما الذي يُمكن أن تُقدّمه الأديان الإلهية كطوق

نجاه لهؤلاء التعساء، وما ادهشني هو أن هموم قداسته وهمومي كانت مُتطابقة أشد التطابق وأتمه وأكمله، وأن كل منّا استشعر حرمة المسؤولية التي سيحاسبنا الله عليها في الدَّار الآخرة، وكان صديقي العزيز رحيماً يتألم لمآسي الناس كل الناس. بلا تفرقة ولا تمييز ولا تحفظ.

وكان أبرز ما تسالمتنا عليه هو:

أن الأديان الإلهية، بريئة كل البراءة من الحركات والجماعات المسلحة التي تُسمَّى حديثاً بـ «الإرهاب»، كائنًا ما كان دينها أو عقيدتها أو فكرها، أو ضحاياها، أو الأرض التي تُمارس عليها جرائمها المنكرة.. فهؤلاء قتلة وسفاكون للدماء، ومعتدون على الله ورسالاته.. وأن على المسؤولين شرقاً وغرباً أن يقوموا بواجبهم في تعقُّب هؤلاء المعتدين والتصدي لهم بكل قوة، وحماية أرواح الناس وعقائدهم ودور عباداتهم من جرائمهم.

كما تسالمتنا على أن الأديان قد أجمعت على تحريم الدماء، وأن الله حرَّم قتل النفس في جميع رسالاته الإلهية: صرخ بذلك موسى عليه السلام في الوصايا العشر على جبل حوريب بسيناء وقال: «لَا تَقْتُلْ! لَا تَزْنِ! لَا تَسْرِقْ!»⁽¹⁰⁶⁾، ثم صدع به عيسى عليه السلام من فوق جبل من جبال الجليل، بالقرب من كفر ناحوم بفلسطين، «في كنزهِ الأخلاقي النفيس» الذي يُعرف بموعظة الجبل، وقد أكَّد السيد المسيح ما جاء به موسى، وزاد عليه في قوله: «سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَقْتُلْ، فَإِنَّ مَنْ يَقْتُلْ يَسْتَوْجِبُ حُكْمَ الْقَضَاءِ، أَمَا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: مَنْ غَضِبَ عَلَى أَخِيهِ اسْتَوْجِبَ حُكْمَ الْقَضَاءِ (...).» ومن قال له: يا جاهل استوجب نار جهنم»⁽¹⁰⁷⁾، وجاء محمد ﷺ وأعلن للناس من فوق جبل عرفات في آخر خطبة له تُسمَّى خطبة الوداع، أعلن ما أعلنه أخواه من قبله، وزاد أيضاً وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي لِعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا، بِمَكَانِي هَذَا، فَرَحِمَ اللَّهُ أُمَّرَأَةً

¹⁰⁶سفر الخروج (الفصل 20).

¹⁰⁷مَتَّى 5: 21-25.

سمع مقالتي اليوم فوعاها (...). أيُّها النَّاسُ، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم (...). ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب». وكان يقول من فرَّق بين والدته وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة.. ومن أشار إلى أخيه بحديده، فإنَّ الملائكة تلعنهُ، وإنَّ كانَ أخاهُ لأبيه وأمه.

هذا إلى عشرات الآيات القرآنية التي تحرم قتل النفس، وتعلن أن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيها جميعاً..

وتلاحظون حضراتكم وحدة الخطاب الإلهي ووحدة معناه، بل وحدة المنصَّات التي خطب عليها هؤلاء الأنبياء الكرام، وهي: جبل الطور بسيناء في مصر، وجبل من الجبال في فلسطين، وجبل عرفات بمكة في جزيرة العرب..

ومن هذا يتضح جلياً أنه ليس صحيحاً ما يُقال من أن الأديان هي بريد الحروب وسببها الرئيسي، وأن التاريخ شاهد على ذلك، ممَّا برَّر ثورة الحضارة المعاصرة على الدِّين وأخلاقه، وإبعاده عن التدخل في شؤون المجتمعات، بعدما سرت هذه الفرية - سريان النار في الهشيم- في وعي الناس والشباب، وبخاصة في الغرب، وكانت من وراء انتشار دعوات الإلحاد والفلسفات الماديَّة ومذاهب الفوضى والعدميَّة والحرية بلا سقف، وإحلال العلم التجريبي محل «الدِّين»، ورُغم ذلك، وبعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على الثورة على الله وعلى الأديان الإلهية جاءت المحصلة كارثية بكل المقاييس، تمثَّلت في مأساوية الإنسان المعاصر التي لا ينكرها إلا مكابر..

والحق الذي يجب أن ندفع به هذه الفرية هو أن أوَّل أسباب أزمة العالم المُعاصر اليوم إنما يعود إلى غياب الضمير الإنساني وغياب الأخلاق الدِّينية، وتَحكُّم النزعات والشهوات الماديَّة والإلحاديَّة والفلسفات العقيمة البائسة التي ألَّهت الإنسان، وسخرت من الله، ومن المؤمنين به.. واستهزأت بالقيم العليا المتسامية التي هي الضَّابط الأوحد لكبح جماح الإنسان وترويض «الذئب» المستكن بين جوانحه..

أمَّا الحروب التي انطلقت باسم «الأديان»، وقتلت الناس تحت لافتاتها فإنَّ الأديان لا تُسأل عنها، وإنما يُسأل عنها هذا النوع من السياسات الطائشة التي دأبت على استغلال

بعض رجال الأديان وتوريطهم في أغراضٍ لا يعرفها الدين ولا يحترمها، ونحن نقر بأن هناك من رجال الأديان من تأوّل نصوصها المقدّسة تأويلاً فاسداً، لكننا لا نقر أبداً بأن قراءة الدين قراءة أمينة نظيفة لا تسمح أبداً لهؤلاء الضالين المضلين بالانتساب الصحيح إلى أي دين إلهي، ولا تُبرّر لهم خيانة أمانتهم في تبليغه للناس كما أنزله الله.

على أن هذا الانحراف الموظّف في فهم النصوص ليس قاصراً على نصوص الأديان واستغلالها في العدوان على الناس، بل كثيراً ما يحدث مثله في أسواق السياسة، حين تُقرأ نصوص المواثيق الدولية المتكفلة بحفظ السلام العالمي قراءة خاصّة تبرر شنّ الحروب على دول آمنة، وتدميرها على رؤوس شعوبها، ولا مانع بعد أن تقضي هذه السياسات شهواتها العدوانية البشعة.. لا مانع من الاعتذار للتكالي واليتامى والأرامل بأنها أخطأت الحساب والتقدير. والأمثلة على ذلك واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

من أجل ذلك نادينا في هذه الوثيقة «بوقف استخدام الأديان، والمذاهب، في تأجيج الكراهية والعنف والتعصّب الأعمى، والكفّ عن استخدام اسم الله لتبرير أعمال القتل والتشريد والإرهاب والبطش، ونكّرنا العالم كله بأن الله لم يخلق الناس ليقتلوا أو يُعذبوا أو يُضيق عليهم في حياتهم ومعاشهم... والله -عز وجل- في غنى عمّن يدعو إليه بزهاق الأرواح أو يُرهب الآخرين باسمه».

الحفلُ الكريم!

إنني على يقين أن هذه المبادرات الضرورية والتحركات الطيبة نحو تحقيق الأخوة الإنسانية في منطقتنا العربية سوف تؤدي ثمارها، وقد بدأت، بحمد الله، بقوة في مصر المحروسة حيث افتتح قبل عدة أيام أول وأكبر مسجد وكنيسة متجاورين، في العاصمة الإدارية الجديدة، وفي خطوة تاريخية، نحو تعزيز التسامح وترسيخ الأخوة بين الأديان، وبمبادرة رائدة من السيد الرئيس عبد الفتاح السيسي، رئيس جمهورية مصر العربية.

وتبقى لي كلمة أوجهها لإخوتي المسلمين في الشرق، وهي أن تستمروا في احتضان إخوتكم من المواطنين المسيحيين في كل مكان؛ فهم شركاؤنا في الوطن، وإخوتنا الذين يُذكرنا قرآنا الكريم بأنهم أقرب الناس مودةً إلينا، ويعلّل القرآن هذه المودة بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: 82]، فالمسيحيون - كل المسيحيين - قلوبهم مملوءة خيرا ورافة ورحمة، والله تعالى هو الذي جعل في قلوبهم هذه الخصال الحميدة.. وهذا ما يسجله القرآن في قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: 27] .

ويجب علينا نحن المسلمين ألا ننسى أن المسيحية احتضنت الإسلام، حين كان دينا وليدا، وحمته من طغيان الوثنية والشرك، التي كانت تتطلع إلى اغتياله في مهده، وذلك حين أمر النبي ﷺ المستضعفين من أصحابه، وهم أكثر تابعيه حين اشدت عليهم أذى قريش وقال لهم: « اذهبوا إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم أحد في جواره » وقد استقبلهم هذا الملك المسيحي في دولته المسيحية، وأكرمهم وحماهم من قريش، ثم أعادهم إلى المدينة المنورة بعد أن اشدت عود الإسلام واستوى على سوقه.

وكلمة أخرى لإخوتي المسيحيين في الشرق: أنتم جزء من هذه الأمة، وأنتم مواطنون. ولستم أقلية، وأرجوكم أن تتخلصوا من ثقافة مصطلح الأقلية الكرية، فأنتم مواطنون كاملو الحقوق والواجبات، واعلموا أن وحدتنا هي الصخرة الوحيدة التي تتحطم عليها المؤامرات التي لا تفرق بين مسيحي ومسلم إذ جد الجد وحان قطف الثمار.

وكلمتي للمواطنين المسلمين في الغرب أن اندمجوا في مجتمعاتكم اندماجا إيجابيا، تحافظون فيها على هويتكم الدينية كما تحافظون على احترام قوانين هذه المجتمعات، واعلموا أن أمن هذه المجتمعات مسؤولية شرعية، وأمانة دينية في رقابكم تُسألون عنها أمام الله تعالى، وإن صدر من القوانين ما يفرض عليكم مخالفة شريعتكم فألجأوا إلى الطرق القانونية، فإنها كفيلة برّد الحقوق إليكم وحماية حريتكم.

كما أقول لشباب العالم في الغرب والشرق: إن المستقبل يبتسم لكم، وعليكم أن تتسلحوا بالأخلاق وبالعلم والمعرفة، وعليكم أن تجعلوا من هذه الوثيقة دستور مبادئ لحياتكم، اجعلوا منها ضماناً لمستقبل خال من الصراع والآلام، اجعلوا منها ميثاقاً بانياً للخير هادماً للشر، اجعلوا منها نهاية للكراهية.. علّموا أبناءكم هذه الوثيقة فهي امتداد لوثيقة المدينة المنورة، ولموعظة الجبل، وهي حارسة للمشاركات الإنسانيّة والمبادئ الأخلاقيّة.. وسوف أعمل مع أخي قداسة البابا، فيما تبقى لنا من العمر، ومع كل الرموز الدنيّة من أجل حماية المجتمعات واستقرارها، وهنا يجب أن أشيد بملتقى تحالف الأديان لأمن المجتمعات الذي انعقد هنا في أبوظبي نوفمبر الماضي وحظي بدعم من الأزهر الشريف ومن الفاتيكان، وحضره عدد من قادة الأديان للقيام بمسؤوليتهم من أجل حماية كرامة الطفل.

.. ..

وختاماً: أتوجّه بالشكر الجزيل للأخ الكريم صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد على رعايته لهذه المبادرة التاريخيّة، واحتضانه «وثيقة الأخوة الإنسانيّة» التي نرجو أن يكون لها ما بعدها من إقرار السّلام بين الشعوب، وإيقاظ مشاعر المحبّة والاحترام المتبادل بين الغرب والشرق وبين الشّمال والجنوب.

كما أقدم الشكر لسمو الشيخ عبد الله بن زايد ولكل الشباب المتميز الذي سهر على ترتيب هذا اللقاء وتنظيمه وإخراجه بهذه الصورة المشرفة.

وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، أسجّل شكري لجنديين مجهولين كانا وراء إعداد «وثيقة الأخوة الإنسانيّة» من بدايتها حتى ظهورها اليوم في هذا الحدث العالمي، وهما: ابناي العزيزان القاضي/ محمد عبد السلام – المستشار السابق لشيخ الأزهر، والأب يونس لحظي جيد – السكرتير الشخصي لقداسة البابا فرنسيس، فلهما ولكل من أسهم في إنجاح هذا اللقاء خالص الشكر والتقدير والاحترام.

كلمة البابا فرنسيس ضمن لقاء الأخوة الإنسانية وحوار الأديان

أبو ظبي

4 فبراير 2019

السلام عليكم! أشكر من كل قلبي الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، وفضيلة الإمام الدكتور أحمد الطيب. وأنا ممتن لمجلس الحكماء المسلمين على اللقاء الذي تم في مسجد الشيخ زايد الكبير، وأحيي الرئيس عبد الفتاح السيسي الرئيس المصري، والسلطات المدنية والدينية هنا في البلد، اسمحوا لي أن أشكركم جميعاً على الذي قدمتموه لنا ولوفدنا المشارك. كما أشكر جميع الأشخاص الذين شاركوا في هذا الحدث لإنجاحه، الموظفين ورجال الأمن وجميع من هم خلف الكواليس في هذا الحدث، وأتوجه بالشكر لمستشار للأمام الأكبر السابق الدكتور محمد عبد السلام.

من وطنكم أناشد جميع بلدان شبه الجزيرة، التي أود أن أوجه إليها تحياتي الودية، بصداقة واحترام والتقدير.

بروح ممتنة للرب، في الذكرى المئوية الثامنة للقاء القديس فرنسيس الأسيزي والسلطان الملك الكامل، رحبت باهتمام المجيء إلى هنا كمؤمن متعطش للسلام، كأخ يسعى إلى السلام. مع الاخوة. نريد السلام، وتعزيز السلام، لتكونوا أدوات للسلام: هذا ما جئنا من أجله هنا.

وشعار الزيارة يتكون من شعار غصن الزيتون وحمامة السلام، وندكر جميعاً أن الله طلب من نوح النبي أن يدخل في الفلك مع عائلته، واليوم نحن بحاجة إلى الدخول معا كعائلة بشرية في فلك، وأن تعبر بحار عالم العاصفة. فلك الأخوة إنها سفينة القوة، نقطة الانطلاق، وهي أن الله هو كونه خالق كل شيء ويريد أن نعيش كإخوة وأخوات، وهنا تتأسس الأخوة عند جذور الحياة المشتركة" أنها دعوة الله

الواردة¹⁰⁸، أنها تخبرنا أننا جميعًا نملك الكرامة ولا يمكن لأحد أن يكون سيدا للآخرين وأخرين عبيد

فكل فرد هو ثمين في عين الله، لذلك فالاعتراف بالحقوق لكل بشري إنما تمجيد باسم الله على الأرض، ويجب أن نُدين كل أشكال العنف، لأنه لا يمكن تكريم الخالق دون الحفاظ على قدسية كل إنسان وكل حياة بشرية: فكل واحد ثمين في نظر الله، لأنه لا ينظر إلى الأسرة البشرية بنظرة تفضيل تستثني، بل بمظهر الخير والمحبة. ويشمل. لذلك، فإن الاعتراف بنفس الحقوق لكل إنسان يعني تمجيد اسم الله على الأرض. بسم الله الخالق، إذن، أي شكل من أشكال العنف يُدان دون تردد، لأنه من الدلالات الجادة لاسم الله استخدامه لتبرير الكراهية والبطش ضد الأخ. لا يوجد عنف يمكن تبريره دينياً.

ان عدو الأخوة هي النزعة الفرداني، الذي تترجم إلى الإرادة لتأكيد الذات والمجموعة الخاصة على حساب الآخرين. إنه فخ يهدد جميع جوانب الحياة، حتى الصفات الأسمى والفطرية لدي الإنسان، أي الانفتاح على من هو متسامح والتدين. وعلي أن التدين الحقيقي يقوم على محبة الله من كل القلب وحب لأخيك كما تحب لنفسك. وبالتالي، يجب تنقية السلوك الديني باستمرار من خلال الإغراء المتكرر للحكم على الأعداء والخصوم الآخرين. تُدعى كل عقيدة للتغلب على الفجوة بين الأصدقاء والأعداء، لتتبنى وجهة نظر الله نحو السماء، التي تعانق كل البشر دون محباه وتمييز.

لذلك أود أن أعرب عن تقديري لالتزام هذا البلد بالموافقة على حرية العبادة وضمائها ومواجهة التطرف والكراهية. من خلال القيام بذلك، أثناء تعزيز الحرية الأساسية في اعتناق العقيدة، وهو مطلب جوهري لإدراك الإنسان، فإنه يضمن أيضاً عدم استغلال الدين والمخاطر، والاعتراف بالعنف والإرهاب، لإنكار نفسه.

¹⁰⁸ بينديكت السادس عشر، كلمة البابا للسفراء الجدد المعتمدين لدى الكرسي الرسولي، 16 ديسمبر / كانون الأول 2010.

لكن الأخوة بالتأكيد «تعبّر أيضاً عن التنوّع والاختلاف الموجود بين الإخوة، بالرغم من رابط الولادة بينهم وامتلاكهم للطبيعة عينها ولذات الكرامة¹⁰⁹». والتعدّد الديني هو تعبير عن ذلك. وبالتالي فالموقف الصحيح في هذا الإطار ليس التجانس القسري، ولا التوفيق الخانع: ما دعينا للقيام به، كمؤمنين، هو أن نلتزم من أجل أن يحصل الجميع على المساواة في الكرامة، وذلك باسم الرحيم الذي خلقنا والذي باسمه علينا أن نبحث عن التآلف في التناقضات والأخوة في الاختلاف. أريد هنا أن أكرر التأكيد على قناعة الكنيسة الكاثوليكية: «لا يمكننا أن ندعو الله أباً للجميع إذا رفضنا أن نتصرّف كأخوة مع الناس المخلوقين على صورة الله¹¹⁰»

مع ذلك توجد أسئلة عديدة تفرض ذاتها: كيف نحافظ على بعضنا البعض في العائلة البشريّة الواحدة؟ وكيف نغذي أخوة غير نظريّة، تُترجم في أخوة حقيقيّة؟ كيف نجعل إدماج الآخر يسود على التهميش باسم انتمائنا الشخصي؟ كيف يمكن للديانات، باختصار، أن تكون قنوات أخوة بدلاً من أن تكون حواجز إقصاء؟

العائلة البشريّة وشجاعة الاختلاف

إن كنّا نؤمن بوجود العائلة البشريّة، فيجب بالتالي المحافظة عليها، كعائلة. وكما في كلّ عائلة، ذلك يكون أوّلاً من خلال حوار يوميّ وحقيقي. هذا الأمر يستلزم هويّة شخصيّة لا يجب التخلّي عنها لإرضاء الآخر. ولكنّه يتطلّب في الوقت عينه شجاعة الاختلاف¹¹¹، التي تتضمّن الاعتراف الكامل بالآخر وبحريّته، وما ينتج عنه من التزام ببذل الذات كي يتمّ التأكيد على حقوقه الأساسيّة، في كلّ مكان، ومن قِبَل الجميع. لأننا بدون حريّة لا نكون بعد أبناء العائلة البشريّة وإنما عبيد. من بين الحريّات، أرغب في تسليط الضوء على الحريّة الدينيّة. فهي لا تختصر على حريّة العبادة، بل ترى في الآخر أخصاً بالفعل، وابتناً لبشريّتي نفسها، ابناً يتركه الله حرّاً، ولا يمكن بالتالي لأي مؤسسة بشريّة أن تجبره حتى باسم الله.

² رسالة للاحتفال بيوم السلام العالمي 1 يناير 2015، 2.

³ إعلان عن علاقات الكنيسة مع الديانات غير المسيحية، عصرنا، 5.

⁴ خطاب المشاركين في مؤتمر السلام الدولي، مركز الأزهر للمؤتمرات، القاهرة، 28 أبريل 2017.

الحوار والصلاة

إن شجاعة الاختلاف هي روح الحوار الذي يقوم على صدق النوايا. والحوار في الواقع هو عرضة للازدواجية التي تزيد المسافة والشك: فليس بإمكاننا أن نعلن الأخوة ونتصرّف بعدها عكس ذلك. بحسب أحد الكُتّاب المعاصرين: «إنّ الذي يكذب على نفسه ويُصغي إلى أكاذيبه، يصل إلى حدّ عدم القدرة على تمييز الحقيقة، لا في داخله ولا من حوله، ويبدأ هكذا بفقدان احترامه لنفسه وللآخرين¹¹²».

إنّ الصلاة هي جوهرية في هذا كلّها: فهي، فيما تجسّد شجاعة الاختلاف إزاء الله، وفي صدق النوايا، تنقّي القلب من الانغلاق على نفسه. الصلاة التي تُتلى من القلب، تجدّد الأخوة. لذلك «فيما يختصّ بمستقبل الحوار بين الأديان ينبغي علينا أولاً أن نصلي. وأن نصلي من أجل بعضنا البعض: نحن إخوة! بدون الربّ لا شيء ممكن، ولكنّ معه كلّ شيء يصبح ممكناً! أرجو أن تُطابق صلاتنا بالتمام كلّ بحسب تقليده— مشيئة الله، الذي يريد أن يعترف جميع البشر بأنهم إخوة وأن يعيشوا على هذا النحو ويؤسّسوا العائلة البشرية الكبيرة في تناغم التنوّع»¹¹³.

ليس هناك من بديل آخر: إمّا نبني المستقبل معاً وإلا فلن يكون هناك مستقبل. لا يمكن للأديان، بشكل خاص، أن تتخلّى عن الواجب الملحّ في بناء جسور بين الشعوب والثقافات. لقد حان الوقت للأديان أن تبتذل ذاتها بشكل فعّال، وبشجاعة وإقدام، وبدون تظاهر، كي تساعد العائلة البشرية على إنضاج القدرة على المصالحة، ورؤية ملؤها الرجاء، واتخاذ مسارات سلام ملموسة.

التربية والعدالة

ونعود هكذا إلى الصورة الأولى لحمامة السلام. إن السلام أيضاً، كي يحلّق، يحتاج إلى جناحين يرفعانه، إنه يحتاج إلى جناحي التربية والعدالة.

⁵ فيدور دوستويفسكي، الأخوة كرامازوف، الجزء الثاني، ميلانو 2012، ص. 60.

⁶ اللقاء العام بين الأديان، 28 أكتوبر 2015.

تتطلب التربية – وأصل الكلمة اللاتيني يعني الاستخراج والاستخلاص – أن نستخلص ونستخرج الموارد الثمينة في النفس. إنه لأمر مشجع أن نرى، في هذا البلد، أنه لا يتم الاستثمار في استخراج موارد الأرض وحسب، بل أيضاً موارد القلب، أي في تربية الشبية. أتمنى أن يستمر هذا الالتزام، وينتشر في مناطق أخرى. إن التربية تتم أيضاً في العلاقات والتبادلية. يجب أن نضيف إلى القول القديم المأثور: «اعرف نفسك» قولاً آخر «اعرف أخاك»: قصته، ثقافته وإيمانه، لأنه لا توجد معرفة حقيقية للذات بدون الآخر. كأشخاص، وبالأكثر كإخوة، علينا نذكر بعضنا البعض أنه لا يوجد أي أمر إنساني يمكن أن يبقى غريباً عنا¹¹⁴. من الأهمية بمكان، بالنسبة للمستقبل، بناء هويات منفتحة، قادرة على التغلب على تجربة الانغلاق على الذات والتصلب.

الاستثمار في الثقافة يعزز انحسار الحقد ونمو الحضارة والازدهار. فللتربية تناسب عكسي مع العنف. والمؤسسات الكاثوليكية التربوية – التي تحظى بالتقدير أيضاً في هذا البلد وفي المنطقة – تعزز هذه التربية على السلام وعلى المعرفة المتبادلة من أجل تدارك العنف.

يحتاج الشباب، الذين غالباً ما تحيط بهم رسائل سلبية وأنباء مزيفة، إلى أن يتعلموا عدم الاستسلام لإغراءات المادية والكرهية والأحكام المسبقة، لأن يتعلموا كيفية التصدي للظلم ولخبرات الماضي الأليمة، لأن يتعلموا الدفاع عن حقوق الآخرين بالحماسة نفسها التي يدافعون فيها عن حقوقهم. سيكونون هم من سيحكمون علينا يوماً ما: إيجاباً، إذا ما قدمنا لهم أسساً صلبة لخلق لقاءات جديدة من التحضر، وسلباً، إذا ما تركنا لهم مجرد سراب وتطلعات كئيبة من الصدمات الشائنة وغير الحضارية. العدالة هي الجناح الثاني للسلام، التي غالباً ما لا تتضرر بفعل أحداث فردية، لكنها تتآكل ببطء جزاء سرطان الظلم.

ومن ثم، لا يمكن أن نؤمن بالله وألا نسعى إلى عيش العدالة مع الجميع، بحسب القاعدة الذهبية: «فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمْ أَفْعَلُوا هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ لِأَنَّ هَذَا

¹¹⁴ ق. تريزوزو، الذي يعاقب نفسه *Heautontimorumenos*، الجزء الأول، 1، ص 25.

هُوَ النَّامُوسُ وَالْأَنْبِيَاءُ» «متى 7، 12». إن السلام والعدالة لا ينفصلان أبدًا! قال النبي أشعيا «وَيَكُونُ صُنْعُ الْعَدْلِ سَلَامًا» «32، 17». فالسلام يموت عندما ينفصل عن العدالة، لكن العدالة تكون مزيفة إن لم تكن كونية. فالعدالة الموجهة فقط إلى أفراد العائلة، وأبناء الوطن، ومؤمني الديانة نفسها، هي عدالة عرجاء، إنها ظلم مقنّع!

للدينيات أيضًا واجبُ التذكير بأن جشع الربح يجعل القلب دون حراك، وبأن قوانين السوق الحالية، التي تطالب بكلّ شيء وعلى الفور، لا تساعد اللقاء والحوار والعائلة والأبعاد الأساسية للحياة التي تحتاج لوقت ولصبر. لتكن الأديان صوت المهتمّين، الذين ليسوا إحصاءات إنما إخوة، ولتقف الأديان إلى جانب الفقراء، ولتسهر كحارسه الأخوة في ليل الصراعات، ولتكن ناقوسًا ساهرًا كي لا تغلق الإنسانيّة عينها أمام الظلم وكي لا تستسلم أبدًا أمام مآسي العالم الكثيرة.

الصحراء التي تزهر

بعد أن تحدّثتُ عن الأخوة كسفينة سلام أودّ الآن الاستلهام من صورة ثانية، صورة الصحراء المحيطة بنا.

هنا، وخلال سنوات قليلة، وبفضل بُعد النظر والحكمة، تحوّلت الصحراء إلى مكان مزدهر ومضياف، الصحراء التي كانت حاجزًا عسيرًا ومنيعًا، صارت مكانًا للقاء بين الثقافات والديانات. لقد أزهرت الصحراء هنا، ليس فقط لأيام قليلة في السنة، إنما لسنوات كثيرة في المستقبل. إن هذا البلد، الذي تعانق فيه الرمالُ ناطحات السحاب، يبقى تقاطعًا هامًا بين الشرق والغرب، بين شمال الأرض وجنوبها، يبقى مكانًا للنمو، حيث الفسحات، التي لم تكن مأهولة في السابق، تقدّم اليوم فرص عمل لأشخاص من أمم مختلفة.

بيد أن النموّ أيضًا له أعداؤه. وإن كانت الفردانية هي عدوّ الأخوة، أودّ الإشارة إلى أن عائق النموّ هو اللامبالاة، والتي تؤوّل إلى تحويل الواقع المزهر إلى أرضٍ قاحلة. إن النموّ المنفعيّ البحث، في الحقيقة، لا يوفّر تقدّمًا واقعيًا ومستدامًا. فوحده النموّ المتكامل والمتناسك يقدّم مستقبلًا لانفًا بالإنسان. إن اللامبالاة تُحوّل دون النظر إلى

الجماعة البشريّة، أبعد من نطاق الربح، وإلى الأخ أبعد من نطاق العمل الذي يقوم به .
اللامبالاة، في الواقع، لا تنظر إلى الغد، لا تكثرث لمستقبل الخليقة، لا تعتنى بكرامة
الغريب وبمستقبل الأطفال.

في هذا السياق، أُعبر عن سروري بأن أوّل منتدى دولي للتحالف بين الأديان
من أجل مجتمعات أكثر أمناً، حول مسألة كرامة الطفل في العصر الرقمي، قد عُقد هنا
في أبو ظبي في نوفمبر- الماضي. لقد استأنف هذا الحدثُ الرسالةَ التي أُطلقت قبل عام
في روما، في المؤتمر الدولي حول الموضوع نفسه، والذي قدّمت له دعمي وتشجيعي
الكاملين. إنني أشكر بالتالي كلّ القادة الملتزمين في هذا المجال، وأؤكد لهم دعم وتضامن
ومشاركة شخصي والكنيسة الكاثوليكية في هذه القضية البالغة الأهمية، قضية حماية
القاصرين في كلّ أوجهها.

هنا في الصحراء فُتحت دربٌ خصبة للنموّ تقدّم، انطلاقاً من العمل، أمالاً
لأشخاص كثيرين ينتمون إلى شعوب وثقافات ومعتقدات مختلفة. ومن بين هؤلاء العديد
من المسيحيين، الذين يعود تواجدهم في المنطقة إلى القرون الغابرة، وقد وجدوا فرصاً
وقدموا إسهاماً هاماً في نموّ البلاد ورخائها. إن هؤلاء يحملون معهم أصالة إيمانهم فضلاً
عن قدراتهم المهنيّة. إن الاحترام والتسامح اللذين يلقونهما، كما دُور العبادة الضرورية
من أجل الصلاة، تسمح لهم بالنضوج روحياً بشكل يعود بالفائدة على المجتمع بأسره.
أشجّع على الاستمرار في هذه الدرب، كي يتمكنّ المقيمون والزوّار من الاحتفاظ، ليس
فقط بصورة الأعمال العظيمة التي أُقيمت في الصحراء، إنما أيضاً بصورة أمة تقبل
وتعانق الجميع.

بهذه الروح، أتمنى أن تبصر النور، ليس هنا فقط بل في كلّ منطقة الشرق
الأوسط الحبيبة والحيويّة، فرصٌ ملموسة للقاء: مجتمعاتٌ يتمتّع فيها أشخاصٌ ينتمون
إلى ديانات مختلفة بحقّ المواطنة نفسه، وحيث لا يُنتزع هذا الحقّ إلّا من العنف، بجميع
أشكاله.

تعايش أخويّ، يرتكز على التربية والعدالة، نموّ بشري، يقوم على الإدماج المضياف وعلى حقوق الجميع: هذه هي بذور سلامٍ، ينبغي على الديانات أن تُنبئها. في هذه المرحلة التاريخية الدقيقة، يقع على عاتق الديانات، ربّما أكثر من أيّ وقت مضى، واجبٌ لا يمكن إرجاؤه بعد اليوم: الإسهام بشكل فاعل في تجريد قلب الإنسان من السلاح. إن سباق التسلّح، وتمديد مناطق النفوذ، والسياسات العدائيّة، على حساب الآخرين، لن تؤدّي أبدًا إلى الاستقرار. الحرب لا تولّد سوى البؤس، والأسلحة لا تولّد سوى الموت! إن الأخوة البشريّة تتطلّب منّا، كممثلي الأديان، واجبَ حذر كلّ تلميح إلى الموافقة على كلمة «حرب». دعونا نعيد هذه الكلمة إلى قسوتها البائسة. فأمام أعيننا نجد نتائجها المشؤومة. أفكّر بنوع خاص باليمن، وسوريا والعراق وليبيا. لنلتزم معًا، كأخوة في العائلة البشريّة الواحدة التي شاءها الله، ضدّ منطق القوّة المسلحة، ضدّ تقييم العلاقات بوزنها الاقتصادي، ضدّ التسلّح على الحدود وبناء الجدران وخنق أصوات الفقراء، لنواجه كلّ هذه الأمور بواسطة قوّة الصلاة العذبة والالتزام اليوميّ في الحوار. ليكن وجودنا معًا اليوم رسالة ثقة، وتشجيعًا لجميع الأشخاص ذوي الإرادة الحسنة، كي لا يستسلموا أمام طوفان العنف، وأمام تصحّر الغيريّة. والله هو مع الإنسان الذي يبحث عن السلام. ومن السماء يبارك كلّ خطوة تُتخذ على الأرض في هذا الاتّجاه.

وثيقة "الأخوة الانسانية من أجل السلام العالمي

والتعاون المشترك"

نصب المؤسس التذكارى، أبو ظبى

4 فبراير 2019

مقدمة

يقود الإيمان المؤمن إلى أن يرى الآخر أخًا جديرا بالدعم والمحبة. إن الإيمان بالله، الذي خلق الكون والمخلوقات وجميع البشر – خلقنا متساويين برحمته – ويطلب من المؤمن للتعبير عن هذه الأخوة الانسانية، بالحفاظ على الخلق والكون كله ودعم كل شخص، خاصة الأكثر احتياجا وفقراً.

انطلاقا من هذه القيمة الجوهرية، شاركنا، في العديد من اللقاءات التي يسودها جو من الأخوة والصدقة، أفراح وأحزان ومشاكل العالم المعاصر، على مستوى التقدم العلمي والتقني، والإنجازات العلاجية، والعصر الرقمي، ووسائل الإعلام والاتصالات؛ وعلى مستوى الفقر والحروب وآلام العديد من الإخوة والأخوات في أنحاء مختلفة من العالم بسبب سباق التسليح والمظالم الاجتماعية والفساد وعدم المساواة والتدهور الأخلاقي والإرهاب والتمييز والتطرف والعديد من الأسباب الأخرى.

من هذه المقابلات الأخوية والصادقة، التي أجريناها، ومن الالتقاء المليء بالأمل في مستقبل مشرق لجميع البشر، ولدت فكرة "وثيقة الأخوة الانسانية"؛ وثيقة مدروسة بإخلاص وجدية لتكون تصريحًا مشتركًا عن إرادة حسنة وصادقة، لكي تكون دعوة لكل من يحمل في قلبه الإيمان بالله والإيمان بالأخوة الانسانية إلى الاتحاد والعمل معًا، كي تصبح دليلاً للأجيال القادمة لتعلم ثقافة الاحترام المتبادل، وفهم النعمة الإلهية العظيمة التي تجعل جميع البشر إخوة.

الوثيقة

باسم الله الَّذِي خَلَقَ الْبَشَرَ جَمِيعًا مُتَسَاوِينَ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَالْكَرَامَةِ،
وَدَعَاهُمْ لِلْعَيْشِ كَاخْوَةٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لِيُعْمَرُوا الْأَرْضَ وَيَنْشُرُوا فِيهَا قِيَمَ الْخَيْرِ وَالْمَحَبَّةِ
وَالسَّلَامِ..

باسم النفسِ الْبَشَرِيَّةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِزْهَاقَهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ جَنَى عَلَى
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَكَأَنَّهُ جَنَى عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعًا، وَمَنْ أَحْيَا نَفْسًا وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا.

باسم الْفُقَرَاءِ وَالْبُؤْسَاءِ وَالْمَحْرُومِينَ وَالْمُهْمَشِينَ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ
وَمَدَّ يَدَ الْعَوْنِ لِلتَّخْفِيفِ عَنْهُمْ، كَفَرَضِ عَلَى كُلِّ مُقْتَدِرٍ وَمَيْسُورٍ.

باسم الْإِيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ، وَالْمُهَاجِرِينَ وَالنَّازِحِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَكُلِّ
ضَحَايَا الْحُرُوبِ وَالْإِضْطِهَادِ وَالظُّلْمِ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْخَائِفِينَ وَالْأَسْرَى وَالْمُعَذِّبِينَ فِي
الْأَرْضِ، دُونَ إِقْصَاءِ أَوْ تَمْيِيزِ.

باسم الشُّعُوبِ الَّتِي فَدَّتِ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَ وَالتَّعَايِشَ، وَحَلَّتْ بِهَا الدَّمَارُ وَالْحَرَابُ
وَالنَّخْرُ.

باسم «الْأُخُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ» الَّتِي تَجْمَعُ الْبَشَرَ جَمِيعًا، وَتُوَجِّدُهُمْ وَتُسَوِّي بَيْنَهُمْ.
باسم تِلْكَ الْأُخُوَّةِ الَّتِي أَرْهَقَتْهَا سِيَاسَاتُ النَّعْصَبِ وَالتَّفَرُّقَةِ، وَالْعَبَثُ بِمَصَائِرِ
الشُّعُوبِ وَمُقَدَّرَاتِهِمْ، وَأَنْظِمَةُ التَّرْبُوحِ الْأَعْمَى، وَالتَّوَجُّهَاتُ الْإِيدِلُوجِيَّةُ الْبَغِيضَةُ.
باسم الْحُرِّيَّةِ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ وَفَطَرَ هُمْ عَلَيْهَا وَمَيَّزَهُمْ بِهَا.

باسم الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، أَسَاسِ الْمُلْكِ وَجَوْهَرِ الصَّلَاحِ.
باسم كُلِّ الْأَشْخَاصِ ذَوِي الْإِرَادَةِ الصَّالِحَةِ، فِي كُلِّ بِقَاعِ الْمَسْكُونَةِ.
باسم اللهِ وَبِاسْمِ كُلِّ مَا سَبَقَ، يُعْلِنُ الْأَزْهَرَ الشَّرِيفُ - وَمَنْ حَوْلَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي
مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا - وَالْكَنِيسَةُ الْكَاتُولِيكِيَّةُ - وَمِنْ حَوْلِهَا الْمَسِيحِيُّونَ مِنَ الشَّرْقِ
وَالغَرْبِ - تَبْنِي تَقَافَةَ الْحَوَارِ دَرْبًا، وَالتَّعَاوُنَ الْمَشْتَرَكِ سَبِيلًا، وَالتَّعَارُفَ الْمُتَبَادَلِ نَهْجًا
وَطَرِيقًا.

إننا نحن المؤمنين بالله ويلقائه وبحسابه، ومن مُنطلق مسؤوليَّتينا الدِّينية والأدبية، وعبرَ هذه الوثيقة، نُطالبُ أنفسنا وقادة العالم، وصنّاع السياساتِ الدَّولية والاقتصادِ العالميِّ، بالعملِ جديًّا على نشرِ ثقافةِ التَّسامحِ والتعايشِ والسَّلامِ، والتدخُّلِ فورًا لإيقافِ سبيلِ الدِّماءِ البريئة، ووقفِ ما يشهدهُ العالمُ من حروبٍ وصراعاتٍ وتراجُعٍ مناخيِّ وانحدارٍ ثقافيٍّ وأخلاقيِّ.

وتنوجُّهُ للمفكرين والفلاسفةِ ورجالِ الدِّينِ والفنَّانينَ والمُبدعينَ في كلِّ مكانٍ ليُعيدوا اكتشافَ قيمِ السَّلامِ والعدْلِ والخيرِ والجمالِ والأخوةِ الإنسانيَّةِ والعيشِ المُشترَكِ، وليؤكِّدوا أهميَّتها كطوقِ نِجاةٍ للجميعِ، وليسعوا في نشرِ هذه القيمِ بينَ الناسِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ..

إنَّ هذه الوثيقةَ لتُؤمِّنُ إيمانًا جازمًا - نابعا من تأملٍ عميقٍ لواقعِ عالمنا المُعاصرِ وتقديرِ نجاحاته ومُعاشيةِ ألامه ومآسيه وكوارثه - بأنَّ أهمَّ أسبابِ أزمةِ العالمِ اليومَ يعودُ إلى تغييبِ الضميرِ الإنسانيِّ وإقصاءِ الأخلاقِ الدِّينيةِ، وكذلك استدعاءِ التُّرعةِ الفرديَّةِ والفلسفاتِ الماديَّةِ، التي تُؤلِّهُ الإنسانَ، وتضعُ القيمَ الماديَّةَ الدُّنيويَّةَ موضعَ المبادئِ العُلَيَّا، والقيمِ المُتعاليةِ.

إننا، وإن كُنَّا نُقدِّرُ الجوانبَ الإيجابيةَ التي حقَّقتها حَضارتنا الحديثةُ في مجالِ العِلْمِ والتَّقنيةِ والطبِّ والصِّناعةِ والرِّفاهيةِ، وبخاصَّةٍ في الدُّولِ المُتقدِّمةِ، فإنَّا - مع ذلك - نُسجِّلُ أنَّ هذه القفزاتِ التاريخيَّةَ الكبرى والمحمودةَ، تماهتْ معها - بشكلٍ كبيرٍ - الأخلاقُ الضَّابطةُ للتصرفاتِ الدَّوليةِ، وتراجعتِ القيمُ الرُّوحيَّةُ والشُّعورُ بالمسؤوليَّةِ؛ ممَّا أسهمَ في نشرِ شعورٍ عامٍّ بالإحباطِ والعزلةِ واليأسِ، ودفعَ الكثيرَ إلى الانخراطِ إمَّا في دَرامةِ التَّطرفِ الإلحاديِّ واللاذينيِّ، وإمَّا في التَّطرفِ الدِّينيِّ والتشدُّدِ والتعصُّبِ الأعمى، بل ودفعَ البعضَ إلى تبنِّي أشكالٍ من الإدمانِ والتدميرِ الذاتيِّ والجماعيِّ.

إنَّ هذه الوثيقةَ تدعو إلى إدانةِ التَّطرفِ بكلِّ أشكاله وصُوره، حيث يُؤكِّدُ التاريخُ المُعاصرُ أنَّ الأيدولوجياتِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والمذاهبَ الشيعيَّةَ والاشتراكيَّةَ

والرأسمالية والليبرالية والإلحادية، التي سادت في الماضي و وعدت بخلق مجتمع فاضل، لم تنتج في الواقع سوى ملايين القتلى والجرحى والمفقودين.

كما يؤكد التاريخ أيضا أن التطرف الديني والقومي والتعصب قد أثمر في العالم، سواء في الغرب أو الشرق، ما يمكن أن نطلق عليه بواحد «حرب عالمية ثالثة على أجزاء»، بدأت تكشف عن وجهها القبيح في كثير من الأماكن، وأوضاع مأساوية لا يُعرف - على وجه الدقة - أعداد من خلفتهم من قتلى وأرامل وتكالي وأيتام خاصة في سوريا والعراق ولبنان وفلسطين واليمن وليبيا والصومال وأفغانستان وبورما وغيرها، وأقاليم أخرى يجري إعادها لمزيد من الانفجار وتكديس السلاح وجلب الذخائر، في وضع عالمي تسيطر عليه الضبابية وخيبة الأمل والخوف من المستقبل، وتتحكم فيه المصالح المادية الضيقة.

وتسدد الوثيقة أيضا على أن الأزمات السياسية الطاحنة، والظلم وافتقار عدالة التوزيع للثروات الطبيعية - التي يستأثر بها قلة من الأثرياء ويحرم منها السواد الأعظم من شعوب الأرض - قد أنتج و ينتج أعدادا هائلة من المرضى والمعوزين والموتى، وأزمات قاتلة تشهدها كثير من دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، برغم ما تزخر به هذه البلاد من كنوز وثروات، وما تملكه من سواعد قوية وشباب واعد، في ظل صمت عالمي مطبق، يشبه صمت القبور، عن ملايين الأطفال الذين يموتون جوعا، وتحوّل أجسادهم، من شدة الفقر والجوع، إلى ما يشبه الهياكل العظمية البالية.

وتؤمن الوثيقة أيضا بضرورة التثبيت بقيمة الأسرة كنواة لا غنى عنها للمجتمع وللبرية، لإنجاب الأبناء وتربيتهم وتعليمهم وتحصينهم بالأخلاق وبالرعاية الأسرية، فهاجمة المؤسسة الأسرية التقليدية والتفليل منها والتشكيك في أهمية دورها هو من أخطر أمراض عصرنا الذي، بجوار التقدم والرخاء في بعض بقاع الأرض، أنتج أشكالا مزرمة من اللامبالاة والتفكك الأسري والانجراف الأخلاقي؛ وخلق أيضا أنماطا من الانجرافات الطائشة التي تسعى للانتشار كما لو كانت مسلمات يهاجم أصحابها، باسم حرية مزيقة، كل من يسعى للمحافظة على القيم البشرية العليا والحس الديني والقيم

الأخلاقية والأدبية المشتركة، مُستخدِمين في ذلك وسائل التّواصل الحديث والسُّخريّة المُبتدلة للحطّ من المُؤمنين بها.

وتؤكد الوثيقة على أهميّة إيقاظ الحسّ الدّينيّ وبعثه مُجددًا في نُفوس الأجيال الجديدة عن طريق التّربية الصّحيحة والتنشئة السّليمة والتّحلي بالأخلاق والنّمسك بالتعاليم الدّينية القويمة لمُواجهة النزعات الفرديّة والأنانيّة والصّداميّة، والنّظرُف بكُلّ أشكاله وصُوره.

إنّ هدَف الأديان الأوّل والأهمّ هو حتّى جميع البشَر على الإيمان بأنّ هذا الكون له إله يحكّمه، هو الخالق الذي أوجدنا بحكمة إلهيّة، وأعطانا هبة الحياة لُحافظ عليها، هبة لا يحقّ لأيّ إنسان أن ينزَعها أو يُهدّدها أو يتصرّف بها كما يشاء، بل على الجميع المُحافظة عليها منذ بدايتها وحتى نهايتها الطبيعيّة؛ لذا تُدين كُلّ المُمارسات التي تُهدّد الحياة كالإبادة الجماعيّة، والعَمليّات الإرهابيّة، والتّهجير القسريّ، والمُتاجرة بالأعضاء البشريّة، والإجهاض، والسياسات التي تُشجّعها، وما يُطلق عليه الموت (اللا) رَجيم.

كما تُوكّد - وبحزم - أنّ الأديان السماويّة لم تكن أبدًا بريداً للخرُوب أو باعثة لمُشاعر الكراهية والعداء والتعصّب، ومُثيرة للعُنف وإراقة الدّماء، فهذه المآسي ليست نتيجةً للأديان، بل هي حصيلة الانجراف عن تعاليم الدّين، واستغلال الأديان في السّياسة، وكذا تأويلات طائفة من رجال الدّين - في بعض مَراحل التاريخ - الذين وظّفوا الشُّعور الدّينيّ لدفع الناس للإتيان بما لا علاقة له بصحيح الدّين، من أجل تحقيق أهدافٍ سياسيّة واقتصاديّة دنيويّة ضيّقة؛ لذا فنحن نُطالب الجميع بوقف استخدام الدّين في تأجيج الكراهية والعُنف والنّظرُف والتعصّب الأعمى، والكفّ عن استخدام اسم الله لتبرير أعمال القتل والتشريد والإرهاب والبطش؛ لإيماننا المُشترَك بأنّ الله لم يخلق الناس ليقتلوا أو ليقْتلوا أو يُعدّبوا أو يُضيق عليهم في حياتهم ومعاشرتهم، وأنّه - عزّ وجلّ - لا يحتاج لمن يُدافع عنه أو يُزهب الأخرين باسمه.

إنّ هذه الوثيقة، إذ تعتمد كُلّ ما سبقها من وثائق عالميّة نَبهت إلى أهميّة دور الأديان في بناء السّلام العالميّ، فإنّها تُوكّد الآتي:

- أنه لا مَفَرَّ من الرُّجوع إلى التعاليم الصحيحة للأديان التي تدعو إلى التمسك بقيم السلام وإعلاء قيم التعارف والأخوة الإنسانية، والعيش المشترك، وتكريس الحكمة والعدل والإحسان، وإيقاظ نزعة التدنُّن لدى النَّشء والشباب؛ لحماية الأجيال الجديدة من سيطرة الفكر المادي، ومن خَطَر سياسات التربُّح الأعمى واللامبالاة القائمة على قانون القوة لا على قُوَّة القانون.

- أنَّ الحرِّيَّة حقٌّ لكلِّ إنسانٍ: اعتقادًا وفكرًا وتعبيرًا ومُمارَسةً، وأنَّ التَّعدُّبِيَّة والاختلاف في الدِّين واللون والجنس والعرق واللُّغة مَشِيئَةٌ إلهيَّة، خَلَقَ اللهُ البشَرَ عليها، وجعلها أصلًا ثابتًا تفرَّغَ عنه حقوقُ حرِّيَّة الاعتقاد، وحرِّيَّة الاختلاف، وتجريمُ إكراه الناس على دينٍ بعينه أو ثقافةٍ مُحدَّدة، أو فَرَضِ أسلوبٍ حضاريٍّ لا يَقْبَلُهُ الآخَر.

- أنَّ العدلَ القائمَ على الرحمة هو السبيلُ الوحيدُ للوصولِ إلى حياةٍ كريمة، وأنَّ من حقِّ كلِّ إنسان أن يَحْيَا في كنفه وأن يَجْنِي ثماره.

- أنَّ الحوارَ والتفاهمَ ونشرَ ثقافة التسامح وقبولِ الآخَر والتعايشِ بين الناس، من شأنه أن يُسهِمَ في احتواء كثيرٍ من المشكلاتِ الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والبيئيَّة التي تُحاصرُ جُزءًا كبيرًا من عالمِ اليَوم، وتُحوِّلُ حياةَ المَلايين من الأبرياء إلى ما يُشبهُ الجَحيمَ.

- أنَّ الحوارَ بين المؤمنين يَعني التلاقي في المساحة الهائلة للقيم الروحيَّة والإنسانيَّة والاجتماعيَّة المُشتركة، واستثمار ذلك في نشر الأخلاق والفضائل العُلْيَا التي تدعو إليها الأديان، وتجنُّب الجَدَل في العقائد.

- أنَّ حمايةَ دُور العبادة، من مَعابِدِ وكنائسٍ ومَساجِدَ، أمرٌ تكفُّله كلُّ الأديان السماويَّة والقيم الإنسانية والمَوَاثيق والأعراف الدوليَّة، كما أنَّ التعرُّضَ لها، واستهدافها بالاعتداء أو التفجير أو التهديم، هو خُروجٌ صريحٌ عن تعاليم الأديان، وانتهاكٌ واضحٌ للقوانين الدوليَّة.

- أنَّ كُلَّ المبادئِ والِدساتيرِ الديمقراطيَّةِ وإعلاناتِ حُقوقِ الإنسانِ ومنظوماتِ القوانينِ الدوليَّةِ وإشراقاتِ الفكرِ والعقلانيَّةِ، ومناهجِ الفنِّ والابداعِ، وإنجازاتِ العِلْمِ الحديثِ والتكنولوجيا - التي حوّلتِ العالمَ لقريةٍ صغيرةٍ ومُتداخلةٍ الأركانِ ومُتشابكةٍ المصالحِ والتوجُّهاتِ - تُصيحُ بلا وِزْنٍ ولا قيمةٍ إن حَرَمَتِ الإنسانيَّةَ من الحِسِّ الدِّينيِّ، ومن الميراثِ الرِّبانيِّ، ومن الاستجابةِ لنداءاتِ الضميرِ الإيمانيِّ.

- أنَّ الإرهابَ البغيضَ الذي يُهدِّدُ أَمَنَ الناسِ، سِواءً في الشَّرْقِ أو العَرَبِ، ويُلحقُهم بالفَرَعِ والرُّعبِ وترقُّبِ الأسوأِ، ليس نتاجًا للدينِ - حتى وإن رَفَعَ الإرهابيُّونَ لافتاتِهِ وألْبسوا شاراتِهِ - بل هو نتيجةٌ لثراكماتِ الفُهومِ الخاطئةِ لثُصوصِ الأديانِ وسياساتِ الجُوعِ والفقرِ والظُّلمِ والبَطْشِ والتَّعالي؛ لذا نُطالبُ بوقْفِ دَعْمِ الحَرَكاتِ الإرهابيَّةِ بالمالِ أو بالسلاحِ أو التخطيطِ أو التبريرِ، أو بتوفيرِ الغطاءِ الإعلاميِّ لها، واعتبارِ ذلك من الجرائمِ الدوليَّةِ التي تُهدِّدُ الأَمَنَ والسِّلْمَ العالميَّ.

- أنَّ مفهومَ المواطنةِ يقومُ على المُساواةِ في الواجباتِ والحُقوقِ التي يتعمَّ في ظلالها الجميعُ بالعدلِ؛ لذا يَجِبُ العملُ على ترسيخِ مفهومِ المواطنةِ الكاملةِ في مُجتمعاتنا، والتخلِّي عن مصطلحِ الأَقلياتِ الذي يَحْمِلُ في طيَّاته الإحساسَ بالعزلةِ والدُّونيَّةِ، ويُمهِّدُ لبدُورِ الفتنِ والشِّقاقِ، ويُصايرُ على استحقاقاتِ وحُقوقِ بعضِ المُواطنينِ الدِّينيَّةِ والمَدنيَّةِ ويؤدِّي إلى التمييزِ ضِدَّهُم.

- أنَّ العلاقةَ بينَ الشَّرْقِ والعَرَبِ هي ضرورةٌ قُصوى لكليهما، لا يُمكنُ الاستعاضةُ عنها أو تجاهلها، لِيَعْتَنِي كلاهما من الحضارةِ الأخرى عَبْرَ التَّبادلِ وحوارِ الثقافاتِ؛ فبإمكانِ العَرَبِ أن يَجِدَ في حضارةِ الشَّرْقِ ما يُعالجُ به بعضَ أمراضهِ الرُّوحيةِ والدِّينيَّةِ التي نتجتْ عن طُغيانِ الجانبِ الماديِّ، كما بإمكانِ الشَّرْقِ أن يَجِدَ في حضارةِ الغربِ كثيرًا ممَّا يُساعدُ على

انتشاله من حالات الضعف والتراجع العلمي والتقني والثقافي، مع التأكيد على ضرورة الانتباه للفوارق الدينية والثقافية والتاريخية التي تدخل عُصراً أساسياً في تكوين شخصية الإنسان الشرقي، وثقافته وحضارته، وأن نعمل على ترسيخ الحقوق الإنسانية العامة المشتركة بين الشرق والغرب، بما يسهم في ضمان حياة كريمة لجميع البشر في الشرق والغرب بعيداً عن سياسة الكيل بمكيالين.

- أن الاعتراف بحق المرأة في التعليم والعمل والممارسات السياسية هو ضرورة ملحة، وكذلك تحريرها من الضغوط التاريخية والاجتماعية المنافية لثوابت عقيدتها وكرامتها، وحمايتها من الاستغلال الجنسي ومعاملتها كسلعة أو كأداة للتمتع والتكسب والترجح، عبر مقاومة كل الممارسات والثقافات، وتعديل التشريعات التي تحول دون ذلك.

- أن حقوق الأطفال الأساسية في التنشئة الأسرية، والتغذية والتعليم والرعاية، واجب على الأسرة والمجتمع، وينبغي أن تُوفَّر ويدافع عنها، والأحرى منها أحد، وتجريم أي ممارسات تنال من كرامتهم أو تُخلُّ بحقوقهم هذه.

- أن حماية حقوق المسنين والضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة والمستضعفين ضرورة دينية ومجتمعية يجب العمل على توفيرها وحمايتها بتشريعات حازمة وتطبيق المواثيق الدولية الخاصة بهم.

وفي سبيل ذلك ومن خلال التعاون المشترك بين الأزهر الشريف والكنيسة الكاثوليكية، نعلن ونتعهد أننا سنعمل على إيصال هذه الوثيقة إلى صنّاع القرار العالمي، والقيادات المؤثرة ورجال الدين في العالم، والمنظمات الإقليمية والدولية المعنية، ومنظمات المجتمع المدني، والمؤسسات الدينية وقادة الفكر والرأي، وأن نسعى لنشر ما جاء بها من مبادئ على كافة المستويات الإقليمية والدولية، وأن ندعو إلى ترجمتها إلى سياسات وقرارات ونصوص تشريعية، ومناهج تعليمية ومواد إعلامية.

ويُطالبُ الأزهرُ الشريفُ والكنيسةُ الكاثوليكيَّةُ أن تُدرَسَ هذه الوثيقةُ في جميعِ
المَدارسِ والجامعاتِ والمعاهدِ؛ لِنُساعدِ على خَلْقِ أجيالٍ جديدةٍ تحملُ الخَيْرَ والسَّلَامَ،
وتُدافعُ عن حقِّ المَقهورينِ والمَظلُومينِ والبُؤساءِ في كُلِّ مكانٍ.
ختامًا:

لتكن هذه الوثيقةُ دعوةً للمُصالحةِ والتَّآخِي بين جميعِ المُؤمنينِ بالأديانِ، بل بين
المُؤمنينِ وغيرِ المُؤمنينِ، وكلِّ الأشخاصِ ذَوي الإرادةِ الصالحةِ.
لَتَكُنْ وثيقَتنا نداءً لكلِّ ضَميرٍ حيٍّ يَبْدُ العُنفَ البَغِيضَ والتطرُّفَ الأعمى، ولكلِّ
مُحبِّ لمبادئِ التسامُحِ والإخاءِ التي تدعو لها الأديانُ وتُشجِّعُ عليها.
لتكن وثيقَتنا شهادةً لِعَظَمَةِ الإيمانِ باللهِ الذي يُوحِدُ القُلُوبَ المُتفرِّقةَ وَيَسْمُو
بالإنسانِ.

لتكن رمزًا للعِناقِ بين الشَّرْقِ والغَرْبِ، بين المُسلمينِ والمُسيحيِّينِ، وبين كُلِّ مَنْ
يُؤمِنُ بأنَّ اللهَ خَلَقنا لِنَتعارَفَ ونَتعاونَ ونَتعايشَ كإخوةٍ مُتَحايِّينِ.
هذا ما نَأملُه ونسعى إلى تحقيقه؛ بُغيةَ الوصولِ إلى سلامٍ عالميٍّ يَنعمُ به الجميعُ
شرقًا وغربًا.

أبو ظبي، 4 فبراير، 2019
قداسة البابا فرنسيس
إمام الأزهر الاكبر أحمد الطيب

كلمة قداسة البابا فرنسيس للشعب والسلطات المغربية

الرباط

30 مارس/أذار 2019

صاحب الجلالة،

أصحاب السمو الملكي،

سلطات المملكة المغربية الموقرة،

أعضاء السلك الدبلوماسي،

أيها الأصدقاء المغاربة الأعزاء،

السلام عليكم!

يسرنني أن تطأ قدمي أرض هذا البلد، الغني بالجمال الطبيعي، الحارس لبصمات حضارات عريقة والشاهد على تاريخ مدهش. أود قبل كل شيء أن أعبر عن امتناني الصادق والودي لجلالة الملك محمد السادس على دعوته الكريمة، وعلى الاستقبال الحار الذي خصني به، باسم الشعب المغربي كله، وأشكره بنوع خاص على الكلمات الطيبة التي وجهها لي.

تشكل هذه الزيارة بالنسبة لي مدعاة فرح وامتنان لأنها تسمح لي، قبل كل شيء، أن أكتشف غنى أرضكم وشعبكم وثقافتكم. امتنان يتحول إلى فرصة مهمة لتعزيز الحوار بين الأديان والتعارف المتبادل بين مؤمني ديانتينا، فيما نحبي ذكرى اللقاء التاريخي – في مؤيته الثامنة- بين القديس فرنسيس الأسيزي والسلطان الملك الكامل. ويظهر هذا الحدث النبوي أن شجاعة اللقاء واليد الممدودة هما سبيل للسلام والتناغم للبشرية، حيث يشكل التطرف والحقد عاملين للانقسام والدمار. كما أتمنى أن يسهم التقدير والاحترام والتعاون بيننا في توطيد روابط الصداقة الحقيقية، كي نتاح الفرصة أمام جماعاتنا لإعداد مستقبل أفضل للأجيال الصاعدة.

أود أن أؤكد، من على هذه الأرض، التي تشكل جسرا طبيعيا بين قارتي أفريقيا وأوروبا، على ضرورة توحيد جهودنا من أجل إعطاء دفع جديد لعملية بناء عالم أكثر تضامنا، وأكثر التزاما في الجهد النزيه والشجاع والضروري لحوار يحترم غنى وخصوصيات كل شعب وكل شخص. وهذا تحدّي علينا أن نواجهه جميعا، خصوصا في هذا الزمن الذي قد تتحول فيه الاختلافات وسوء الفهم المتبادل، إلى أسباب للسجال والتشردم.

يجب بالتالي، من أجل المشاركة في بناء مجتمع منفتح وتعددي ومتضامن، أن نطور ثقافة الحوار ونتبناها باستمرار وبدون تراجع، كدرب ينبغي اتباعها؛ ونتبنى التعاون المشترك كسلوك؛ والتعارف المتبادل كنهج ومعيار (راجع. وثيقة الأخوة الإنسانية، أبو ظبي، 4 فبراير / شباط 2019). هذا هو الدرب الذي نحن مدعوون لاتخاذهُ دون كلل، كي نساعد بعضنا البعض على تخطي التوترات وسوء الفهم، والأقنعة والصور النمطية التي تقود دوما إلى الخوف والتصادم؛ وهكذا نفتح الطريق أمام روح من التعاون المثمر والمتسم بالاحترام. فمن الضروري أن نجابه التعصب والأصولية عبر تضامن جميع المؤمنين، جاعلين من قيمنا المشتركة مرجعا ثمينا لتصرفاتنا. في هذا السياق، يسرني أن أזור بعد قليل "معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات"، والذي شنتموه يا صاحب الجلالة، بهدف توفير تنشئة ملائمة وسليمة ضد كل شكل من أشكال التطرف الذي غالبا ما يقود إلى العنف والإرهاب، ويمثل، في جميع الحالات، إساءة إلى الدين وإلى الله نفسه. إننا ندرك في الواقع مدى أهمية توفير تنشئة ملائمة للقادة الدينيين في المستقبل، إذا ما أردنا أن نعيد إحياء المعاني الدينية الحقيقية في قلوب الأجيال الصاعدة.

لذا فإن حوارا أصيلا يدعونا لعدم التقليل من أهمية العنصر الديني من أجل بناء جسور بين البشر والنجاح في مواجهة التحديات المشار إليها آنفا. في الواقع، إن الإيمان بالله، وفي إطار احترام اختلافاتنا، يحملنا على الإقرار بالكرامة السامية لكل كائن بشري، فضلا عن حقوقه غير القابلة للتصرف أو المساومة. إننا نؤمن بأن الله قد خلق الكائنات

البشرية متساوية في الحقوق والواجبات والكرامة، ودعاها إلى العيش كأخوة وإلى نشر قيم الخير والمحبة والسلام. لهذا السبب بالذات إن حرية الضمير والحرية الدينية -التي لا تقتصر على حرية العبادة وحسب، بل يجب أن تسمح لكل فرد بالعيش بحسب قناعاته الدينية- ترتبطان ارتباطا وثيقا بالكرامة البشرية. بهذه الروح، نحن بحاجة دوما إلى الانتقال من مجرد التسامح إلى احترام الآخرين وتقديرهم. لأنها مسألة تتعلق باكتشاف الآخر وقبوله في خصوصية إيمانه، وأن نغتنى من بعضنا البعض عبر الاختلاف، في إطار علاقة مطبوعة بحسن النوايا وبالبحث عما يمكن أن نحققه سويا. فبناء الجسور بين البشر، بهذا المفهوم، ومن وجهة نظر الحوار بين الأديان، يتطلب أن يعاش تحت راية التعايش والصداقة، بل والأخوة أيضا.

إن المؤتمر الدولي حول حقوق الأقليات الدينية في الديار الإسلامية، الذي عقد في مراكش في يناير / كانون الثاني 2016، قد تطرق إلى هذا الموضوع. ويسرني أن يكون هذا المؤتمر قد سمح بشجب كل استخدام لدين بهدف تمييز أو التمييز أو التهجم على باقي الأديان، مسلطا الضوء على أهمية تخطي مفهوم الأقلية الدينية، من أجل تعزيز مفهوم المواطنة والاعتراف بقيمة الشخص، الذي ينبغي أن يكتسب صفة مركزية في كل نظام قانوني.

أرى أيضا علامة نبوية في إنشاء معهد الموافقة المسكوني لعلم اللاهوت في الرباط، في العام 2012، بمبادرة كاثوليكية وبروتستانتية في المغرب، معهد يود الإسهام في تعزيز المسكونية، فضلا عن الحوار مع الثقافة ومع الإسلام. إن هذه المبادرة الجديرة بالثناء تعبر عن قلق المسيحيين المقيمين في هذا البلد ورغبتهم في بناء جسور للتعبير عن الأخوة البشرية وخدمتها.

إنها كلها مسارات ستوقف "استخدام الأديان في تأجيج الكراهية والعنف والتطرف والتعصب الأعمى، والكف عن استخدام اسم الله لتبرير أعمال القتل والتشريد والإرهاب والبطش" (وثيقة الأخوة الإنسانية، أبو ظبي، 4 فبراير / شباط 2019).

إن الحوار الأصيل الذي نريد تطويره يحملنا أيضا على الأخذ في عين الاعتبار العالم الذي نعيش فيه، بيتنا المشترك. لذا، فإن المؤتمر الدولي حول التغيرات المناخية، كوب22 COP ، الذي عقد هنا في المغرب، أظهر مرة أخرى وعي العديد من الدول لضرورة حماية الكوكب الذي جعلنا الله فيه، كي نعيش ونسهم في توبة إيكولوجية حقيقية، من أجل تنمية بشرية متكاملة. وأود التعبير عن تقديري لكل الخطوات التي اتخذت في هذا الاتجاه، وأرحب بإقامة تضامن حقيقي بين الأمم والشعوب، من أجل إيجاد حلول عادلة ودائمة للأفات التي تهدد البيت المشترك وبقاء العائلة البشرية. فسويا، وفي حوار صبور ورشيد وصريح وصادق، باستطاعتنا أن نأمل في إيجاد أجوبة ملائمة، من أجل تغيير مسار الاحتباس الحراري والنجاح في استئصال الفقر (راجع. الرسالة العامة كن مسبحا، 175).

على حد سواء، فإن أزمة الهجرة الخطيرة التي نواجهها اليوم تشكل بالنسبة للجميع دعوة ملحة إلى البحث عن الوسائل الملموسة من أجل استئصال الأسباب التي تجبر أشخاصا كثيرين على هجر بلادهم، وعائلاتهم، وغالبا ما يجدون أنفسهم مهمشين ومنبوذين. من هذا المنظار، عقد هنا في المغرب، في شهر ديسمبر / كانون الأول المنصرم، المؤتمر الحكومي الدولي لاعتماد الاتفاق العالمي من أجل الهجرة الآمنة والمنظمة والنظامية، وتبني وثيقة تبتغي أن تكون نقطة مرجعية للمجتمع الدولي بأسره. إننا ندرك في الوقت نفسه أن الطريق أمامنا لا تزال طويلة خصوصا نظرا إلى ضرورة الانتقال من الالتزامات المعلنة من خلال تلك الوثيقة، أقله على المستوى الأدبي، إلى خطوات ملموسة، وتغيير الموقف، بنوع خاص، حيال المهاجرين كي يعاملوا كأشخاص، لا كأرقام، ويتم الإقرار بحقوقهم وكرامتهم، من خلال الأفعال الملموسة والقرارات السياسية. أنتم تعلمون مدى حرصي على مصير هؤلاء الأشخاص، الذي غالبا ما يكون مروعا، والذين بمعظمهم، ما كانوا ألينتركوا بلادهم إن لم يجبروا على ذلك. أمل أن يبقى المغرب، الذي استضاف هذا المؤتمر بجهوزية كبيرة وحسن ضيافة، نموذجا للإنسانية—وسط الجماعة الدولية— بالنسبة للمهاجرين واللاجئين كي ينالوا، هنا كما في أماكن

أخرى، الضيافة الإنسانية والحماية، وكي تحسن أوضاعهم ويتم دمجهم بكرامة. وعندما تسمح لهم الأوضاع، يكون بإمكانهم اختيار العودة إلى ديارهم في ظروف آمنة، تحترم كرامتهم وحقوقهم. إن الأمر يتعلق بظاهرة لن تحل على الإطلاق من خلال بناء الحواجز، ونشر الخوف من الآخر أو رفض مساعدة من يطمحون بطريقة مشروعة إلى تحسين أوضاعهم وأوضاع عائلاتهم. نعلم أيضا أن إرساء أسس سلام حقيقي، يمر عبر البحث عن العدالة الاجتماعية، التي لا مفر منها من أجل تصحيح الخلل الاقتصادي والسياسي الذي كان ولا يزال عنصرا أساسيا للتوتر وعامل تهديد بالنسبة للبشرية بأسرها.

صاحب الجلالة، أيتها السلطات الموقرة، أيها الأصدقاء الأعزاء! يفرح المسيحيون بالمكانة التي خصصت لهم داخل المجتمع المغربي. إنهم يريدون أن يقوموا بدورهم في عملية بناء أمة متضامنة ومزدهرة، وهم حريصون على الخير العام للشعب. من هذا المنطلق، أرى أن التزام الكنيسة الكاثوليكية في المغرب عبر نشاطاتها الاجتماعية، وفي مجال التربية، من خلال مدارسها المفتوحة أمام الطلاب من كل طائفة ودين وعرق، هو أمر ذو دلالة؛ لذا، وفيما أرفع الشكر لله على المسيرة التي تم إنجازها، اسمحوا لي أن أشجع الكاثوليكين والمسيحيين على أن يكونوا هنا، في المغرب، خدما للأخوة الإنسانية، ومروجين لها ومدافعين عنها.

صاحب الجلالة، أيتها السلطات الموقرة، أيها الأصدقاء الأعزاء! أشكركم مرة جديدة، كما أشكر الشعب المغربي بأسره، على ضيافتكم الحارة وعلى حسن إصغانتكم. شكرا بزاف! ليحفظكم الكلي القدرة والرحمن الرحيم، وليبارك المغرب! شكرا.

المؤتمر اليهودي العالمي

كلمة رئيس المؤتمر اليهودي العالمي، رونالد ستيفن لويدر، بالجامعة الغريغورية
الحرية

9 أكتوبر عام 2019

بصفتي رئيسًا للمؤتمر اليهودي العالمي، فإنه مصدر فخر وشرف لي أن أنضم إليكم اليوم في هذا المكان الذي لا يبعد كثيرًا عن المركز الكاثوليكي بالفاتيكان. وبصفتي يهوديًا، يسعدني أن أشارك في الجهود النبيلة لتحقيق فهم أكثر عمقا، وتشجيع التقارب، بين الديانتين القديمتين، اللتين تطورتا من نفس الشجرة التاريخية. وبصفتي فرداً، يسرني أن أقدم مشاركتي المتواضعة في محاولة تعزيز الانسجام بين الديانات التوحيدية الرئيسية في العالم وبين جميع البشر الذين يعيشون على كوكبنا الجميل.

أصدقائي الأعزاء، لقد منح القرن الحادي والعشرون الإنسانية نعمة غير مسبوقة. نحن، في جميع أنحاء العالم، شهود على التقدم الاقتصادي والتكنولوجي الذي انطلق في عصر يعيش حروباً أقل، وفقراً وجوعاً ومرضاً بنسبة أقل من أي فترة أخرى في التاريخ. في العقود الأخيرة، خرج بلايين من الأشخاص من حالة الفقر المدقع. لأول مرة في حياتهم، حصلوا على مياه نظيفة وغذاء سليم مغذي ورعاية صحية أساسية وبعض أشكال السكن الدائم. ولا يزال الطريق طويلاً. لا يزال الكثيرون يعانون من حرمان مخزٍ. لا يزال الكثيرون يعانون من عدم وجود منزل أو عمل، ولا يزال البعض يضطر لمواجهة الجوع. ولكن بفضل ربنا، تمكن رجال ونساء اليوم من خلق بيئة إنسانية توفر لنسبة لا يستهان بها من البشر جزءاً كبيراً من الاحتياجات الأساسية.

ولكن للأسف، يضع القرن الحادي والعشرون البشرية أمام تحدٍ صعب أيضاً.

تسير التنمية الاقتصادية جنباً إلى جنب مع تراجع الروحانيات.

أثارت الابتكارات التكنولوجية أزمة روحية عميقة. فإذا تمكنا من ناحية من تلبية الاحتياجات المادية الأساسية لكثير من الناس، فإننا، من ناحية أخرى، لم نتمكن من إدارة احتياجاتهم العاطفية المكنونة. ترك تراجع الدين وفكرة عدم وجود بديل بشري له حتى الآن روح الإنسان المعاصر جائعة وطمّانة.

وفي الوقت نفسه، وتحت أبصارنا، تهدد الآلات باستبعاد الإنسان والقيام بمهامه. إن التطور يفسد الكوكب ويعرض مستقبل العالم للخطر. الاعتدال يترك المجال رحبا أمام التطرف، والحب يفسح الطريق أمام الكراهية. يوماً بعد يوم نرى تفهماً أقل، وتسامحاً، وحساسية، وتعاطفاً أقل. يتصاعد الإرهاب، وكذا اضطهاد الأقليات. في حقيقة الأمر، في عصر ينبغي أن تتحد فيه الإنسانية- ويمكنها ذلك- من أجل تحقيق الخير، غالباً ما تنتشر ذم، وتنتسجر، وتترك نفسها لإغواء الشر.

الحمد لله، لقد اخترق الظلام شعاع من النور، وهو وثيقة الأخوة الإنسانية، التي وقعها في الرابع من شهر فبراير الماضي بأبو ظبي قداسة البابا فرنسيس وإمام الأزهر الشيخ أحمد الطيب. هذه الوثيقة الملهمة، التي قدمتها إلى العالم المرجعيات التي لا خلاف حولها في الكنيسة الكاثوليكية والعالم الإسلامي السني، يمكن مقارنتها بنبع ماء في الصحراء. إنها تعلن تبني ثقافة "الحوار طريقاً، والتعاون المشترك سلوكاً، والمعرفة المتبادلة منهجاً ومعيّاراً". دعت قادة العالم إلى "الالتزام الجاد بنشر ثقافة التسامح والتعايش والسلام". وأكدت على قيم "السلام والعدالة والخير والجمال والأخوة الإنسانية والتعايش المشترك كمرساة خلاص للجميع".

تدين الوثيقة الإرهاب، الذي يوصف بأنه ظاهرة غير دينية مؤسفة "تهدد أمن جميع الشعوب وتنتشر الذعر".

أصدقائي الأعزاء، باسم الجالية اليهودية، يمكنني أن أخبركم أن الوثيقة الدولية التي أعلنتها أبو ظبي ذات أهمية كبيرة، ونحن اليهود نحترمها كثيراً. نتشارك قيمها ونعنتق مبادئها الأساسية. اسمحوا لي أن أكرر ذلك. إننا نتشارك قيمها ونعنتق مبادئها الأساسية. نحن معجبون بالرؤية الهادية التي تمثلها وتعكسها. بالنسبة لنا نحن أيضاً،

يعتبر الإعلان عن الأخوة البشرية دليلاً لمستقبل أفضل، فهو سيغذي الروح البشرية، ويحمي البيئة، ويجلب معه الوعد بأن إنسانية الغد ستكون أكثر أخلاقية وأكثر تفهماً. أيها الإخوة والأخوات، يخبرنا سفر اللاويين: "لا تنتقم من أبناء شعبك، ولا تحمل لهم ضغينة. بل حب أخيك كنفسك". حب الآخرين كما تحب نفسك. تُرسخ وصية التوراة النبيلة تلك رابطة ثلاثية بين الله، والإنسان ذاته، والآخرين. بحسب قانون الله، ينبغي على كل واحد منا أن يعامل الآخرين كما يرضى لنفسه.

كان هليل العجوز رئيساً للسندريين. كان عالماً يهودياً استثنائياً يدعو إلى التسامح والتعاون ورقة النفس. عندما سأله أحد الراغبين في دخول الدين حول جوهر اليهودية، أجاب على الفور: "لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك. هذا هو كل التوراة، والباقي تفسير. والآن اذهب وادرس".

"أحب الآخرين كما تحب نفسك" هو الأمر الكوني في شكله المجرد. "لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك" هو الأمر الكوني في شكله المحدد. يكمل كل منهما الآخر. وجوهرهما واحد: كلنا أبناء وبنات الله. وكأبناء وبنات الله، كلنا إخوة وأخوات.

الأخوة البشرية هي جوهر وجودنا. يجب على مفهوم الأخوة البشرية أن يقود أعمالنا دائماً. ولهذا المفهوم آثار مباشرة على عالمنا وزماننا.

أولاً، نحن بحاجة إلى محاربة الكراهية. العنصرية غير مقبولة على الإطلاق. علينا القضاء عليها. ومعاداة السامية أيضاً غير مقبولة على الإطلاق. وعلينا القضاء عليها. وكذا العداء للإسلام غير مقبول على الإطلاق. فيجب علينا القضاء عليه. والاعتداءات على الجماعات والإخوة المسيحيين غير مقبولة تماماً. يجب أن نوقفها، ونمنعها من الوقوع مرة أخرى.

لكن الحملة ضد العنصرية ومعاداة السامية، وكراهية الإسلام، والهجمات المعادية للمسيحيين ستكون أكثر فعالية بكثير إذا اتحدنا. يجب على المسيحيين الدفاع عن

اليهود والمسلمين. ويجب على المسلمين الدفاع عن اليهود والمسيحيين. كما يجب على اليهود الدفاع عن المسلمين والمسيحيين. وكلنا معا يجب أن نواجه العنصرية. ينبغي أن تكون الأحداث المروعة في كرايستشيرش، ونيوزيلندا، وسريلانكا، وبيتسبرغ بمثابة تحذير لنا. إنها تفرض علينا جميعاً أن نقبل التحدي، وأن نتحد ونبذل قصارى جهدنا لكسب المعركة ضد الكراهية.

ثانياً، يجب علينا حماية حرية العبادة. لكل منا الحق في اختيار العقيدة، والعيش وفقاً لشرائعها. في عالم تميزه العولمة، والهجرة، والمجتمعات متعددة الثقافات، يمارس الناس عقائدهم جنباً إلى جنب. لهذا السبب يجب علينا أن نبذل ما بوسعنا لاحترام الممارسات الدينية للآخرين، والسماح لكل رجل وامرأة بالإقرار بعقيدتهم، والدخول في رحاب الله كما يحلو لهم.

يجب على كل ديانة توحيدية أن تحمّل احتراماً عميقاً للآخرين. كما يجب عليها أيضاً حماية دور عبادة الآخرين. وحيثما تكون دور العبادة متجاورة أو متواجحة، ينبغي أن نظهر التسامح والحكمة والتفاهم. يجب ألا نسمح لعقيدة واحدة أن تؤذي الآخرين أو تهينهم. يجب على المؤمنين من جميع الأديان أن يمسكوا بأيدي بعضهم البعض، ويؤكدوا بوضوح أن حرية العبادة عالمية ومطلقة، ويمكن ممارستها في أي مكان، وفي أي وقت، من أجل خير جميع الرجال والنساء.

أخيراً، يجب أن نكافح من أجل السلام. في العبرية، لا توجد كلمة مقدسة أكثر من شالوم. السلام. نبوة الأنبياء القداماء هي السلام. نبوة يسوع قائمة على السلام. وأيضا نبوة محمد تركز على السلام. أعظم رغبات البشرية هي الرغبة في السلام. وفي عصرنا متداخل ومتربط الأجزاء- الذي حول العالم إلى قرية صغيرة- يمكن تحقيق السلام. السلام في متناول الجميع. ولكن لمواصلة رحلتنا نحو السلام، يجب أن نتسم بالشجاعة وأن يكون لدينا قلب رحيم. نحن بحاجة لأن نلتفت لجروح الماضي ونبذل قصارى جهدنا لعلاجها. ينبغي أن نعترف بمشاعر مثل الألم والمعاناة والظلم والغضب، ونحاول تخفيفها.

يجب علينا أن نعمل كل ما في وسعنا للتعامل مع البؤس الرهيب الذي يعيش فيه العديد من الناس في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط بزيادة جرعة الرخاء والحرية. وعلينا أن نحاول إنهاء الصراع في الأرض المقدسة بإقرار حل الدولتين. يجب أن نتجاوز الأنانية والفروق الاجتماعية، والقومية - وأن نقف متضامنين مع أولئك الذين ليس لديهم ما نملكه نحن. يجب أن نحاول بناء عالم جديد قائم على التعاون والتواضع والكرامة. يجب ألا ندع الفرص الجديدة تقودنا إلى إقامة برج بابل آخر. يجب ألا نسمح لأنفسنا بإصابة الإنسانية بطوفان عالمي آخر. يجب أن نتذكر بداخلنا أننا جميعا من آدم وحواء. أبناء وبنات آدم وحواء. وكأبناء وبنات آدم وحواء، يجب أن نستغل كل الثراء الذي وهب لنا لبناء عالم من السلام والعدالة. عالم الأخوة الإنسانية.

شكرا جزيلاً - والله معنا.

القيم المشتركة ومهمة الأديان

عدنان مقراني

تعتبر وثيقة "الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك"، التي وقعها البابا فرنسيس وشيخ الأزهر أحمد الطيب، في 4 فبراير 2019 في أبو ظبي، خلال الزيارة الأولى للبابا لشبه الجزيرة العربية، مهد الإسلام، وسيلة للاحتفال بمرور 800 عام على اللقاء بين القديس فرنسيس والسلطان الكامل في مصر. وبهذه المناسبة، أراد البابا زيارة الأولى للبابا لشبه الجزيرة العربية، مسلة للاحتفال بمرور 800 عام على اللقاء بين القديس فرنسيس والسلطان الكامل في مصر. وبهذه المناسبة، أراد البابا زيارة دولتين عربيتين ذوي أغلبية مسلمة: الإمارات العربية، في أقصى شرق العالم العربي، والمغرب في أقصى الغرب. زار البابا الرباط يومي 30 و31 مارس 2019. على المستوى الرمزي، أراد البابا، الذي يحمل اسم القديس، مقابلة "سلطانين". إنه عناق للعالم العربي من طرفيه، في لحظة تاريخية صعبة للغاية في المنطقة بأسرها. كان أول لقاء بين البابا فرنسيس والسلطان في زمن الحروب الصليبية؛ ويأتي اللقاء الأخير أيضا في عصر يمتلئ بالحروب والصراعات، وتكفي الإشارة إلى الحروب القائمة في سوريا واليمن، والتوترات الكبرى مع إيران. تظل الرسالة واحدة: السباحة عكس التيار للحديث عن السلام والحقوق.

يعتبر الحوار مع المسلمين أولوية بالنسبة للبابا فرنسيس، ويتجلى ذلك في رحلاته، كالرحلة إلى بنجلاديش والاجتماع مع اللاجئين الروهينجا. كما يتجلى في وثائقه وخطبه، مثلما يظهر في الإرشاد الرسولي فرح الإنجيل (2013)، حيث نجد موقفاً إيجابياً وشجاعاً بشأن الإسلام: "إزاء أحداث الأصولية العنيفة التي تقلقنا، يجب على المودة نحو المؤمنين المسلمين الحقيقيين أن تحملنا على تحاشي التعميمات البغيضة، لأن الإسلام الحقيقي والتفسير الملائم للقرآن يناهضان كل عنف". (رقم 253).

وبـ"وثيقة الأخوة الإنسانية"، أراد البابا أن يخطو خطوة إلى الأمام مشركا معه سلطة دينية إسلامية عظيمة، وهو شيخ الأزهر، ليؤكد ما قاله بالفعل في عظته الأولى.

وبالتالي، لا يمكن اعتبار موقف البابا الأولي مثالية ساذجة، بل هو رؤية مشتركة يؤكدها الجانب الإسلامي. تقول الوثيقة: "كما تُؤكِّدُ - وبحزمٍ - أنَّ الأديانَ السماويَّةَ لم تُكُنْ أبداً بَرِيداً للحُرُوبِ أو باعثةً لمَشاغِرِ الكَراهيَّةِ والعداءِ والتعصُّبِ، ومُثيرَةً للعُنفِ وإِراقةِ الدِّماءِ، فهذه المَآسي لَيسَتْ نَتيجةً للأديانِ، بل هي حَصيلَةُ الانحِرافِ عن تعاليمِ الدِّينِ، واستِغلالِ الأديانِ في السِّياسَةِ، وكذا تَأويلاتِ طائفةٍ من رجالِ الدِّينِ - في بعضِ مَراحلِ التاريخِ - الذين وظَّفوا الشُّعُورَ الدِّينيَّ لِدَفْعِ الناسِ لِلإِتيانِ بما لا علاقةَ له بصِحِّحِ الدِّينِ".

أعطى خطاب البابا عن الإسلام مصداقية كبيرة له بين المسلمين، ليس فقط بين أولئك الذين يعملون في مجال الحوار، بل كل أولئك الذين شعروا بالإهانة والإذلال بسبب الارتباك الذي أحدثه الإرهاب واستغله أتباع النظرية الشعبوية في جميع أنحاء العالم.

كان البابا يبحث عن محاور مسلم مؤسسي وذي مصداقية، ووجده في الأزهر، المؤسسة العريقة حقا، التي بدأت كمسجد شيعي أسسه القائد الفاطمي الصقلي، جوهر، ما بين 970-972، بالتزامن مع تأسيس القاهرة. ثم أصبح سنياً في عهد صلاح الدين عام 1171، ليصير تدريجياً أهم مركز للدراسات الإسلامية التقليدية التي رحبت وما زالت ترحب بالطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي من المغرب العربي إلى إندونيسيا.

الأزهر هو رمز للوحدة الوطنية المصرية والمقاومة ضد الغزاة أيضاً، كان هكذا خلال حملة نابليون بونابرت عام 1798، الذي قصف المسجد بالمدافع، وتسبب في مذبحة وأغلق المسجد لمدة عام كامل. وعلى الرغم من انتقاد الأزهر بسبب تقاليده وسمته المحافظ، نجد أن العديد من رواد الإصلاح الإسلامي كانوا ينتمون إلى الأزهر مثل محمد عبده (1905 م)، والكثير من الأئمة الكبار في القرن العشرين الذين اشتهروا بحكمتهم وانفتاحهم، مثل محمود شلتوت (1963 م.) وعبد الحليم محمود (1978 م.).

بدأت أزمة المؤسسة في دولة ما بعد الاستعمار الحديثة، منذ عهد ناصر (1970 م.)، ومع تأميم الأوقاف، نظام التمويل الشعبي، الذي كان يضمن استقلالية وحرية المؤسسة. شهد الأزهر فترة استثنائية من الحرية بعد الثورة المصرية عام 2011 مباشرة. في هذا الجو الانتقالي، أنشأ الأزهر البيت المصري، كمساحة للحوار الوطني، شارك

فيه المثقفون اليساريون، والليبراليون، والأقباط، والنساء، والإخوان المسلمون، وغيرهم، مما أخرج "وثيقة مستقبل مصر" (2012)، وهي وثيقة تنعكس بطريقة ما على وثيقة أبو ظبي. .

دعونا نلقي نظرة عن كثب على محتويات "وثيقة الأخوة". أولاً، هي وثيقة لا تقتصر على الخطاب الأخلاقي والقيم المشتركة، ولكنها تقدم الإطار اللاهوتي العام الذي يدعم القيم. لا يتعلق الأمر بالأخلاق فقط، بل بالإيمان والعقيدة أيضاً: "إننا نحن المؤمنين بالله وبقائه وبحسابه، ومن منطلق مسؤوليتنا الدينية والأدبية، وعبر هذه الوثيقة، نُطالب أنفسنا وقادة العالم...".

من هذا المنظور، لا تشترك المسيحية والإسلام في القيم فحسب، بل في الإيمان بالله والكرامة الإنسانية أيضاً، ويتشاركان نفس المسؤولية أمام الله والناس. إن الإسلام والمسيحية ليسا ديانتين متعارضتين أو متحاربتين، بل إن لديهما أساساً لاهوتياً وأخلاقياً متيناً، يسمح بالحوار والتضامن ورسالة مشتركة في خدمة الإنسانية.

من المقدمة، نقرأ في الجملة الأولى: "يقود الإيمان المؤمن إلى أن يرى الآخر أخصاً جديراً بالدعم والمحبة". هذا يعني أن نقص الحب والتضامن يضر بالإيمان. المسلم الذي يكره المسيحي هو أقل إسلاماً، والمسيحي الذي يكره المسلم هو أقل مسيحياً. بل إن الصياغة هنا أشمل لأنها تتحدث عن المؤمنين بشكل عام. الإيمان هو حب يُعبر عنه في الحياة من خلال التضامن. وتمس نقطة أخرى مهمة في المقدمة ما يمكن تسميته بالتضامن الكوني وعلم البيئة المتكامل: فهناك علاقة تكامل تقوم بين "الأخوة الإنسانية" و"حماية الخلق"، كـ"أخوة كونية" تجمع بين كل المخلوقات.

تظهر الصلة بين اللاهوت والأخلاق بوضوح من خلال سلسلة من "باسم...": "باسم الله ... باسم النفس البشرية الطاهرة ... باسم الفقراء واليوساء والمحرومين والمهمشين ... باسم الأيتام والأرامل، والمُهَجْرينَ والنازحينَ من ديارهم وأوطانهم... باسم الشعوب التي فقدت الأمن والسلام والتعايش... باسم الأخوة الإنسانية ... الحرية ... العدل والرحمة". تتحدث الوثيقة باسم الله، عن الشعب، وخاصة المظلومين والضعفاء،

وعن القيم المشتركة. تقول إن كل من يؤمن بالله يجب أن يؤمن بالإنسان والقيم الأساسية للحياة والأخوة.

من بين الموضوعات العديدة التي تتناولها الوثيقة هي الصلة القوية بين الحرية والاختلاف والحكمة الإلهية. يُنظر إلى التعددية الدينية على أنها شيء إيجابي وجزء من الحكمة الإلهية: "أَنَّ الحَرِيَّةَ حَقٌّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ: اعتقاداً وفكراً وتعبيراً ومُمارَسةً، وأنَّ التَّعَدُّدِيَّةَ والاختلافَ في الدِّينِ واللونِ والجنسِ والعِرْقِ واللُّغَةِ مَشِيئَةُ إلهِيَّةٍ، خَلَقَ اللهُ البَشَرَ عَلَيْهَا، وجعلها أصلاً ثابتاً تَتَفَرَّغُ عنه حُقوقُ حَرِيَّةِ الاعتقادِ، وحرِيَّةِ الاختلافِ، وتجريمُ إكراهِ الناسِ على دينٍ بَعِيْنِهِ أو ثقافَةٍ مُحدَّدةٍ، أو فَرَضِ أسلوبِ حضاريٍّ لا يَقْبَلُهُ الآخَرُ". وتسلط الوثيقة الضوء على قيم المساواة والمواطنة الكاملة: "إنَّ مفهومَ المواطنةِ يقومُ على المُساواةِ في الواجباتِ والحُقوقِ التي يَنعَمُ في ظلالِها الجميعُ بالعدلِ؛ لذا يَجِبُ العملُ على ترسيخِ مفهومِ المواطنةِ الكاملةِ في مُجتمعاتنا، والتخلِّي عن مصطلحِ الأقلِّيَّاتِ الذي يَحْمِلُ في طَيَّاتِهِ الإحساسَ بالِعُرْزَلَةِ والدُّونيَّةِ". إن العلاقة بين الدين والفضاء العام هي مسألة قائمة بين سطور الوثيقة: يمثل الدين وعياً أخلاقياً وتربوياً للمجتمع وللعالم.

الاتحاد الهندوسي الإيطالي

سفامينا همساناندا غيري

أعبر عن امتناني للشرف الذي مُنحته اليوم لحمل صوت الاتحاد الهندوسي كأحد الأصدقاء على الوثيقة التي وقعها الأب الأقدس وإمام الأزهر يوم 4 فبراير في أبو ظبي، والتي تتمتع بأفق عالمي حقا.

يعد تصريح "الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك" شهادة - ذات أهمية تاريخية- تحض أكثر من نصف سكان العالم على التأمل بعمق: المسيحيين والمسلمين. كما أنه يطمح إلى أن يتشارك فيه الرجال والنساء من جميع الأديان، في جميع أنحاء العالم، إضافة إلى السلطات ومنظمات المجتمع المدني وجميع المؤسسات التي ذكرت بدقة في الوثيقة¹¹⁵.

تدخل هذه الوثيقة إلى التاريخ كشهادة قوية. وكننتاج لعلاقة طويلة ومعقدة بين الشرق والغرب، لا تريد أن تظل محصورة في دائرة الحوار المتميزة، لكنها تريد أن تمتد وتتفاعل ديناميكيا؛ تريد أن تتحول إلى أداة واقعية للسلام: من الحوار إلى العمل معاً، "فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ"، طبقاً لما ورد في القرآن الكريم.

في هذا النداء الصادر من القلب، تشعر جميع الأديان أنها مدعوة إلى الالتزام بالترابط فيما بينها، واعية الجهد الهائل الذي يجب القيام به للتغلب على المشاحنات والجهل والاستغلال.

بفطنة فريدة، يقدم النص صورة دقيقة لمجتمع اليوم: فتوحاته وإخفاقاته وآلامه. لهذا، يمكن لأي شخص يهتم بالصالح العام أن يجد نفسه ممثلاً في ذلك التحليل وأن يستشعر المخاوف ذاتها. إن الوثيقة هي دعوة صريحة، لكل شخص، لكي يشارك بشكل تعاوني في حل المشاكل الخطيرة التي تمزق حياة الكثيرين في الوقت الحاضر والتي

¹¹⁵ "وَأَنْ نَدْعُوَ إِلَى تَرْجُمَتِهَا إِلَى سِيَاسَاتٍ وَقَرَارَاتٍ وَنُصُوصٍ تَشْرِيعِيَّةٍ، وَمَنَاهِجٍ تَعْلِيمِيَّةٍ وَمَوَادِّ إِعْلَامِيَّةٍ".

يتوقع أن تمثل معاناة كبيرة في المستقبل القريب¹¹⁶. فقبل أي شيء، يجب أن نتذكر أن أدياننا تقوم على محبة الله للعالم والمخلوقات. تذكرنا الكتب المقدسة الهندوسية بأن نكون فاعلين في عمل الخير، وأن نتمثله في أنفسنا عن طريق التناغم المثالي بين الفكر والشعور والعمل:

نادرون هم الأشخاص الذين ينفذون ما يطلبون من الآخرين القيام به. يحتاج الناس إلى القيام بأعمالهم الروحية متوجهين بها إلى الله. يجب أن يتبع الكلمات المهمة عمل راسخ من أجل خير البشرية، حتى لو كان ذلك ينطوي على صعوبات وتضحيات.¹¹⁷

نقرأ في الكتب المقدسة الهندوسية أنه في هذا العصر، المسمى "كالي يوغا"، حيث يسود الشر وانحدار قيم العدالة والروحانية والولاء والإيثار، لا يستحق الثناء سوى ذلك الباحث الذي يعبد الرب بحب. في مواجهة الخصومة، لا يجب على المرء أن يفقد الأمل ويدع نفسه لليأس. ويتمثل الطريق القويم في أداء العمل مع تأكيد الدهارما (قانون العالم)، العلاقة المتبادلة بين المخلوقات. ويكمن جوهر الدهارما في تكريس النفس لخدمة الآخرين دون تحفظ. تؤكد الكتب المقدسة أيضا على أن مساعدة الآخرين هي واجبنا الأساسي. استحق أولئك الذين يضحون بأنفسهم من أجل الآخرين إعجاب الحكماء والقدسين.

"الرجل العظيم يتميز بثلاث فضائل: الشجاعة والرحمة واحترام المرأة"

(راماينا)

¹¹⁶ "إننا، وإن كنا نفضّل الجوانب الإيجابية التي حقّقها حضارُنّا الحديثة في مجال العلم والتّقنية والطب والصّناعة والرّفاهية، وبخاصّة في الدّول المتقدّمة، فإنّنا - مع ذلك - نُسجّل أنّ هذه القفّزات التاريخيّة الكبرى والمحمّودة، تَماهت معها - بشكلٍ كبير - الأخلاق الصّابغة للتصرّفات الدوليّة، وتراجعت القِيَمُ الرّوحيّة والشّعورُ بالمسؤوليّة؛ ممّا أسهم في نشرِ شعورٍ عامٍّ بالإحباط والغرلة والنّاس، ودفع الكثير إلى الانخراط إمّا في دَوّامة التّطرّف الإلحاديّ واللادينيّ، وإمّا في التّطرفِ الدّينيّ والتشدد والتّعصّب الأعمى، بل ودفع البعض إلى تَبَيُّ أشكالٍ من الإدمان والتّدبير الذاتيّ والجماعيّ".

¹¹⁷ بسنت جوبتا، الجمال الأبدي. آيات مختارة من راماينا تولسيداس، دار نشر لاکسمي، ساقونا.

هذه كلمات يبدو أنها تعكس صدى تلك التي تضمها الوثيقة، والتي تؤكد على أهمية حقوق المرأة، والضعفاء، والحق في التعليم. وكيف يمكننا أن نتجاهل التذكير الصريح بأهمية الأسرة¹¹⁸ باعتبارها النواة الأولى والأساسية لبناء المجتمع. في الطرح النموذجي الذي تقدمه الوثيقة تتجلى إدانة مباشرة للعذابات الخطيرة التي يقع ضحيتها المجتمع. في المشهد المطروح، يظهر الدور الذي يجب أن يلعبه كل من السلام والأخوة لكونهم مبادئ تأسيسية تقوم عليها العقيدة الدينية. تمت التعددية جذورها بين التسامح والحوار، لكنها يجب ألا تتوقف عند هذه القيم وحدها، بل ينبغي أن تعمل على تعميق الوعي وتوسيع الإدراك الجماعي بكل ما يجمع الأديان والشعوب والثقافات، مبينة كيف يعتبر هذا التنوع سببا في الرخاء الإنساني والديني والاجتماعي. وينبغي عليها قبول خصوصية الرؤى اللاهوتية المختلفة كعنصر ثراء وكجزء من ذلك التنوع المتأصل في الجنس البشري.

إن ثقافة السلام واللاعنف لا يمكن أن تتحقق إلا في وجود ثقافة الاحترام والصدقة والمصالحة، في ظل تقبل حقيقي وليس مجرد تسامح. تؤكد الثقافة الهندية التعددية الدينية والأخوة في الآن ذاته، بهدف تحقيق الوحدة في الاختلاف. تؤكد الفيدا (الكتب المقدسة الهندوسية) إن الحقيقة (براهمان) واحدة، يدعوها الحكماء بأسماء كثيرة منها إيكام، ساد، فيبراه، باودها، فادانتى، الإله، شيفا، رام، كارشنا، الله، بوذا وما إلى ذلك، كلها مسميات يستخدمها أشخاص مختلفون في وصف نفس الحقيقة، غير القابلة للتعريف ولا التبرير. إن الواحد الذي لا شريك له، كما تؤكد الفيدا هو مصدر العالم المادي، وقوانينه، كما أنه مصدر القوانين الروحية التي تدعم تناغمه.

¹¹⁸ "وثؤمن الوثيقة أيضًا بضرورة التّشبيّه بقيمة الأسرة كنواة لا غنى عنها للمجتمع وللشّريّة، لإنجاب الأبناء وتربيتهم وتعليمهم وتحصينهم بالأخلاق وبالرعاية الأسريّة، فمهاجمة المؤسسة الأسريّة التقليديّة والتقليل منها والتشكيك في أهميّة دورها هو من أخطر أمراض عصرنا".

منذ فجر التاريخ، كان السلام والازدهار والحرية والسعادة مثلاً وأهدافاً للبشرية، ولكنهم تعرضوا في كثير من الأحيان للاستغلال بسبب الأنانية والجشع الذي يولد الصراعات، والحروب، والعنف والألم الذي لا يوصف.

للأسف، حتى وإن كان البشر لا يعرفون كيف يحافظون على التوازنات، فإن الأديان ينبغي عليها دعم دورها التربوي في مبادئ السلام والعدالة والتضامن والترابط. نحن نتحد، إذن، بقوة مع النداء الحكيم:

"فنحن نطالبُ الجميعَ بوقفِ استخدامِ الدِّينِ في تأجيجِ الكراهيةِ والعُنفِ والتطرُّفِ والتعصُّبِ الأعمى، والكفِّ عن استخدامِ اسمِ الله لتبريرِ أعمالِ القتلِ والتشريدِ والإرهابِ والبَطْشِ [...]". كما نُؤكِّدُ - وبحزمٍ - أنَّ الأديانَ السماويَّةَ لم تُكُنْ أبداً بريدًا للخرُوبِ أو باعثةً لمشاعرِ الكراهيةِ والعداءِ والتعصُّبِ، ومُثيرةً للعُنفِ وإراقةِ الدِّماءِ".¹¹⁹

يجب مكافحة هذا الطاعون المتأصل في قلب الإنسان بقوة: استغلال لأديان لصالح السلطات. إن مواجهة الإرهاب¹²⁰، والتعصب، واستغلال الأديان واجب أخلاقي. من الجوهرى، أن نتذكر دائماً نتائج العنف المدمرة عن طريق إحياء القيم الإيجابية، مستحضرين أيضاً البعد الأخروي لكل دين، والذي لا يمكن فصله عن السلام والأخوة. يقول القديس الهندي الشهير كابور:

"مات جميع الهندوس وهم ينطقون باسم راما، بينما مات المسلمون وهم ينطقون باسم الله. فقط أولئك الذين لا يرون أي فرق بين الاسمين سيخلدون".

¹¹⁹ "هي حصيلة الانجراف عن تعاليم الدين، واستغلال الأديان في السياسة، وكذا تأويلات طائفة من رجالات الدين - في بعض مراحله التاريخية - الذين وظفوا الشعور الديني لدفع الناس للإتيان بما لا علاقة له بصحيح الدين، من أجل تحقيق أهداف سياسية واقتصادية دنيوية ضيقة؛ لذا فنحن نطالب الجميع بوقف استخدام الدين في تأجيج الكراهية والعنف والتطرف والتعصب الأعمى، والكف عن استخدام اسم الله لتبرير أعمال القتل والتشريد والإرهاب والبطش؛ لإيماننا المشترك بأن الله لم يخلق الناس ليقتلوا أو لينتقلوا أو يُذبوا أو يُضيق عليهم في حياتهم ومعاشهم، وأنه - عز وجل - لا يحتاج لمن يذافع عنه أو يزهب الآخرين باسمه".

¹²⁰ "أن الإرهاب البغيض الذي يهدد أمن الناس، سواء في الشرق أو الغرب، ويلاحمهم الفزع والرعب وترقب الأسوأ، ليس نتاجاً للدين - حتى وإن رفع الإرهابيون لافتاتِهِ ولبسوا شاراتِهِ - بل هو نتيجة لتراكمات الفهوم الخاطئة لنصوص الأديان وسياسات الجوع والفقر والظلم والبطش والتعالي؛ لذا نطالب بوقف دعم الحركات الإرهابية بالمال أو بالسلاح أو التخطيط أو التبرير، أو بتوفير الغطاء الإعلامي لها، واعتبار ذلك من الجرائم الدولية التي تهدد الأمن والسلام العالمي".

يجب أن ندرك من خلال التاريخ مقدار المعاناة التي ارتكبت باسم جنون بعض البشر الأعمى، وبتبرير ديني. ومع ذلك، وبفعل عجز خبيث تقريبا، يقع البشر بسهولة أكبر فريسة للنسيان، وبما يقود الشعوب والثقافات إلى الوقوع مجددا في فخ الكراهية والانفصال ذاته.

للأسف، تعتبر التقلبات المأساوية للصراع طويل الأمد بين الهندوس والمسلمين مثالا لهذا في الهند. ذلك الصراع الذي حاول إطفاءه القديسون والزهاد من كلتي الديانتين، باستخدام ترانيم الحب، والسلام العالمي، والاتحاد، والأخوة، والصداقة. طالما اختفت تلك الأصوات الأخيرة بين هدير القنابل وعمى أولئك الذين يمتلكون القوة والقدرة على تضخيم رسائل التعصب والتحريض على المعاناة.

على الرغم من إخفاق وضعف هذه الصلوات في بعض الأحيان، إلا أنها تعتبر بذرة الأمل التي يمكن لكل رجل وامرأة في جميع أنحاء العالم، أن يزرعوها كل يوم في قلوبهم كي لا يستسلموا لأولئك الذين يدعون أن الكراهية أقوى من الحب، ولأولئك الذين يقبلون بأن تكون اللامبالاة أفضل من الأخوة بين جميع المخلوقات.

أود إذن أن أختتم تأملاتي الموجزة بالعودة مرة أخرى إلى القديس كابور، صوت الصمود وإمكانية رؤية النور، دائما، ما وراء الظلام.

"لا تفصلوا بين هاري والله، إذا كنتم لا تريدون أن يجركم فراغ إيمانكم نحو النهاية الحزينة. إنه نفس الإله الذي خلق الجحيم والنعيم، الذي يشملنا جميعاً بمجده. تخلوا عن أي تنافس في العقيدة واجتمعوا معاً لتتغنوا بفضائله. كابور يحذرنا: إذا كنتم تريدون أن تنقذوا أنفسكم من سيل العذابات الأرضية، عودوا تحت قدميه المقدستين.

إن الله الذي يوجد دون أن نراه في هدوء المسجد، وتمثال راما الذي يقف بين الزهور والقرايين في صخب المعبد، ليسا إلهين مختلفين. أحقق هو القائل بأن هاري يملك الشرق، والله يقيم في الغرب! ابحثوا عن الإله داخلكم: إنه راما وإنه الرحيم. رجل

أو امرأة أيا ما تكونوا، هو نور كل واحد فيكم، إنه الأزلي الأبدي الذي يسكن روح كل
البشر.¹²¹

¹²¹ مؤلفون عدة، الزهاد الهنود في العصور الوسطى (كلاسيكات الدين)، الطبعة الإيطالية، أوتيت.

الاتحاد البوذي الإيطالي

إيلينا سيشين فيفياني

يعني توقيع قداسة البابا فرنسيس وإمام الأزهر أحمد الطيب على "وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك" بدء مرحلة تاريخية ذات أهمية قصوى للقيم الإنسانية التي توحد بين جميع ديانات العالم، حتى قبل تمايزها على المستوى العقائدي.

أنا لا أتحدث بصفتي بوذيًا أو خبيرًا في العلاقات الدولية، ولكن بصفتي إنسانًا بسيطًا لا يمكنه أن يتخلف عن المشاركة ومحاوله ممارسة تلك القيم الإنسانية حتى تصبح مجتمعاتنا أكثر رحمة، وعدالة ونزاهة. إن التأكيد على أن الأديان لم تكن دائمًا سبل سلام هو حقيقة لا جدال فيها تاريخيًا للأسف: بدءًا من الحروب الدينية وحتى الآثار الكارثية الناشئة عن مفهوم الحروب "العادلة"، التي يعتبر فيها استخدام الأسلحة من قبل المؤمنين شرعياً "طالما أنها لا تتسبب في شرور واضطرابات أكثر خطورة من الشر الذي ينبغي القضاء عليه"، وصولاً إلى الاتجاهات الأصولية الحالية، "النسخة المسلحة والعنيفة من الأديان، والقدرة على تضيق الإطار الجغرافي و السياسي وتقويض التعايش الديمقراطي"، والتي تشهد تورط الأديان الرئيسية على الأرض، بما فيها البوذية بكل تأكيد.

تأسس كثير من الصراعات التي خلقتها وبررتها الأديان على ما يطلق عليه هابرماس "استراتيجية التحصين"، وهي الاستراتيجية التي لم تثبت في سياق الدين فقط، بل في النظريات العلمية أيضاً، والتي وفقاً لها يعلن كل طرف أنه يمتلك الوحي المطلق. بهذه الطريقة يكتسب الدين حصانة أمام أي شخص يريد جدالاً مع حقائقه.

إن التأكيد على امتلاك الحقيقة، في معناها المطلق، يعني تلقائياً استخدام هذه الإستراتيجية لكيلا يُسمح للأخر بأن يقول: "لا، هذا ليس صحيحاً".

هذا يعني التأسيس الذاتي، وهو ركيزة الأصولية، لأنه إذا كان يمكن للتأسيس الذاتي أن يعمل داخل نفس النموذج الثقافي، فإنه هو نفسه يصبح مصدرًا للفرقة وسوء الفهم، عند التعامل مع الآخرين.

ونتناهجه نراها جميعا أمام أعيننا.

والحديث أيضا عن أن الدين الذي ليس له إله، كما هو الحال في الديانة البوذية، ليس دينًا، ما هو إلا إسقاط لنفس العقلية التي تربط الإيمان بوجود إله.

إن رفض أو عدم اعتبار وجود تصور مماثل، ولكنه مختلف، يعتبر هو لحظة بدء الصراع. إنه من الصائب النظر إلى ثقافتنا ورموزنا وتقاليدنا بعين الاعتبار، لكن ما لا يقل أهمية عن ذلك، في الآن نفسه، هو إدراك أن تلك العناصر ليست مطلقة. في كثير من الأحيان لا نستطيع أن نخبر بديننا المحدد دون أن ندعي أننا أصحاب الحقيقة الوحيدة. تلك التي تخصنا.

وكما أكد الدالاي لاما تينزن غياتسو مرارًا وتكرارًا توجد أربعة اعتبارات يجب الأخذ بها أثناء السير على الطريق لتحقيق "الأخوة الانسانية من أجل السلام العالمي والتعايش المشترك" المأمولة في الوثيقة التي نحن مدعوون هنا للتأمل فيها، وهي:

1- الإنسانية العالمية أمر ضروري لحل المشاكل العالمية

2- التعاطف هو ركيزة السلام

3- جميع أديان العالم تؤيد السلام لأنها كلها تؤيد الإنسانية

4- لكل شخص "مسؤوليته تجاه العالم"

يسعى البشر، وكذا كل الكائنات الحية الأخرى، أولاً، وقبل كل شيء، إلى السلام والرفاهية والأمن. إن الحياة عزيزة على الحيوان بقدر ما هي عزيزة على الإنسان؛ حتى أصغر حشرة تحاول حماية نفسها من الأخطار التي تهدد وجودها. ولتحقيق السعادة بشكل ملموس، يجب أن يتوفر مزيج من السلام الداخلي وتنمية اقتصادية عادلة، وقبل كل شيء، سلام عالمي.

تتحقق هذه الأهداف مع نشأة الاحساس بالمسؤولية العالمية، والقلق العميق الذي يشمل الجميع، بصرف النظر عن العقيدة، ولون البشرة، والجنس والجنسية، في كلمة واحدة، شعور واحد بالأخوة العالمية.

إن تبني نهجًا غير أناني في الحياة لأجل تحقيق هدف محدد يتطلب منا أن نغير بعمق موقفنا في مواجهة المشكلات التي تنشأ بسبب سوء الفهم، تلك التي يمكننا نحن حلها لأننا نحن من تسببنا فيها: الصراع بين الأيديولوجيات، السياسية أو الدينية، يجعلنا ننسى تلك الإنسانية التي هي كنز الجميع والتي تجمعنا كعائلة واحدة.

يجب ألا ننسى أبدًا أن الأديان والأيديولوجيات والأنظمة السياسية المختلفة في العالم ينبغي أن تهدف إلى ترك البشر ينعمون بالسعادة: يجب الحفاظ دائمًا على تقدم الإنسانية على المنافع المادية والأيديولوجية. وتجنبنا استغلال الآخرين لتحقيق مكاسب شخصية لنا هو مقدمة لا غنى عنها لذلك.

غالبًا ما دفع السعي وراء السعادة البشر إلى تبني أكثر الأساليب قسوة ووحشية: لكن أدت الأفعال قليلة الجدوى، التي تهدف لتحقيق مكاسب شخصية فقط، إلى التسبب في معاناة إضافية لحقت ببشر آخرين أو بكائنات حية أخرى، وأخيرًا وليس آخرا بأصحاب تلك الأفعال أنفسهم.

نحن، إذن، بحاجة إلى نهج جديد ينشأ من رؤية جديدة للواقع. لا يفتأ العالم يتحول إلى قرية يصغر حجمها يوما بعد آخر، ويزداد ترابط أجزائه بعضها ببعض، نتيجة للتقدم التكنولوجي السريع، والتجارة الدولية، والعلاقات العابرة للحدود القومية.

نحن نعتمد بشدة على بعضنا البعض. نرتبط ونتكامل مع بعضنا البعض إلى حد أنه بدون هذا الشعور بالمسؤولية العالمية الناشئ عن فهم واقتناع بأننا جميعًا ننتمي إلى نفس الأسرة البشرية الكبيرة لا يمكننا أن نأمل في التغلب على المخاطر التي تهدد وجودنا، قبل حتى التفكير في السلام والسعادة.

اليوم، لا يمكن حل مشكلة أمة واحدة بشكل مرضٍ من جانب واحد، لأن الحل لا يخص أبداً هذه الأمة وحدها، بل يعتمد كثيراً أيضاً على مصالح الأمم الأخرى، وموقفها، وتعاونها. يبدو أن النهج الإنساني العالمي لحل المشاكل العالمية هو الأساس الراسخ الوحيد الذي يقوم عليه السلام العالمي.

ماذا يعني هذا الكلام؟ أن نبدأ بالاعتراف، كما قلنا من قبل، بأن جميع الكائنات تبغي السعادة ولا تريد أن تعاني. بهذا، سيكون من الخطأ أخلاقياً، ومن الغباء عملياً، السعي وراء المصلحة الشخصية فقط، غير أبهين بمشاعر وتطلعات كل من حولنا، الذين ينتمون لنفس عائلتنا البشرية.

إن الطريق الأكثر حكمة هو التفكير في الآخرين حتى ونحن نسعى إلى سعادتنا الشخصية. ونحن نطلق عليه في البوذية "المصلحة الشخصية الحكيمة" أو بكلمات أفضل "المصلحة المتبادلة".

تؤكد البوذية على أن ولادتنا كبشر هو حدث نادر في حد ذاته؛ من الحكمة استخدام هذه الفرصة بأقصى ذكاء واستفادة ممكنين. يجب أن يكون لدينا منظور صحيح لهذه العملية العالمية كي لا يتحقق سلام وسعادة كل فرد واحد وكل جماعة على حساب الآخرين.

ينبغي أن يقتحم وعي عالمي مساحات الوعي الفردي الضيقة، دون مساس باختلافات العقائدية بين الأديان، مع التراجع خطوة إلى الوراء، والتخلي عن جمود الرؤية الأحادية.

كان الأب إرنستو بالدوتشي يحذر قائلاً: «يجب أن يكون هناك التزام بانتشال جميع البشر من الجهل والتقصير، كي يصبحوا مسؤولين عن مستقبلهم. في مجرى الحياة يتصدر أمر واحد: أن تكون البشرية ذاتها ووحدها هي المسؤولة عن مصيرها. فقد انتهى عصر الشعوب المختارة كما انتهى عصر المخلصين».

يجعل الجهل والتقصير الرجال غير مبالين بمعاناة أو بسعادة بعضهم البعض، ويمنعهم من أن يصبحوا "مسؤولين وحدهم عن مصيرهم"، الذي يتحقق بفضل روح

تعاون أصيلة. لا يمكن أن يكون الجشع، والغيرة، والأنانية والفردية دوافع لتصرفاتنا عندما تكون نجاة الكائنات البشرية، وكوكب الأرض بأكمله على المحك: إن السعي لبلوغ وتحقيق تعايش متناغم ليس سوى نتيجة نهج روعي سليم. ويتضح الآن للجميع أنه إذا استمرت البشرية في مواجهة الصعوبات بمسكنات مؤقتة فقط، فستعاني الأجيال القادمة من العواقب الوخيمة.

سيؤدي العدوان والتنافس، اللذان يعتبران وسيلة فعالة لبلوغ المصلحة الشخصية، إلى حالة الحرب كأثر حتمي، ويخلقهما البحث عن الأشياء موضع الرغبة والتعلق. كيف يمكننا التحكم في هذه "السموم" التي تؤدي، لكونها أساس كل مشكلة في العالم، إلى رؤية مشوهة للواقع؟

بصفتنا بوذيين، نحن مقتنعون بأن التعاطف هو النسيج الأخلاقي للسلام العالمي. إنه الحل الأمثل والوحيد للمعاناة. يجب أن نسعى جاهدين لنزرع داخل أنفسنا تعاطفًا محايدًا وغير محدود تجاه جميع الكائنات الحية، ويجب أن نغذي داخل أنفسنا شعورًا منفتحًا يجعلنا نحتضن حتى أعدائنا.

إن تنمية شعور صادق بالتقرب من جميع البشر لا يرتبط بالضرورة بالممارسات الدينية التقليدية ولا يعتبر امتيازًا يخص أولئك الذين يمارسون الشعائر الدينية، لكنه يعد واجبًا مفروضًا على الجميع بغض النظر عن العرق أو الدين أو الانتماء السياسي.

تتشترك جميع الأديان في الرسالة نفسها، بغض النظر عن الاختلافات العقائدية التي تعود إلى الظروف والتأثيرات الثقافية: دعونا لا ننظر إلى الاختلافات، ولكن إلى المشتركات التي تجمعنا، أو إلى نفس مثل المحبة، التي تعود بالفائدة على البشرية بفضل الممارسة الروحية. يشغل الإيثار موقعًا خاصًا في الرؤية التي تقدمها جميع الأديان، الإيثار الذي نتربى عليه، من خلال مبادئ أخلاقية، لتحسين وظائف العقل والجسد واللغة. إن المساهمة في رضاء الإنسانية، وتنمية الحب والأخوة، هو أمر ممكن واقعيًا عندما نتخلى عن تمسكنا "بإقناع" الآخرين بوجهة نظرنا.

للأسف، لا تجدي المناشآت وحدها في القضاء على عدم الثقة والكراهية، ولا على التدهور الأخلاقي الذي نعيش فيه: ينبغي أن نعمل ولا يمكننا انتظار الأجيال القادمة لتحقيق هذه التغييرات. يجب على هذا الجيل السعي جاهداً لإعادة الحيوية إلى القيم الأساسية من خلال تغيير طريقتنا في العمل وفي ممارسة القيم الإنسانية والروحية. ينبغي على كل فرد على حدة تحمل المسؤولية منذ اللحظة التي تتخلى فيها الحكومات المعاصرة عن تحمل هذه المسؤوليات. وواجب على كل منا تعزيز المنظمات المدنية، والاجتماعية، والثقافية، والتعليمية والدينية للمشاركة في تحقيق هذه الأهداف. أصبح الحوار بين الأديان اليوم ضرورة أكثر من أي وقت مضى، وهو واجب تُدعى إليه جميع الأديان والمؤمنين: دعونا ندرك الموقف الذي نحن فيه وبدون وهم الحلول الجاهزة، البسيطة والسريعة التي لا تأخذ في الاعتبار الاختلافات العقائدية، ولنتجه مباشرة إلى هدف توحيد القلوب من خلال إعطاء دفعة جديدة للقيم الإنسانية الأساسية.

أختتم حديثي بقراءة مقطوعة شعرية قصيرة كتبها دالاي لاما تينزن غياستو،
أملاً أن تكون ملهمة لنا في تنمية شعور داخلي جديد:

في كل مرة ألتقي فيها بأجنبي

ينتابني دائماً نفس الشعور

أننى ألتقي بفرد آخر من العائلة البشرية!

هذا السلوك عمق دائماً

من احترامي وحبتي

لجميع البشر.

ليت هذه الرغبة العفوية

تمثل مشاركتي الصغيرة في السلام العالمي.

أدعو الله كي تصبح الأسرة البشرية على هذا الكوكب أكثر تسامحاً وإيثاراً.

هذا ندائي، من أعماق قلبي، لكل من لا يريد المعاناة ويسعى إلى السعادة الدائمة.

جمعية سيخي سيوا

هارفيندر سينغ

الافتراض المركزي الذي ننطلق منه هو تساوي البشر الأساسي الذي يفضي إلى مفهوم الأخوة الشاملة. الأخوة التي تتجاوز المنشأ الجغرافي والانتماء الثقافي، وقبل كل شيء، الانتماء الديني.

طالما استغل القادة المؤثرون، للأسف، الدين كأداة لتعبئة الجماهير وإقناعهم بضرورة إتيان أفعال تتعارض مع جميع إملاءات العقيدة التي أعلنوا رغبتهم في دعمها. في الهند، موطن السيخية، كان هذا، للأسف، ولا يزال حقيقة حية وملموسة. فلا يزال العنف والقتل باسم الدين مستمرين، يبررهما خطاب ديني مستعار ومبتذل.

على هذا الأساس، نشأت السيخية التي سعت إلى دعم قيم الأخوة وتجنب أعمال العنف الديني غير المجدية مُدرجة، على سبيل المثال، في جورو جرانث صاحب، النص السيخي المقدس، أفكار وكلمات شعراء وفلاسفة ينتمون إلى طوائف دينية مختلفة. ينفذ المؤمنون السيخ، في الهند وفي كل بلد يستقرون فيه، سياسة تتماشى تمامًا مع ما تم التعبير عنه في الوثيقة.

- الحوار والتبادل الثقافي الذي يظهر، على وجه الخصوص، في أبواب غوردوارا (الهيكل الذهبي) المفتوحة أمام أي شخص، وفي قيم الضيافة والانفتاح المتاحة لكل من يدخله. ولا ننسى مظاهر تشارك الطعام (لانجار الشهير) وتبادل المعلومات. وبالأخص، وبالأولى، يكون السيخ خارج البلاد مستعدين دائمًا لمشاركة تعاليم دينهم، وتقاليدهم، وعاداتهم مع أي شخص يتشوق لمعرفة المزيد. كما أنهم فاعلون في خدمة المجتمع، وملتزمون بنشر ثقافة المعرفة المتبادلة التي تؤدي إلى الاحترام.

- تعليم الأجيال الشابة: لا يُترك الشباب السيخ لأنفسهم ويتابعهم في مراحل النمو

المختلفة ليس الأسرة وحدها، بل المجتمع بأسره.

- التسامح: هذه قيمة أساسية، تنتشر في الهند بحكم تعدديتها الدينية، وتدعمها الممارسات اليومية كتنشرك الطعام وفتح المكان الأكثر قداسة، الغوردوارا، أمام كل من يرغب في دخوله.

إذن، لا يشارك مجتمع السيخ المحاور التي عبرت عنها الوثيقة بشكل كامل فحسب، بل ينفذها بنشاط في الحياة اليومية، ويسهم في كثير من الأحيان في خلق ونشر ثقافة المعرفة المتبادلة والتسامح والسلام. ويجد مبدأ الأخوة تعبيراً عنه في خدمة الآخر (سيفا)، والانفتاح على الحوار، والاحترام، ويتلقى هذا "الأخر" نفس معاملة أفراد المجتمع، دون النظر إلى الجنس أو الانتماء الديني.

أملنا، إذن، هو أن يصير ذلك التصرف عاماً ومشاركاً بين جميع المؤمنين وغيرهم، في محاولة لمكافحة تهديد الإرهاب واستغلال الدين الحقيقي والملموس. في الواقع، يمكننا من خلال التعليم والمعرفة والأخوة وحدهم، أن نخلق وعياً أكبر لدى الأفراد، كي يتمكنوا من تمييز ورؤية الهدف الحقيقي للدين وفهم من يتبعه حقاً بشكل مستقل.